الطبعة
12

دار ديوان
Dar Diwan

رواية

صوت الحمير

أيمن العتوم

مكتبة #934

صوت الحمير

مكتبة | سُر مَن قرأ

تأليف
أيمن العتوم

#934

دار ديوان
Dar Diwan

عنوان الكتاب	صوت الحمير
تأليف	أيمن العتوم
التصنيف الرئيسي	أدب عربي
التصنيف الفرعي	أدب ساخر / قصص عربية
رقم الإيداع	1163/2020 الكويت
الترقيم الدولي ISBN	978-9921-758-18-4
بيانات الفهرسة	268 ص / 21 سم × 14سم
فكرة وتنفيذ	ديوان الإبداع
إنتاج	شركة دار ديوان

الطبعة الثانية عشرة 2022

جميع الحقوق محفوظة

دار ديوان للنشر والتوزيع

الكويت - شرق - قطعة 5 - شارع أحمد الجابر - برج الجار - دور 11 - مكتب 33
(+965) 22285440 (+965) 91111474
البريد الإلكتروني: info@dardiwan.com
الموقع الإلكتروني: www.dardiwan.com

مكتبة ٢٠٢٢ ٨ ٢٥
t.me/t_pdf

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي دار ديوان للنشر والتوزيع

الموضوعات

مدخل	
أنتَ حِمارٌ مُختلف	6
كيفَ لي أنْ أطلبَ ما ليسَ لي؟!	16
نحنُ نَتبعُ الرّائحة الّتي لا تضلّ!	28
لو أنّكَ أطعْتَني من البداية!	40
الشّيخُ يُهرِمه الشّتاء	50
بيت الرّبّ لكلّ مَنْ أحبّ	62
البشر يَنسَون، الحمير لا تَنْسى!	74
الطّريق قريبةٌ على مَنْ مَضى	84
لا أعرفَ بالطّريقِ مِنَ الحَمير!	96
لا أتخلّى عن رفيقي من أجل عينَي امرأةٍ	112
مَقطوعٌ مِن شَجَرة	122
حزبُ الحمير؛ يَدُ الله مَعَ الجَماعة	134
مَنْ وجدَ عِشقَه فلْيؤجّلْ صَلاتَه	148
وحدكَ مَن تقرّر أنْ تكون عظيمًا أو تافِهًا	160
حَليبُ الحَمير	170
الخالِدون من الحمير	182
الرّأيُ بالرّأي	192
لُحوم الحمير	204
ذاكِرةُ الموت	216
ما نَفْعُ الوَردِ على تابُوت؟!	224
المَشّاؤون	236
المَواقف والمُخاطَبات	246
في الفلسفة	252
الشُّهب تتساقط	262

مدخل

مكتبة
t.me/t_pdf

كنتُ سأُسمّيها مذكّرات حِمار، أو يوميّات أو ما شابَه... ولكنّ الشّخص الّذي دفعتُ إليه هذه المُذكّرات لكي يُحرّرها ويُدعَى أيمن العتوم كان أشدّ عِنادًا منّا نحن الحمير؛ فأصرّ على أنْ يُسمّيها (صوت الحمير)، مُدّعيًا أنْ أكثر ما يُميّزنا هو الصّوت لا الذّكريات، وأنّنا نُسامح وننسى أسرعَ من البشر، ومع أنّه لم يكنْ على حقٍّ تمامًا إلاّ أنّني قبلتُ؛ لا لشيءٍ إلاّ لكي أشتري قلمَه بسكوتي. ومن نافلة القول إنّ مَهمّة المُحرّر المذكور قد اقتصرت على ضبط الإيقاع اللغوي، أما فيما عدا ذلك فإن أحداث هذه الرواية جميعها قد وقعتْ لي، وهي حقيقيّة حَدّ الخَيال!

التوقيع

أبو صابر

أنتَ حِمارٌ مُختلف

وُلِدتُ تحت شجرة سنديان في (سُوف)، القرية الّتي تعانق جبالُها السّماء، وتسيل وديانها بالأنهار الفضّيّة في فصل الشّتاء، الشّتاء هنا قاسٍ وقارس، وعندما لا تكون لي بَرْدعة يكون الشّتاء قاتِلاً.

غادر أبي بعد أنْ ولدتْني أمّي بيومَين، من أجل العمل عند أحد الفلاّحين في قرية (سَمّوع). كانوا يقولون إنّها قريةٌ مُمرِعة، وإنّ زرائبها دَفِيئة، وفيها الكثير من الإناث الجميلات. ونسي أبي العهد الّذي قطعه لأمّي ألاّ يتخلّى عنها حتّى لو تخطّفتْه أنياب الكلاب أو نهشتْه مخالب الفقر، ولكنّ الذّكور من الحمير مثل الذّكور من البشر مُستعدّون لأتفه الأسباب أنْ يُقامِروا بمشاعر زوجاتهم دون أيّ شعورٍ بالمسؤوليّة، وأنا أخشى عندما أكبر أنْ أصبح مثلهم!!

ظلّتْ أمّي معي حتّى اشتدّ عُودي، كانت تقول لي: «أنتَ حمار مختلفٌ، وإنّني أرى مخايل الذّكاء تبدو على مُحيّاك الجميل، وإنّني أشعر بأنّه سيكون لكَ شأنٌ عظيمٌ في المستقبل». وكنتُ أطربُ لهذا الكلام. وقد نصحتُ كثيرًا من الحمير عندما كبرتُ أنْ يقولوا لأولادهم مثل هذه الكلمات الجميلة.

وماتت أمّي في صباح يوم ربيعيّ، كانت قد استلقتْ من اللّيل، فلمّا نادتْها الشّمس لم تستجبْ، وبكيتُ لموتها كثيرًا.

ولم أعدْ آكل. وصار جسدي هزيلاً، وقرّر صاحبي حتّى يتخلّص منّي أنْ يبيعني إلى الشّيخ عليّ. كان الشّيخ في العَقد السّابع من عمره، وكان إمام المسجد العثماني القديم في (سُوف)، وقد لزم المسجد طَوال حياته، مُذ تخرّج في الأزهر في الأربعينيّات، وانكبّ على العِلم بعد ذلك انكِباب العاشِق حتّى ضَعُفَ بصره. لم يكنْ في سوف من وسيلةٍ للتّنقل آنئذٍ إلا الحمير، وكنّا نحن الحمير نحبّ سوف، كانتْ طرقها جميلة، وهواؤُها نقيًّا، وليس فيها إلاّ مطحنة واحدة، وإذا كان الثّلج في الشّتاء، فإنّنا ننام مع أهلها في بيوتهم تحت سقفٍ واحد.

إذًا صِرتُ أنا حمار الشّيخ عليّ الجديد بعد أنْ هَربَ حماره القديم مع أتانٍ أغواها ببعض الكلمات المعسولة. ظلّ الشّيخ بعد هَرَبِ حماره القديم هذا الآنف الذّكر وحيدًا، وكان عليه أنْ يأتي من الجبل العالي ويهبط المُنعجرات الضّيّقة بين أشجار الزّيتون والتّين واللّزّاب والسّنديان والبُطم إلى بطن الوادي حيثُ المسجد، ولمّا كان الشّيخ قد هَرِم، وضعُفتْ قُواه، فإنّه لم يعدْ يذهب للمسجد إلاّ صلوات النّهار، وحزن لذلك أشدّ الحُزن، وضاعفَ حُزنَه هَرَبُ صاحبه القديم، فأصيب بالوحدة والاكتِئاب، ولم تكنْ له زوجة ولا أبناء، ولا أحدَ يدري لماذا لم يتزوّج، وافتقده النّاس في المسجد، فبعثُوا خلفَه، فعلموا أنّ

الشّيخ مثقوب الفؤاد، وقال لهم: «لقد هرمتُ ولم يبقَ لي من مُؤنس، وأنا لا أستطيع المشي إلى المسجد». فقرّروا وقتئذٍ أنْ يشتروا للشّيخ حمارًا فتيًّا قويًّا يستطيع أنْ يحمله ليؤدّي فروضه بدل الحِمار القديم، وهكذا صِرتُ حمار الشّيخ!!

ونظر الشّيخ من نافذة بيته الطّينيّ إلى أصدقائه وهم يسوقونني إليه كما تُساق العَروس إلى زوجها، وشعر بمودّة غامرة، ولم يدرِ مصدر هذه المودّة إنْ كانتْ بسبب رؤيته لأصدقائه أم رؤيته لي، أم لنا معًا، ولكنّني لمّا سألتُ الشّيخ فيما بعد عن أشياء كثيرة، قال لي: إنّه كان مسرورًا بي، وإنّما كانتْ هذه المودّة نابعةً من قلبه لرؤيتي، فقد قال إنّه رأى فِيّ مخايل الذّكاء، وإنّه يتنبّأ لي بمستقبلٍ بديع، وفيما بعدُ أسرّ لي بأنّني كنتُ أشدّ ذكاءً من كلّ الأولاد الّذين علّمهم في كُتّاب القرية في حياته!

هُرِعَ الشّيخ من الباب دون أنْ يلبس قُفطانه ولا أنْ يضع عِمامته فوق رأسه، وكان منكوش الشَّعر، خفيف الثّياب، حافي القدمَين، وفُوجِئ أصدقاؤه بهيئته هذه، وتعجّبوا من خروجه إليهم على هذا النّحو، وكان يفتح ذراعَيه مُستبشِرًا، وهو يضحك، وظنّ الفلاّحون أنّه يضحك لهم، لكنّه لمّا وصلَ إلينا ابتدرني فأخذني بالأحضان، وتجاهل وجود الآخرين وسط صيحات اندِهاشهم واستنكارِهم، وظنّوا أنّ الشّيخ قد جُنّ، وأنّ

الوَحدة والانعِزال والكآبة قد أفقدَتْه عقله، ولكنّهم لم يكونوا يُدركِون أنّه إنسان، وقلبه مُترَع بالأحاسيس، وعانقني الشّيخ بالفعل عناقًا طويلاً، ومَسَّح لحيته البيضاء بعنقي، وشعرتُ تُجاهه بمودّة كبيرة، وأحسستُ أنّني أعرفُ هذا الشّيخ من زمنٍ بعيد، وأنّنا أصدقاء طفولةٍ غِبْنا عن بعضنا فترةً طويلةً ثُمّ التقينا فجأة. وضحك الشّيخ وهو يُعاين جَمالي، ولمعتْ عيناه من شدّة السّرور وهتف: «إنّه حمار جميلٌ، إنّه أجملُ حِمارٍ رأيته في حياتي!». وتأكّد الفلاّحون أنّ صديقهم قد جُنّ. وصاروا يضربون كَفًّا بكفّ وهم يُحَوقِلون، وتركونا وحدنا نُتمّ العناق، وتبادل نظرات الشّوق والهُيام.

وقام الشّيخ فقادني إلى غرفته الخاصّة. كانتْ غرفته طينيّة واطِئة السّقف، في صدرها الدّاخون الّذي يملؤه في الشّتاء بالحطب من أجل الاستدفاء، وعلى الجانب الأيمن فِراشُه، وعند رأسه بعضُ مزاود الطّعام، وعلى الحائط دائم التّقشُّر هناك مسامير مدقوقة بشكلٍ عشوائيّ يعلّق الشّيخ فوقَها بعضَ ثيابه ومُتعلّقاته. وأجال الشّيخ نَظَره في الغرفة، واختار لي الجانب الأيسر منها، مُقابله تمامًا من أجل أنْ يظلّ ينظر إليّ ويُحادثني، وأوقفني دون أنْ يربطني قريبًا من الدّاخون لكي أنعم بالدّفء، ثُمّ حَكّ ذقنه، قبل أنْ يخرج حاسر الرّأس في

البرد إلى الحاكورة، من أجل أنْ يأتي بالمِعلف الّذي كان للحمار الّذي سبقني في خِدمته، ويضعه أمامي، ويقول لي: «كُلْ يا صديقي. صحيح أنّ هذا الشّعير قديم وبارد، ولكنّني أعدك من الغد أنْ آتيك بشعيرٍ جديدٍ من السّوق، لا تقلق، والآن سامِحْني لأنّ هذا أفضل ما لديّ». ومن جديد عرفتُ أنّه إنسان حقيقيّ، وأنّه يشعر بالآخَرين، وأردتُ أنْ أقول له: «إنّه يكفيني بعض الحشائش اليابسة أو الجذوع المقطوعة أو حتّى الشّوك لآكل وأشبع». ولكنّني تراجعتُ لعلمي بأنّ البشر لا يفهمون لغة الحمير، مع أنّ الحمير يفهمون لغة البشر حتّى أولئك الأغبياء منهم!

ونمتُ مع حلول المساء. وقال الشّيخ: «غدًا ستكون أوّل رحلاتنا معًا أيّها الحمار الرّائع إلى المسجد، والآن نَم هنيئًا». واستغرقتُ في النّوم وأنا أحلم بأيّام ورديّة، وفي منتصف اللّيل استيقظتُ على صوتِ الباب، رأيتُ الشّيخ مُشمّرًا عن ساعدَيه في هذا البرد القارس وهو يحمل في يده اليُمنى إبريقًا، كان يبدو أنّه ذاهبٌ إلى الحَمّام الّذي يقع خارج الغرفة في الحاكورة على بُعدِ مئة خُطوةٍ تقريبًا. وعدتُ إلى الغفوة قبل أنْ أستيقظ من جديد على صوت الباب والشّيخ يدخل منه ويضع الإبريق على الأرض، ويُمسّح أكمامه، ويُغطّي ذراعَيه، وهو يرتجف

من البرد، وأسنانه تصطكّ، وأسمع لُهاثه: «أححححححح». وقام الشّيخ عن يميني، مُتوجّهًا إلى القبلة، وفهمتُ أنّه يريد أنْ يقوم اللّيل، وقرأ الشّيخ عليّ الفاتحة، ولم أسمعْها من قبل من صاحبي السّابق. وكان صوتُه شجيًّا وغائمًا ودافِئًا في هذا البرد الشّديد، وشعرتُ بالانجِذاب لصوته، ولم يكن الشّيخ يدري أنّني مُستيقظ، وقرأ في الرّكعة الأولى سورةً طويلة حاولتُ أنْ أحفظها فلم أنجح تمامًا لأنّ صوتَه كان غير واضح، فقد جعل البردُ حروفه أقرب إلى الغمغمة منها إلى القراءة الواضحة، وقرأ في الثّانية سورة العَلَق، وسجد في نهايتها فسجدتُ معه. ثُمّ سمعتُه يتوجّه إلى الله بالشُّكر على نعمة هذا الحمار، وكان يبدو أنّه يقصدني، فشعرتُ بالسّعادة، ودعا بصوتٍ سمعتُه: «اللهمّ أَلِنْ رأسَه، وأطِلْ عُمرَه، واملأه حِكمةً، وفقِّهْه في الدّين، وعلّمْه التّأويل». ولم أكنْ أدري إنْ كان يعنيني بهذا الدُّعاء أم يعني أحدًا آخَر! ثُمّ نامَ ونمت.

واستيقظَ الشّيخ على أذان الفجر، واقتربَ منّي ونادَى بصوتٍ حَنون: «قُمْ يا صديقي، إنّ الله يُنادينا». وشعرتُ بالفعل أنّ الله ينادينا. ووقفتُ على أقدامي، ولبس الشّيخ جُبّته الكُحليّة، وعمامته البيضاء المُلتفّة حول الطّربوش الأحمر الّذي لا يبدو منه إلاّ الجزء الأخير، وذلّلتُ ظهري للشّيخ

فركبني بسهولة وهو يقول: «حمار مُطيع. زادك الله من فضله يا صديقي». وأخذتُ الشّيخ وكان الجوّ في الخارج يجرح الخدّ بالسّكّين لشدّة البرد. كان الضّباب قد نزل حتّى لامسَ الأرض، وتخلّل أغصان الأشجار، فصارتْ تبدو وتختفي، وسيول صغيرة من الماء تسير بين الحصى فتُصدر صليلاً لذيذًا. ورأيتُ بعضَ الفلاّحين، ثلاثة أو أربعة يلفّون شماغاتهم على رؤوسهم اتّقاء البرد، ويضعون أيديهم في جيوبهم، ويلبسون جِزَمًا طويلة، وهم يحثّون الخُطى إلى المسجد، وسمعتُ بعضهم: «هذا حمار الشّيخ الجديد». «أرجو ألاّ يكون سببًا في غياب الشّيخ عن المسجد كما فعل حِمارُه السّابق». «ماذا فعل حِمارُه السّابق؟». «لقد هرب». «ولكنْ لماذا؟». «لأنّه حمار». وشعرتُ بالكراهية الطّافحة من قلوب هؤلاء الفلاّحين، وتعجّبتُ كيفَ يذهبون إلى الله وهم يُؤذون خلقَه!

ووقفتُ عند باب المسجد، حيثُ كانتْ هناك مصطبة ترتفع عن الأرض قليلاً عن يمين الباب. وعلى هذه المصطبة تابوت يُحمل فيه الميّت إلى داخل المسجد ليُصلّى عليه، وأمام المصطبة طاولة يُغسّل عليها الميّت. وسأشهد مشاهدَ عديدة من تغسيل الموتى فيما بعد مع تكرار حضوري إلى هُنا! وكان الشّيخ كلّما دخل إلى المسجد أو خرج منه أطال النّظر إلى

التّابوت، وهزّ رأسه وهو يُغمعم: «ما نجا من النّوم فيكَ أحدٌ!».

وأَمَّ الشّيخ المُصلّين، وشعرتُ من جديد بأنّ الرّحمة تتنزّل من هذه الكلمات الّتي يتلوها الشّيخ. لم يكنْ يصلّي في المسجد أكثر من عشرة مُصلّين. أكثرُهم كانوا من الّذين تجاوزوا الخمسين أو السّتّين من أعمارهم، وتساءلتُ: «أين شباب القرية؟».

وجلسَ الشّيخ في المسجد يتلو بعد الصّلاة ما كان يحفظ ويستظهره، وظلّ يقرأ حتّى شممتُ رائحة الشّمس قادمةً من المشرق. حينئذٍ قام الشّيخ فصلّى. ثُمّ دعا، كنتُ أسمعه. ثُمّ قام إلى المكتبة الّتي تملأ واجهة القِبلة كلّها عن يمين المحراب ويساره، فأخذ كتابًا لم أكنْ أعرفُ ما هو، وبدأ يقرأ منه بصوتٍ عالٍ، وكنتُ ما زلتُ يومئذٍ في أوّل الشّباب، فكنتُ أحفظُ النّصّ بمجرّد سماعه من المرّة الأولى، وهكذا حفظتُ على الشّيخ أكثر من ألفَي كتابٍ ورسالةٍ خلال ما يزيدُ عن عشرين سنةً هي مدّة صحبتي له. وكان فَكِهًا في كثيرٍ من الأحيان، ولكنّه كان بذيئًا في بعض الأحيان، بذيئًا جِدًّا. وأطلعني على أسرارٍ لم يُطْلِعْ عليها أحدًا من قبل!

ولمّا فرغ الشّيخ في ذلك اليوم، ذرع وحده بَهو المسجد حتّى إذا صار بقربي، ربّتَ على عنقي، واعتذر منّي قائلاً:

«سامحْني؛ لقد تأخّرتُ عليك». ثُمّ صعد المصطبة وركبني بسهولةٍ وانطلقتُ به فَرِحًا إلى البيت.

مكتبة
t.me/t_pdf

كيفَ لي أنْ أطلبَ
ما ليسَ لي؟!

وصلنا إلى قرية عِبّين، كان ذلك في شهر كانون الأوّل، حمل الشّيخ عليّ معه كتابًا في الأخلاق لزُهرة بن سعد، كان في الطّريق يُراجِعُ ما سيقوله بصوتٍ عالٍ، فحفظت كلّ ما قال. عرفتُ أنْ ابن سعد هذا كاتبٌ ممتاز، لغته أعجبتْني، على الأقلّ ليس فيها التّقعّر الّذي عند الشيوخ الآخرين. وعلمتُ أنّ الشّيخ سيتحدّث في المسجد عن الأمانة.

هنالك طريقٌ واحدةٌ تربطُ بين سوف وعبّين، تقدّمْنا باتّجاه القرية حالَما عدنا من صلاة الفجر في مسجد سوف القديم، وقرأ الشّيخ بعضَ الآيات، وصلّى الضُّحى، وأفطرتُ أنا على الشّعير الجديد الّذي أحضره الشّيخ من سوق القرية ليلة أمس بعد أنْ وعدني به. كانت الشّمس ما تزال على ضحكتها الأولى، والأرض باردة، وضوء الشّمس لا يبعثُ شيئًا من الدّفء، وانطلقْنا بين الأشجار، كان النّدى لا يزال في فم الأوراق يسقيها ماءه ويُرطّبها، والعُشب الّذي في الطّريق كان يلمع نَداه فينعكس مع ضوء الشّمس على عيوننا فتعشى، ولولا أنّني قويّ البصر حادّ النّظر لأثّر ذلك الانعكاس عليّ كما أثّر على الشّيخ. لم يجفّ الطّين تمامًا من شتاء الأسبوع الفائت، قُرانا

في الشّمال كما حدّثني الشّيخ - وأنا أعلم بهذا الحديث منه - يحبّها الماء كثيرًا، فلا تبرح تفيض به. شممنا رائحة الصّباح. رائحة النّدى. رائحة البُطم. روائح كثيرة زكمتْ أنوفَنا، روائح ساحرة. الورد يُزهر مُبكّرًا هذا العام، إنّه يخدع الرّبيع باستيقاظه المُبكّر في الشّتاء. لكنّ الشّيخ صحّحني؛ هناك ورود تستيقظ في الشّتاء أيضًا.

كان يومَ جمعة، بعضُ الأولاد كان يقفزون كالقرود في ملعب القرية، والطّين يُغطّي ملابسهم، لم أدرِ لماذا لم ينعموا بالنّوم والدّفء في يوم عُطلةٍ كهذا، لكنّ الدُّنيا كانتْ تضحك في ضَحِكاتهم، وتلعب في لَعِبهم، وتتراقصُ كما يتراقَصون، حدّثتُ نفسي: «ماذا عرفتُم من الدُّنيا أيّها الصّغار؟ غدًا ستكبرون وستعرفونها على الحقيقة؛ إنّها أفعى؛ ملمسٌ ليّنٌ وسُمٌّ شديد». وشعرتُ أنّني عجوزٌ حكيمٌ قد عجَمَ الدهر عوده جيّدًا. وقفزت الكرة من الملعب، وضربتْ رأسَ الشّيخ، فآلَمَتْه ألمًا شديدًا، وشعر أنّ الأرضَ تميدُ به، وأطارت الكُرة العِمامة عن رأسِه لولا أنّه تدارَكها بيُمناه، وغضب الشّيخ، وضحك الأولاد، وإذْ ذاك نظر إليهم مُحنقًا، وصرخ: «انتبهوا أيّها الأشقياء، هل

أنتم حمير؟». وغضبتُ أنا، وهتفتُ: «ماذا تقصد أيّها الشّيخ بقولك هل أنتم حمير؟». ورفعتُ مؤخّرتي عاليًا، وهممتُ أنْ أرفس برجليّ الخلفيّتَين في الهَواء، فلمّا ابتدأتُ بذلك اهتزّ الشّيخ من فوقي، وتقلقل، حتّى كاد يسقط، وأفلتَ اللّجامُ من يده، وحاول أنْ يستعيد توازنه بيسراه، فيما كانتْ يُمناه مشغولة بتعديل عِمامته، وعلا ضحك الأطفال لمنظر الشّيخ، فتوقّفتُ أنا عن إكمال الرّفس في الهواء لأحافظ على هيبة الشّيخ، وهدأتُ، وصاح الشّيخ: «ما بالُكَ أيّها الحمار؟». «لماذا تسبّنا أيّها الشّيخ؟». ولا أدري إنْ فهم لغتي أم لا، ولكنّني أوصلتُ له الرّسالة على كلّ حال. وتابعْنا سيرَنا، ووصلنا إلى مسجد القرية في العاشرة صباحًا، كانتْ مئذنة المسجد طويلةٌ جِدًّا، حتّى شعرتُ وأنا أتابعُها ببصري إلى الأعلى أنّها تُعانق السّحاب، وفي ذاك اليوم بالذّات لم تكنْ مرئيّة تمامًا، فشعرتُ بأنّها رمح يطعنُ خاصرة السّحاب، وأنّ السّحاب سوف يسيل ماءً في التّوّ. وأمام المسجد كان الفلاّحون يعرضون بعضَ المحاصيل والأدوات للبيع، وكان هناك فلاّح يصيح على حمارٍ بخمسين قرشًا، وصرختُ في أعماقي: «خمسين قرشًا... ما هذا الثّمنُ

البَخْس؟!». ونويتُ أنْ أمشي إليه وأنْ أعضّه في قَفاه، فنحن نساوي أكثر من هذه القروش الخمسين الزّهيدة، ومشيتُ نحوه بالفعل لأنفّذ فكرتي، والشّيخ يَثنيني جهة المسجد ويعجب من سيري نحو الحمار الآخَر، وظنّ أنّني وجدتُ رفيقًا أتسلّى به عن الشّيخ؛ وليس هذا غريبًا؛ فالبشر أسوأ المخلوقات ظنونًا، وهم يظنّون أنّ الدُّنيا تخلو من الوفاء. وفي منتصف الطّريق تذكّرتُ القصّة الّتي قرأها الشّيخ أمس في تاريخ ابن كثير عن أنّ سيّدنا يوسف باعوه ببعض الدّراهم المعدودة، ووجدتُ في القصّة بعضَ العَزاء، وارتحتُ نفسيًا، وقلتُ: «لستُ أكرمَ على الله من النّبيّ». ولوى الشّيخ عنقي باتّجاه المسجد فطاوعتُه هذه المرّة. وكان الشّيخ لمّا قَلْقَلْتُه ونحن نمرّ بالملعب قد أخرجَ رِيْحًا فانتقضَ وضوؤه، فذهب إلى حمّامات المسجد ليتوضّأ، ومكثتُ أنا بالباب أنتظره، ونظرتُ في الشّارع فرأيتُ بعضَ الكِلاب تذرعه باطمِئنانٍ، يقول البشر إنّ الكلاب وفيّة، صدقوا، ولكنّنا أشدّ وفاءً منها! ورأيتُ على مدى بصري - وبصري حادّ جدًّا بالمناسبة وأرى في اللّيل تمامًا كما أرى في النّهار وليس ذلك إلاّ لنا نحن الحمير - المهمّ؛ رأيتُ أقفاصًا

في أيدي شباب القرية وفيها ببغاوات حمراء وصفراء وخضراء وهي تقفز في تلك الأقفاص وتصيح: «يا كلب هاتِ الكندرة». وآخر: «يلعنْ أبو اللّي خلّفك». وخجلتُ من الألفاظ النّابية الّتي تتكلّم بها الببغاوات، ولكنّني أدركتُ أنّها تردّد ما سمعتْ، وهتفتُ في نفسي: «إنّ البشر لا يعلّمون الحيوانات إلاّ أسوأ ما لديهم» وتنهّدتُ متحسّرًا، وكدتُ أدير بصري في السّوق مبتعدًا عن الببغاوات لولا أنّني سمعتُ واحدةً تصيح كأنّما تحتجّ: «إنتا حمار!!». وكدتُ أركضُ نحوها فأبلعُها بلقمةٍ واحدةٍ من شدّة غيظي، وهتفتُ: «حتّى أنتِ أيّتها الببّغاء!!». وتراجعتُ في اللحظة المناسبة، لأنّني أردتُ ألاّ يغيّر الخَلْق فكرتهم عنّا نحن جنس الحمير بأنّنا صبورون صبر الجبال الرّاسيات، ومع أنّهم يظنّون أنّ صبرَنا عن بلادة، لكنّهم والله مُخطِئون، وإنّما صبرُنا عن عِلمٍ وحِلم، ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون!! وتابعتُ ببصري السّوق، فرأيتُ أكياسًا من التّبن والقمح والشّعير فشعرتُ بالجوع، وقلتُ: «ماذا عليّ لو أخذتُ حاجتي من الطّعام فبادرتُ هذا الفلاّح وأدرتُ فمي في تِبنه مرّةً أو مرّتَين؟!» لكنّني لمتُ نفسي على هذا الخاطر

الخبيث؛ فكيفَ لي أنْ أطلبَ ما ليسَ لي، وكيفَ لي أنْ آكل استِجابةً لنداء الشّهوة لا للجوع الحقيقيّ، وكيفَ أكون طمّاعًا وذا بطنٍ لا تشبع، وقد أطعمني سيّدي الشّيخ في الصّباح، وما زال شعيرُه الجيّد لم يُهضَم بالكامل في معدتي، وعرفتُ أنّ الشّيطان يجري في عروقنا مجرى الدّم كما يجري في عروق البشر!

ثُمّ صحا القلبُ فجأة، فقد مرّتْ ليلاي، وهتفتُ: «ليلايَ منكنّ أمْ ليلى من البشر؟!». كانتْ هناك سيّدة تقودُ أتانًا صغيرةً جميلةً، تلبسُ بردعةً حمراء، ويُزيّن جبهتَها بعضُ الخَرَز الأزرق، وعيناها كَحلاوان ذابِحتان، وبطنُها ضامر لكنّ فخذَيها مُمتلِئين، ومؤخّرتها بَضّة بشكلٍ جنونيّ، وصدرُها حنونٌ يُشبع الرّضيع ويُدفِئ الضّجيع، وقد سارتْ بها وسار قلبي معها، حتّى أوقفتْها بجانب الحمار الّذي رأيتُه أوّل ما دخلتُ السّوق، ووقفت السّيّدة بجانب أتانها، وهي تنادي: «حمارة جميلة بتسعين قرشًا». وفرحتُ أنّها أغلى من الحمار، مع أنّني شعرتُ كذلك بالحُزن لهذه النّظرة الدُّونيّة الّتي ينظر بها البشر إلينا، ورفعت الفلاّحةُ صوتَها من جديد: «بتسعين

قرشًا». ونهقتُ بصوتٍ عالٍ، وسمعني الشّيخ الّذي كان لا يزال يتوضّأ، فعَجِب ما الّذي أنهقني، وأردتُ أنْ أقول له: «إنّه الحُبّ يا سيّدي، وإنّني أتمنّى أنْ تشتري هذه الحِمارة ثُمّ تزوّجني إيّاها لكي يبرد لاعج الشّوق في كبدي، ولكي تؤنس وحشتي في اللّيالي الطّويلة عندما تكونُ أنتَ نائمًا»، ولكنّني خفتُ ألاّ يفهمني أو يُدرك حاجتي. ونويتُ إنْ هو خرج من متوضّئِه أنْ أحدّثه بما حاكَ في صدري، وأقنعه بأنّه يُمكن أنْ تُشارِكنا هذه الأتان الرّائعة الغرفة، أو يُسكنني معها في الحاكورة إذا كانت الغرفة تضيقُ بثلاثتنا. ونظرتُ إلى الأتان فإذا هي تنظر إليّ من طرفٍ خَفِيّ، ورأيتُ حقولاً من الورد في عينَيها، وأنهارًا من العسل في صدرها، وتحرّكتْ فِيّ مشاعر لا يُمكنني أنْ أصفها، ولكنّني اقتربْتُ على بُعدِ خُطُواتٍ منها وقلت: «هل تقبلين بي زوجًا؟». فأطرقتْ إطراق الحَيِيّة في خِدرها مُتعجّبةً من جُرأتي، فاستثمرتُ الفُرصة، وسدّدتُ إليها سَهْمًا آخر: «لا ترتبطي بحمارٍ آخر، ولن أتقدّم لسِواكِ ولو بعدَ عشرين سنة، فعلى كثرة الحمارات في سُوف إلاّ أنّ قلبي اختاركِ دونهنّ جميعًا، وحديث القلب متّفق عليه لا يقبل الشّكّ».

وظلّتْ صامتةً، وشعرتُ أنّها تودّ الحديث لكنّ الإناث يمنعهنّ الحياء من القول، وإنْ كان طوفان الحبّ في قلوبهنّ إذا فاض أغرقَ كلّ شيء. وأردتُ أنْ أسمعَ صوتَها ولو بكلمةٍ واحدة، فاستسْميتُها، فقالت: «صَعْدة»، فقلتُ: «عاشتِ الأسامي». وخرج الشّيخ وهو يرتجف من شدّة البرد ويُسبل أكمام قُفطانه على ذراعَيه العاريتَين، وواصلتُ أنا النهيق وقد شَغَفني الحُبّ، وأطار لُبّي الهُيام، ودفّقَ الوَجْدُ ماءَ الشّبابِ في عُروقي، لكنّه صاح: «اسكتْ أيّها الحِمار، إنّك تؤذي المُصلّين الوافدين إلى المسجد بصوتِك». وشعرتُ بالإهانة، وأردتُ أنْ أقبضَ بفمي على كُمّ الشّيخ، وأسوقه إلى المسجد لينظر بنفسه ويكتشف أنّه لا أحدَ فيه ألبتّة، وأنّ النّاس كلّها في السّوق، وأنّ النّاس تُرهفُ سمعَها إلى نداءات الباعة لا إلى نداءات الله، وهَممْتُ أنْ أقول إنّ جعير هؤلاء الفلاّحين أسوأ بكثير من صوتي الحَنون، ولكنّ كبرياء البشر تمنعهم من أنْ يعترفوا بذلك، وقطع الشّيخ بتفكيره السّلبيّ هذا الخيطَ عليّ أنْ أُخبره بالأتان الجميلة وما أحدثتْه من كَسْرٍ في قلبي. فصرفتُ النّظر عن الموضوع وأنا في غاية الحُزن.

وصعدتُ مع الشّيخ الدّرجات الّتي تقود إلى بَهو المسجد، وكان الشّيخ بالفعل وَحده، وانتظر وقتًا طويلاً حتّى يأتي النّاس، ولكنّهم لم يأتوا، حتّى إذا انتصفَ النهار، ودخل مُؤذّن المسجد فنادَى لصلاة الجمعة دخل بضعة رجالٍ وأولادٍ صغار، ولم يُكمل الرّجال الصّفّ الأوّل والثّاني، ولمّا كان صوتُ المؤذّن يُنادي عبر السّمّاعات: «الله أكبر» كانتْ أصواتُ الباعة ما زالتْ ترنّ في الشّارع ويتردّد صداها عاليًا: «الحمار بخمسين قرشًا». «خيشة التِّبن بعشرين قرشًا». «البِبّغاء بقرشَين».

وعُدْنا مُنكسرَين، قال الشّيخ: «أهل القُرى دِينُهم خفيف». وأردتُ أنْ أقول له: «ولكنّكَ من أهل القُرى». وأقبل عليّ الشّيخ وهو مُكدّر الوجه، واجمًا، طويل التّفكّر، وقد نكّس رأسه، فأردتُ أنْ أخفّف عنه، ولكنّني لم أدر كيفَ سيفهمني. أردتُ أنْ أسلّيه بالغِناء، ولكنّني خشيتُ أنْ ينهرني، فصمتُّ درءًا للمشاكل. وذلّلتُ ظهري فركبني، وسرنا عائدَين إلى سوف. كانت الشمس قد بعثتْ شيئًا من الدّفء في الأجواء. لكنّ برد القرى الشّماليّة لا يمكن التّنبّؤ به أو تحمّله. مررنا بالملعب ونحن عائدون فرأينا الأولاد ما زالوا يلعبون، فلمّا

رأوا الشّيخ على الحِمار، قال أخبثهم، دعونا نتسلَّ قليلاً، وجاء ذو القدم الصّاروخية، فركل الكرة مُصوّبًا إيّاها نحو وجه الشّيخ، وطارت الكرة وأصابتْ وجه الشّيخ بالفعل إصابةً مُباشِرة، وسقطتِ العِمامة من فورها عن رأسِه وتدحرجتْ على الأرض قليلاً قبل أنْ تتوقّف متلطّخةً بالطّين، وسال الدّم من أنف الشّيخ، وفقد الشّيخ وعيه للحظات، قبل أنْ يستعيده ليعرفَ ما أصابه، ويبدأ بالشّتائم: «يا أخوات الشّـ...». «يا أولاد القَحـ...»، ولم أتخيّل للحظة أنّ الشّيخ العالِم قد يتلفّظ بهذه الألفاظ البذيئة جدّا، واحمرّ وجهي من الخجل، وذُبتُ في نفسي، وأطرقتُ برأسي أفحصُ الأرضَ بنظراتٍ زائغة، وأردتُ أنْ أقول للشيخ: «حرام عليك...». ولكنّ سيل الشّتائم لم يتوقّف: «يلعنْ أبو إلّي بَزَرْكُم يا أولاد الـ...». وكان كلّما علا صوتُ الشّيخ بالشّتائم علا صوتُ الأولاد بالضّحك والهياج، وأسرعتُ بالشّيخ مُبتعِدًا عن الأولاد من أجل أن أوقف سيل الشّتائم المُخجل هذا، وركضتُ.. فإذا الشّيخ يصيح: «وأنت يا ابن الحَرام أينَ تركضُ بي؟!». فهممتُ أنْ أرفس برجليّ وأُلقي بالشّيخ بعيدًا على الأرض حتّى تندقّ عنقُه، ولكنّني تراجعتُ

في الحال لكي يعرفَ أنّني صبورٌ حليم، ولستُ مثله، ومضيتُ أركضُ ثانيةً، وإذا بالشّيخ يصرخ: «العِمامةَ يا حمار». وقلتُ: «آه صحيح». وعُدتُ إلى موضع العِمامة فالتقطْتُها بأسناني ورفعتُ رأسي بها إلى الشّيخ فتعجّب منّي كلّ التّعجّب، وكانتْ هذه العلامة الثّانية على أنّني أفهم لغته، ولكنّ الأهمّ متى سيفهم هو لغتي؟

ومسح الشّيخ الطّين عن عمامته البيضاء الّتي تلوّثَتْ، والدّم الّذي سال من أنفه، وكادَ يبكي من القهر، ولكنّه حبسَ دموعه. ومضينا قافلَين إلى سُوف. وسُوف يومئذٍ تجري من تحتها الأنهار!

مكتبة
t.me/t_pdf

نحنُ نَتبعُ الرّائحة الّتي لا تضلّ!

مَنْ يعرفُ منكم كيف أبدو؟ أنّى لكم أنْ تعرفوا؟ التّفكّر في خَلْق الله وبديع صُنعه لا يدخل في دائرة اهتِمامكم أيّها البشر، على أيّة حال، أنا - وأستغفر الله من أنْ أزلّ أو أضلّ - عيناي وَرْدتان من السّوسن البرّيّ تَرَيان في الظّلام تمامًا كما تَرَيان في النّور، وقائِمتاي الأماميّتان مُستقيمتان كجذع شجرةٍ وصلبتان كرمح، يُخفي صلابتهما وَبَري الرّماديّ الخفيف، أمّا قائِمتاي الخلفيّتان فتبدآن بالانحِناء بعد الرّكبة، ليكون كفلي مُقوّسًا لا يزلّ عن مَتْنِه الرّاكب، وذيلي طويلٌ في آخره ذنبةٌ من الشَّعر أهشّ بها كلّما لزم الأمر، وأذناي طويلتان بهما أسمع ما لا يسمع البشر، وأحسُّ بهما الأنواء، وأشعر من خلالهما بالأمطار قبل أنْ تسقط، وأميّز صوتَ النّملة إنْ كانتْ تدبّ على الصّخرة الملساء أو على الورقة العَجفاء، ولي بهما أكثر من عشرين حركة؛ مَنْ يعرفني يعرف كلّ حركةٍ منها ما تعني، فإذا رفعتُهما إلى الأعلى وضممتُهما فأنا سعيدٌ وأسمعُ خبرًا جميلاً، وإذا فرّقتُ بينهما فأنا منزعج، أمّا إذا تهدّلتا على جانبَي عنقي فمعناه أنّني حزين، ولا داعي للشّرح أكثر من ذلك. أمّا مُنخراي فواسِعان ينفر منهما بعضُ الشّعرات الطّويلة البيضاء، ولطالَما

نظّفتُ بهما الأرضَ للشّيخ بزفيرٍ شديد، ولطالَما أوقدتُ بهما نار الدّاخون إذا خَبَتْ، وهما فتحتان أستطيع أنْ أوسّعهما عند الحاجة فتُصبحان قادرتَين على ابتلاع كرةٍ صغيرة. أمّا أسناني فهي صفراء، ولربّما تُشبه حبّات الفول الكبيرة، وأمّا رموشي فطويلةٌ خلقةً من الله، لا بالتّصنع ولا بالتّمكيُج. وأمّا ظهري فهو منخفضٌ عند الظّهر مرتفعٌ عند العنق، والكفل كأنّما ذُلّل فيما طلبه الله منّا بأنْ يكون مركبًا وطيئًا لبني البشر، وليتَ البشر يقدّرون نعمة الله عليهم كما قدّرْنا نحن ما كتب علينا من أجلهم فرَضِينا، وأنا أقمر؛ فعنقي غليظةٌ مَلساء رماديّة ليس عليها شَعْرٌ يُرى إلاّ ما كان في العُرْف، حيثُ يتدلى شَعر العُرْف على يمين عنقي بدلال. وأمّا بطني فضخمة في الفترة الّتي قضيتُها عند الشّيخ؛ فقد كان يعتني بي جيّدًا. وأمّا جبهتي فواسعة، ومن فضول الكلام أنْ أقول إنّ ذوي الجبهات الواسعة يملكون قَدْرًا من الذّكاء والحِنكة أكثر من غيرهم. وأمّا شِفاهي فغليظة رطبةٌ دائمًا، وطالَما ساعدتْني على ترطيب الحشائش اليابسة والأشواك تمهيدًا لأكلها في حالات الجوع الشّديدة الّتي كنتُ أمرّ بها في بعضِ فترات حياتي. وأمّا حوافري فصلبةٌ لم توقفها

صخور الجِبال، ولا وعورة الطّرق، ولا حجارة الوديان، ولم تحتجْ إلاّ في حالاتٍ نادرة إلى حدوات يُثبّتها بيطار القرية أسفلَ حوافري. وأنا أَخْطَب؛ يرتسمُ أسفل عنقي وشاحٌ أسودُ باهرٌ، يمتدّ كقوسٍ على أوّل ظهري، فيُعطي تدرّجًا مُذهِلاً للّون الرّمادي الّذي يغلب على جسدي كافّة.

قرّر الشّيخ عليّ بعد أنْ فشل في مهمّته الرّساليّة في عبّين أنْ يجرّب حظّه مع قريةٍ أخرى. توجّهنا بعد أسبوع أو عشرة أيّام إلى (راسون)، ما أجمل القرى الشّماليّة وما أشدّ برودتها! هتفتُ وأنا أعلم أنّ رحلتَنا ستكون ممتعةً ومُتعِبة. قلتُ: «لو قرأ عَلَيّ الشّيخ في الطّريق من بعض الكتب الّتي معه فسيكون بذلك قد خفّف عليّ قليلاً من وجع الرّحلة!». وبدا أنّ التّفاهم بيننا قد بدأ. حينَ خاطبني: «هل هذا الشّعير جيّد؟». أردتُ أنْ أقول له: «إنّني لم أذقْ شعيرًا جيّدًا إلاّ عندك» ولكنّني تراجعتُ لعدم يقيني بأنّه بلغ من العِلم بحيثُ يستطيع أنْ يفهم لُغتي، فاكتفيتُ بأنْ هززتُ رأسي بالموافقة، فابتسم الشّيخ، واقترب منّي واعتنقني، وسَعِدَ أنّني فهمتُ عليه. وقلتُ في نفسي: «كيفَ سيكون شعورُكَ إذًا حينَ تُصبح تفهم عليّ باللّسان لا

بالإشارة؟!». وقال الشّيخ: «كُلْ على قَدْر ما تستطيع؛ فالرّحلة هذه المرّة طويلة». ولا يدري أحدٌ أنّ حمارًا مثلي يُمكنه أنْ يأكل القرية كلّها، ولذلك ما إنْ سمعتُ الشّيخ يقول ذلك، حتّى التهمتُ كلّ الشعير الموجود في المِعلف في أقلّ من خمس دقائق، ونهقتُ شاكِرًا، وظنّ الشّيخ أنّني أطلبُ المزيد، فملأ المِعلف ثانية، ففعلتُ به ما فعلتُ بالمِعلف الأوّل، وأتيتُ عليه. ثُمّ إنّني رأيتُ الشّيخ يدخل غرفة التّبن والشّعير والحبوب الّتي بجانب غرفتنا أكثر من أربع مرّات في ذلك الصّباح، وهمسَ الشّيخ في المرّة الرّابعة: «اللهمّ أشبِعْ بطنَه». وضحكتُ؛ فلقد كلّفتُ الشّيخ في ساعةٍ واحدة ما كنتُ سأكلّفه إيّاه في شهر كامل، ورددتُ: «سأعوّضك أيّها الشّيخ... لا تحزن».

وانطلقْنا في العاشرة. البرد... البرد... البرد... لعنة الله على البرد، للشّيخ جُبّة من صوف يلبسها فوق قُفطانه أمّا أنا فليس لي إلاّ هذه البردعة، وخُرجان من قِماشٍ ينسدلان فوقَها. إذا لم أدفِّئ بطني فسأُصاب إمّا بالمغص أو بالإسهال؛ لقد أكلتُ كثيرًا، ولكنّ الشّيخ شجّعني: «مهما يكون الّذي أكلتَه، فإنّ الطّريق ستأكلُه». وانطلقْنا. لا شمس. ريحٌ ليستْ سريعة

ولكنّها تقصّ المسمار. شجرات البُطم على مدّ البَصر، الطّريق الّتي مشتْها الحمير من قبلي، واتّخذها الإنسان من بعدها أيضًا طريقًا له؛ لأنّها الأقصر والأكثر أمانًا، ما كان له أنْ يعرفها لو لانا. يُطلقنا هذا الكسول الجاهل في الجبل وينتظر منّا أنْ نخطّ له الطّريق، لا بأس ليست الخدمة الجليلة الأولى أو الوحيدة الّتي نُقدّمها للجنس البشري!!

الرّوائح تنبعثُ من جديد. رائحة الحطب المُحترِق الّتي تصل من البيوت الطّينيّة المُتناثرة في الطّريق. الفلاّحات في بيوتهنّ يخبزْن بانتظار أزواجهنّ الذّاهبين إلى التقاط الأرزاق من أفواه الجوع. رائحة الخُبز هي الأخرى تُدهِشني وتُغريني، مُستعدّ أنْ آكل خمسين رغيفًا الآن رغم شبعي التّامّ، فخبز الطّابون لا يُقاوم. تختلط رائحة الخُبز في الطّابون برائحة الخشب المحترق في الدّاخون، احتراقٌ حميد يُنتج كلّ هذه الرّوائح الزّكيّة. مضينا، الأرض ما تزال مُبتلّة؛ ألا تنشف الطّرقات في قُرى الشّمال؟! الطّين في كلّ مكان، الماء يتجمّع في بعض الأجران، أتشمّم الأرض وأنا أمضي بالشّيخ إلى راسون، رائحة الطّين تزكم أنفي، الطّين المختلط بالرّماد وثمر البلّوط وشوك

السُّمّاق المهروس تحت الأقدام من السّنة الفائتة، اختلاط الماء بالطّين مع أوراق الأشجار المطحونة بفِعل الأيّام يُخرج هذه التوليفة الرّائعة من الرّوائح. نمضي. البيوت تتناثر. لا أضواء في هذا الصّباح الضّبابيّ. الضّباب يعانق الأشجار، أحيانًا يعانق الأرض، يمشي أمامنا، يعبر بجانبنا كشبحِ فتاةٍ بيضاء، رقيقًا، غامِضًا، وحنونًا رغم قسوة البرد المُستتر فيه. والرّيح تبكي؛ على ماذا تبكي الرّيح؟! على ابنها الّذي ذهبَ مع الرّيح!! علينا نحن الذّاهبين إلى أقدرانا!!

صِياح بعضُ الفلاّحين على أبنائهم في الحقول المُنتشرة على جانبي الطّريق يأتي واضِحًا. لم تكن السّيّارات تعبر الشّارع الإسفلتيّ الّذي يبعد عنّا عشرات الأمتار في ذلك الصّباح. السّيّارات نائمة. بعد قليلٍ سنضطرّ أنْ نقطع الجزء الإسفلتيّ من طريقنا الطّينيّة، لا أحبّ سواد الإسفلت، الطّين أحبّ إلى قلبي. بُخار أنفاسنا أنا والشّيخ عليّ يتصاعد من مناخرنا، الشّيخ يضع الكِتابَ في الحِلْس، ينفخ في يدَيه ليُبعِدَ البرد، ثُمّ يعودُ إلى الكِتاب، أرفع رأسي قليلاً إلى الأعلى، أهتف: «اقرأْ أيّها الشّيخ.. اقرأْ بصوتٍ عالٍ». لكأنّ الشّيخ يفهم هذه المرّة ما

قلتُ، أو كان ذلك قَدَرًا، فقد راح يقرأ بصوتٍ عالٍ.

صعدْنا جبلاً عاليًا. لقد بدأت الطّرق تضيق. الشّيخ لا يعرف الطّرق أكثر منّي. أنا أحفظُ كلّ شبرٍ فيها. نحن الحمير نشمّ الدّروب، نعرفُ من رائحة الطّين إلى أينَ نتّجه. البشر مساكين. لا خرائطَ للمكان إلاّ في أذهانهم. لو تغيّرتْ تلك الخرائط لضَلّوا. نحن نتبع الرّائحة الّتي لا تضلّ!

الأشجار في هذا الجبل الّذي نصعده مُتعالِقة، قريبة مُتلاصِقة وواطِئة. اضطرّ الشّيخ معها أنْ يحني رأسه كلّما مررنا بجانب شجرةٍ واطِئة من أجل أنْ لا تدخل الأغصان في فمه أو عينَيه، أو تجرحَ وجهه أو كتفَيه، شغَلَه ذلك عن القراءة بصوتٍ عالٍ، وراح يراقب الطّريق، قلتُ له: «دَعْ مراقبة الطّريق لي وانشغل بالقراءة، أنا أعطيكَ ما عندي وأنتَ تُعطيني ما عندك». لا أدري كيفَ فهم خاطري هذا أو سمعه، فنفّذه على الفور، لكنّ ذلك أدّى إلى وقوع مصيبة، ظهر كلبٌ أسودُ ضخمٌ فجأةً في وجهي، وهجمَ علينا وهو ينبح نُباحًا شديدًا، فخفتُ من مُباغتته لي على هذا النّحو، فركضتُ، فَعَلِقتْ عِمامة الشّيخ بغصنٍ من الأغصان الّتي تمدّ أصابعها دون حياءٍ في وجوهنا، فصاح

الشّيخ، لكنّ صياحه تضاءَل أمام نُباح الكلب الأسود الّذي هَمّ بأن يُغرز أنيابه المُخيفة في بطني، فزدتُ من سرعتي، وعَدوتُ مُسرِعًا، فمررنا تحت شجرة زَعرور فحزّتْ خدّ الشّيخ فأسالتْ دمه، فصاح، لكنّ صياحه لم يكنْ ليُساوي شيئًا أمام هجوم الكلب المَسعور، فأطلقتُ سيقاني للرّيح، فوقع الشّيخ عن ظهري وعلقت رِجله في حلقة الرّكاب أسفل البردعة، فجررتُه على ظَهره، وصاح أكثر وهو يشتم: «يا حمار... يا حمار... اتفو على أبو...» ولكنّني لم أسمعْ، وشعرتُ بأنّ ظهري قد خفّ، وأنّني أشدّ شيئًا ثقيلاً يُبطِّئ من سرعتي، فنظرتُ خلفي فإذا هو الشّيخ قد تلطّخ بالطّين من رأسه إلى قُفطانه، وكان حاسر الرّأس، وصلعته تزرقّ على ضوء الشّمس الباهتة الّتي تتخلّل الأغصان، وهو يُمسك باللّجام بيأس ويصرخ بغضبٍ عليّ، ثُمّ بخفّة التقطَ حجرًا وأنا أسحله على الطّين بصعوبة، ورماه في وجه الكلب فَخَسِئ الكلب وانكفأ عائدًا إلى وجاره، وتوقّفت أنا، فما كاد يشعر بأنّ الحمار الّذي يسحبه قد توقّف عن جرّه حتّى أمسكَ اللّجام، وفكّ رِجله من حلقة الرّكاب، وراح يشتمني بألفاظٍ بذيئة، وشعرتُ بالذّنب، لكنّني أيضًا

شعرتُ بالخجل من ألفاظ الشّيخ، وتساءلت: «لماذا يُحاسبني الشّيخ على غريزةٍ مركوزةٍ فينا نحن الحمير، من الطّبيعيّ حين أرى كلبًا أسودَ ضخمًا هاجِمًا عليّ أنْ أهرب، وأحاول النّجاة بروحي!». وقام الشّيخ وابتدر إلى صخرةٍ أخرى فاقتلعها من الأرض، وركضَ نحوي ليهشّم بها رأسي، وما زال سيلُ شتائِمه يتوالَى، وحينَ رفعَ كلتا يدَيه بالصّخرة إلى الأعلى، رأيتُ عيون الشّيخ تقدح بالشّرر، وصلعته قدِ احمرّتْ من الغيظ والعَرَق، والزّبد مع سيل الشّتائم يتطاير من زاويتَي فمه، ولم أدرِ هل أضحكُ أم أبكي، ولكنّني عوِضًا عن ذلك، فردتُ أذنَيّ حتّى صارتا بزاويتي ستّين مع أفق رأسي، وأخفضتُ عنقي حتّى كادَ فمي يُلامس الأرض، وأسبلتُ عينَي، وتلك حركةٌ يعرفها الشّيخ منّي، إنّها تعني الاستِسلام والإقرار بالخطأ، فلمّا رأى الشّيخ ذلك، بَرَدَ غَضَبُه في التّوّ، وألقَى الصّخرة بعيدًا، وصرخ كأنّه يُنفّس آخر دُفقةٍ من غضبه: «إنتا حمار!!». وشعرتُ بالإهانة، وودتُ لو أنّ الشّيخ رضخَ رأسي بالصّخرة ولم يُسمعني هذه الكلمة، لكنّني التمستُ له العذر، فقد سببتُ له جروحًا بليغة. وأصلحَ الشّيخ هندامه، وتحسّس رأسه العاري،

وأسبل بعضَ الشّعرات المتبقيّة في صلعته، وهتف: «العِمامة»، فعدتُ ومددتُ فمي إلى أعلى غصن الشّجرة الّتي علقتْ بها، وأمسكتُها بأسناني وأعدتُها للشّيخ، فضحك، وقال: «فهِمْتَني؟!». فضحكتُ وقلتُ له: «لقد نسيتَ الكتاب أيضًا». فلم يفهم، وصبّرتُ نفسي: «سيفهم قريبا بلا شكّ، إمّا أنْ يرتقي البشر إلى لغتنا فيتعلّموها، أو نتعلّم نحن لغتهم، وأنا ماضٍ دون إبطاء إلى تعلّم لغة البشر، وقريبًا سأخاطب الشّيخ بلغته، إنْ عَجزَ أنْ يُخاطبني بلغتي». وركبني الشّيخ، وحثّني حينَ هَمَزَ بطني بقدَميه، فلم أتقدّم خُطوة واحدةً، وهتفتُ: «الكتاب يا شيخ». لكنّه استمرّ يهمزني بكعبِ حِذائه، ثُمّ بصوته: «هيّا يا حماري العزيز». ثُمّ بعصا كسرها من غصن شجرة، ولمّا يئِستُ من فهمه، دُرتُ بنفسي إلى الخلف، فتعجّب الشّيخ، وأرادَ أنْ يبدأ سيل شتائمه المعتاد، فلم أمهلْه، وانطلقتُ أبحثُ عن الكتاب، فتراءَى لي من بعيد، وكنّا قد فقدْناه من أوّل نبحةٍ للكلب الأسود، والتقطتُ الكتاب من الأرض بشفاهي مترفّقًا به، ورفعتُ به رأسي إلى الشّيخ، فزادَ تعجّبه منّي! ومضينا إلى راسون.

وقرأ الشّيخ: «قال الرازيّ صاحب الطّبّ المعروف إذا طُبِخَ لحم الحمار الأهليّ وقعدَ في مائِهِ مَنْ به كُزاز نَفَعَه». فضرطتُ، فسمع الشّيخ ضَرْطتي وضحك. ثُمّ تابع يقرأ ما قاله الرّازيّ: «وإذا اتُّخِذَ من حافره خاتمٌ ولَبِسَه المصروع لم يُصرَع»، وضرطتُ ضرطةً أشدّ من الأولى، وهممتُ أنْ أقول: «إنّ هذا الرّازي حِمار». وتراجعتُ. لكنّني نهقتُ، وقلتُ: «يا شيخ لم أقطعْ معك كلّ هذه المسافات لتُسمِعني هذه التُّرّهات، هل لديكَ في الخُرجِ كتابٌ آخَر؟!».

لو أنّكَ أطعْتَني من البداية!

وأشرفْنا من القمّة على مجموعةٍ من الجبال كلّها خضراء داكنة، وكان أخضرها الدّاكن مع زرقة السّماء مع غمائم الضّباب البيضاء يَحُول إلى اللّون السّماويّ أو الفيروزيّ. وبدا أنّ الله عرّف الجَمال هنا تعريفًا بيّنًا قلّما يراه الإنسانُ بقلبه. وكان لا يجرح خُضرةَ الأشجار المُتراصّة غيرُ الطّريق التّرابيّة الضّيّقة الّتي تتلوّى تحتَها مُوصلةً إلى القُرى كلّها على خَيْط اللّبن، الخيط الّذي تنضمّ في عِقده قُرى راسون وعرجان وباعون وأُوصرة وحَلاوة والهاشميّة وخِربة الوهادنة.

وشممتُ على عادتي رائحة الشّتاء المُعتّقة الّتي تنبثق منها آلاف الرّوائح الّتي أستطيع أنْ أُميّز كلّ رائحةٍ منها على حِدة. كانت رائحة شجر المُلوك أو الكرز الّذي لم يُزهِر بعد، تخرج من أعماق الجذوع الرّيّا لتصل إلى أنفي متجاوزةً بذلك كلّ الرّوائح الأخرى، تولد الرّوائح في أنفي قبل أنْ تولد في أنوف البشر! رائحة زهر الكرز الأحمر مُسكِرة. أدوخ كلّمنا شممتُها، تستطيع أنْ ترى رائحة الكرز، فقط أغمضْ عينَيك وسترى، رائحة الكرز الأحمر تُخدّر الجسد، وتنقل الرّوح إلى الظّلال، الظّلال الشّفيفة، أتذكّر أنّ أمّي عندما يجفّ ثديُها من اللّبن كانتْ تأتيني بهذا الكرز تُلقيه من فمها إلى فمي، ولو كان شيءٌ سيُقدّس لروعته فسيكون الكرز بلا شكّ. ومضينا، كانت

السّماء تقول إنّها ستُمطِر، الشّيخ لا يدري، أنا كنتُ أعرفُ أنّ معنا أقلّ من نصف ساعة لكي تبدأ السّماء بالبُكاء. عقدتُ أذنَي إلى الأعلى، متجاورتَين حتّى تكاد اليُمنى تتقاطَع مع اليُسرى، ونظرتُ في البعيد، فرأيتُ الغمام يأذن بأنْ يُلقِي أحماله، فركضتُ بالشّيخ عن الطّريق إلى كوخٍ خشبيّ أعرفه من رحلاتي الأولى مع أمّي إلى هذه النّواحي، كُنتُ أريدُ للشّيخ ألا يبتلّ، لكنّ الشّيخ لم يفهم، وصاح بي أنْ أعودَ إلى الطّريق: «سنصل إلى راسون في أقلّ من ساعة فإلى أين تذهب؟». أجبتُه: «إلى كوخٍ يَعصِمُنا من الماء». لكنّ الشّيخ لم يُدرك ما قلتُ، وعانَدتُه فاتّجهتُ إلى كوخ الحاجّ (رفيفان)، هكذا سمعتُ أمّي تُطلق عليه هذا الاسم، وصاح الشّيخ: «الطّريق من هنا!». فأجبتُه: «بل من هنا». ومضيتُ راكِبًا رأسي، ويبدو أنّ الشّيخ يئس من إقناعي، فأهوى بعصاه على رقبتي الملساء، وشعرتُ بألمٍ شديد، ونهقت محتجًّا، لكنّ نهيقي أغضبَ الشّيخ أكثر فهوى ثانيةً على عنقي وهو يقول: «حاه... حاه يا حمار... من هنا». وقلتُ: «من هنا... من هنا... إذا كنتَ لا تريد أنْ أحميكَ من البَلَل فأنتَ حُرّ!». وأطعتُه. ولم نعدْ نرى أمامنا، انخفضت الأشجار، ودخلْنا في غابةٍ كثيفةٍ وغَيْضةٍ ملتفّة، حتّى إنّ النّور انحجب تمامًا، ولم يعدْ يرى الشّيخ شيئًا، أمّا أنا فلم يتغيّر عليّ

شيءٌ، ودوّى الرّعد، وجفل الشّيخ، أمّا أنا فضحكت! ولكنّني ابتلعتُ ضحكتي من نصفها عندما رأيتُ بعضَ العصافير الصّغيرة تلوذ بأعشاشها مُكَنْعِشةً تتوقّع الأسوأ، وبعضَ النّمل يمشي في ثقوب الجذوع، وبعضَ الدّيدان تلحس رطوبة الطّين، وبعض الحشرات تغدو وتروح سعيدةً بالأجواء لاهيةً عمّا يُمكن أنْ يحدث، وقلتُ: «سوفَ يجرف المطر هؤلاء كلّهم». ودوّى صوتُ رعدٍ آخر، وقصفَ قصفًا شديدًا، وهزم هزيمًا مُنكرًا، وشعرتُ بجسد الشّيخ فوقي يرتجف، وأغمضتُ عينَيّ لأتخيّله، كان الفزع ينظر من خلال نافذَتَي عينَيه إلى الأفق، والخوف يسيل على وجنتَيه باردًا مُثلّجًا حتّى إنّه ليتجمّد أسفل الخدَّين، وعصفورُ قلبه في قفص صدره راجفٌ مَخروعٌ كأنّه أُصيب بضغطة القبر، وسمعتُ جناحَيه يرفرفان ألف مرّة في الثّانية، وهوى الشّيخ من الخوف بالعصا على رقبتي وهو يحثّني على المسير: «أسرع حتّى نُفلتَ من المطر»، ولكنّه كان يسوقنا إلى حتفنا، ولم أشأ أن أنال مزيدًا من العصيّ فطاوعتُه، وهتفتُ: «الجاهل يسوق نفسه لتتردّى في الحُفر». وألقتِ السّماء أثقالَها، وانصبّ المطر انصِبابًا، وفتح السّحاب أبوابه فهوى بكلّ ما فيه، وأسبغ المطر على الشّيخ سرباله، فابتلّ من أوّل دُفقة، وتَوَحْوَح الشّيخ، وابتلّتْ كلّ ثيابه، وشربتْ عمامته

الماء شُربًا، وخضّها حتّى أثقلها وسالَ منها إلى رأسِ الشّيخ، ودخل الماء إلى جسده، وشعر الشّيخ بالماء يتسلّل إلى أعضائه ويُبلّلها، وصاح: «يا ربّ... يا ربّ...». وركضتُ بالشّيخ عائدًا إلى كوخ الحاجّ (رفيفان)، ولم يقاومني هذه المرّة، وكان مشغولاً باتّقاء المطر الّذي لم يرحمْنا بيدَيه كأنّهما تنفعان!! وابتلّ ظهري أنا، وثقل الشّيخ والحِلس والخرجُ فوقه، وشكّل المطر مع الطّين أرضًا لَزِجةً فكدتُ أتعثّر وأنا أهملج بالشّيخ إلى الكوخ، وسال الماء على بطني خطوطًا متعرّجة سريعة كثيفة، وشربتْ أوراقُ الكتب الأربعة الّتي كان يحملها الشّيخ الماء، فتداخلتْ حُروفها، وطريتْ أوراقُها، والتصقَ بعضُها ببعضٍ ولم يعدْ ممكنًا فتْحُها، فأوقفني الشّيخ، ونزل مُسرِعًا إلى شجرةٍ قريبةٍ، ورفع حجرًا إلى حجر، وجعل ظهر أحد الحجرين إلى اتّجاه المطر حتّى يقي الكتب منه، ثُمّ أودعها تحته على أمل أنْ يعود إليها إذا طلعت الشّمس وجفّفتْها ولو بعدَ حين. وكان الشّيخ يجرّ نفسَه جرًّا، فقد صار وزنه ضِعفَي وزنه الطّبيعيّ لتبلّل جسده وثيابه كلّها بالماء. وكنتُ أنظرُ إليه وأشعر بالتّشفّي، وأهتف: «لو أنّكَ أطعْتَني من البداية لما حدث كلّ هذا، ولكنّ غرور الإنسان مُعمٍ ويحجب عنه الحقيقة، يظنّ أنّه الوحيد الّذي يعرفُ كلّ شيءٍ وهو أجهل المخلوقات، وأنّه

يحتكر المعرفة وهو أبعدها عنها». وهتفتُ: «تستاهل... هذه نتيجة العِناد والتّكبّر». ومضينا مُسرعَين، ومن بعيدٍ كان منظر الدّخان المُتصاعد من داخون كوخ الحاجّ (رفيفان) يبعثُ شعورًا بالدّفء والأمان. وهُرِعْنا إليه، واستقبَلنَا على الباب، وهتف: «الشّيخ عليّ!!». وعانَقَه فابتلّ بالماء في لحظة. «هل تعرفني؟». «سمعتُ أحد دروسكَ ذات مرّة في مسجد سوف القديم... ادخلْ... ادخلْ...». وخلع الشّيخ كلّ ثيابه، وبدا عاريًا تمامًا، وضحكتُ على قفاه الصّغيرة. وألقَى إليه الحاجّ بعضَ سراويله ليستر عورته، ثُمّ نشر ملابسه أمام الدّاخون لكي تجفّ. وشممتُ في البيت رائحة الشّعير في العُلّيّة، ورائحة الطّحين في الكُوارة، ورائحة الكستناء في الكنزيّة، ورائحة القُطّين في الجُوالق، ورائحة البُنّ الأخضر في المِحْماس، ورائحة الخبيصة المُحلاّة بالقريش في البُكسة المركوزة عند النّمليّة، ورائحة اللّبن الخاثر في الشّكوة، ورائحة الخبز البائت في النّافذة، ورائحة روث الدّجاج في القِنّ... وعشرات الرّوائح الأخرى، وأخذتْ كلّ رائحةٍ منها مكانها الّذي لا تُزاحمه رائحةٌ أخرى في دماغي. وقامَ الحاجّ إلى كنزيّة الكستناء فملأ المِحماسَ بكمشةٍ منه، ومدّه إلى الدّاخون فَشَواه، وتصاعدتْ رائحة الكستناء مع رائحة بقايا البُنّ في المحماس فانجدلت

الرّائحتان، وكانتا شهيّتَين بالمقدار الّذي أسال لُعابي طويلاً قبل أنْ أحظَى ببعض تلك الحبّات السّاخنة فآكلها بشهيّة كبيرةٍ.

وقال الحاجّ: «نَمْ يا شيخ أنتَ وحمارك اللّيلة عندي، وغدًا تبلغ راسون وغيرها». وقبلَ الشّيخ دون تردّد. وفي اللّيل قام الشّيخ فصلّى وقرأ سورة يوسف، وبكيتُ وأنا أسمع السّورة منه أكثر من ثلاثين مرّة. وكنتُ أبكي براحتي لأنّه لا أحدَ يراني في الظّلام، وكنتُ مع كلّ موقفٍ أبكي فيه أنظر من خلال دموعي الغزيرة إلى الشّيخ فلا أرى عليه أيّة علامةٍ من علامات التّأثّر!!

وقال الحاجّ للشّيخ بعد أنْ أفطرْنا لبنًا، وخبزًا طازجًا، صنعه الحاجّ بنفسه: «رافقتْكَ السّلامة». ونهقتُ: «قُلْ رافقتْكما السّلامة». ومضينا في الطّريق. الطّين في كلّ مكانٍ. ولكنّ السّماء كانتْ قد كفّتْ عن البُكاء. والسّحب تحلّق عاليًا. وشقشقات العصافير مسموعة من بعيد. وعبرْنا طرقًا قديمةً، عبرنا بئر الدّاية، وطريق الرّومان المرصوف، وسمعتُ أصواتَ آبائي وأجدادي تخترق الأزمنة السّحيقة وتصعد من الآبار وتملأ أذنَيّ. ووصلْنا إلى راسُون مع الظّهر، ودخلْنا المسجد، وصلّى ببعض النّاس، وقرأ عليهم قِصّة محمّد بن هشام بن عبد الملك الّذي طلبَ من والي راسون في العصر الأمويّ أنْ يتركها ليذهب إلى مصر الّتي هي يومئذٍ أكبر البُلدان وأهمّها،

ففضّل واليه راسون مع صِغَرها على مصر كلّها، وعاتب الأميرَ ببيتٍ من الشّعر قال فيه:

أتتركُ لي مِصرًا لراسونَ حسرةً
ستعلمُ يومًا أيّ بيعَيكَ أربحُ!

وسُرّ النّاس بحديث الشّيخ وسُرِرْتُ أنا وحفظتُ كلّ ما قال، وكان الشّيخ يدرّس من عقله، إذ إنّ كتبه الأربعة ظلّتْ خلف الحجرَين تحت تلك الشّجرة.

وقبل أنْ نمضي عن راسون حمل الشّيخ معه من مكتبة مسجدها عددًا آخر من الكتب دون أنْ يستأذن أحدًا قائلاً: «المعرفة للجميع». ومضَيْنا صاعدَين جبل الخسفة، وقبلَ أنْ نفعل شعرْنا بالعطش، فمال الشّيخ وملتُ معه إلى عين راسُون، ونزل الشّيخ من فوق ظهري يركضُ نحوها مُبتهِجًا وسابقتُه إلى العين، ووصلتُ إليها قبله، فجثوتُ على رُكبتَيّ وجَثا الشّيخ على رُكبتَيه، وأدنيتُ رأسي من الماء وأدنَى هو كذلك رأسه، وبدا عنقه مع جذعه مثل عنقي، والتفتُّ نحوه فندّتْ منّي ضحكة مَرِحة؛ لقد كان الشّيخ يُشبهني تمامًا! كانت العين صافيةً تمامًا، وعلى مرآتها النّقيّة ارتسمتْ لوحة السّماء بكلّ تفاصيلها، ولمّا نفختُ في الماء ترجرجت الصّورة فساحتْ

لوحة السّماء، وتراقصتْ في الماء حتّى أحسستُ بأنّ الشّمس اللّطيفة تُداعبُ ظهورنا. وغطّسْنا فُوهَينا في الماء وشربْنا معًا من العين مُتلذّذَين. وقلتُ له: «هنيئًا». فلم يردّ، لقد أصابتْه سَكتة، لم يكنْ يدرك أنّني - مع طول عشرتي له - صرتُ أتحدّث بلغته، وهتف: «أنتَ تُجيد العربية». فرفعتُ رأسي عاليًا وضحكت: «وهل تظنّ نفسكَ الوحيد الّذي يُجيدها، إنّ العربيّة مشاعٌ للعاشقين، وأنا من عُشّاقها يا سيّدي». فضحك، وقال: «جميل يا حمار العربيّة!».

ثُمّ صعدْنا الجبل. وبدتْ من بعيد أشجار برقش. وحلّ علينا المساء، ومن خلف الجبال الشّاهقة كانت الشّمس الخفيفة ترحل. وكان الغروب أرجوانيًّا، والأفق مرآةٌ يسيل فوقَها دمٌ في كلّ مكان، والهواء ينقل رائحة أشجار الصّنوبر القادمة مع النّسيم من برقش، وصبغ الغروب السّماء بلونه القرمزيّ فشممتُ رائحة الكرز الأحمر تنعصر من بين أسناني فتسيل على شفاهي ملطّخة فمي بالدّم، واختلط اللّون مع الرّائحة، وشكّل ذلك مزيجًا بثّ فِيّ قُوّة غريبةً لمواصلة السّير.

وبحثْنا عن مبيتٍ مع انتشار الظّلام الكثيف، وجذبتُ الشّيخ، وقلتُ: «اتبعْني». ولم يسمعْني، وظلّ واقِفًا في الغابة يجول بنظره لعلّه يرى ضوءًا أو دُخانًا يدلّ على أنّ أحدًا يقطن

في هذه النّاحية، ولكنّه لم ير، لأنّ حدود نظره قصيرة، قصيرةٌ جِدًّا، ومعذورٌ بسبب غلائل الظّلام الثّقيلة، أمّا أنا فرأيتُ، وخفتُ أنْ نقضي اللّيل في العَراء، وتُهاجمنا الكلاب والذّئاب، فسِرْتُ به رغمًا عنه إلى مصدر الدّخان الّذي شممتُه في الجهة الغربيّة، وكانت أقربَ رائحةٍ لخشبٍ يحترق في داخونٍ في تلك المنطقة. واستسلم الشّيخ لي، ووصلْنا إلى البيت مع حلول العِشاء، وفتحتْ لنا عجوزٌ هَرِمة، وقلنا لها: «نحن غرباء». فردّتْ: «بيتي مفتوحٌ للسّالكين». وشعرتُ بأنّها من نسل رابعة العدويّة أو عائشة الباعونيّة. ودخلْنا فعشّتْنا، وسقتْنا، ونمنا في كنف الدّفء، حتّى إذا كان الغدُ، وانتشر طائر الضّوء في الأفق، استأذنّاها في المغادرة وشكرْناها على حُسنِ الضّيافة، ومضينا إلى غايتنا، وما أبعدَ الغاية للسّالك إذا كانت النّفوسُ كِبارًا.

مكتبة
t.me/t_pdf

الشّيخُ يُهرِمه الشّتاء

ومررْنا على تجاويف منحوتةٍ في الصّخر، وأبوابٍ مقدودةٍ زواياها مُتقنةٌ كأنّ مهندسًا أو فنّانًا قامَ بنحتِها، ودرجٍ مقطوعٍ فيه كأنّه عُمِل اللّيلة، وعرفتُ أنّها كهوف الرّهبان، كانوا يأوون إلى هنا هربًا من طُغيان البشر، وما ضرّهم لو صادَقوا الوحوش بدلاً منهم، ولم يدرِ الشّيخ فيمَ عُمِلتْ هذه المُغُر الخاوية؟ وعنّ بباله أنْ يدخل فيراها، فلوى عِناني، فأطعتُه. وكانت جدران المُغُر سميكةً جِدًّا، ولمّا دخلناها لم يرَ فيها الشّيخ شيئًا يستحقّ، ولكنّني رأيتُ طُيُوفَ الغابرين، وأرواح النُّسّاك والزُّهّاد الّذين عَمَروها، وتَلَوا فيها الصَّلَوات وانقطعوا لله يحمون أرواحهم من خَبَثِ ما يصنع البشر. وخرجْنا مُسرِعَين، فقد كان الشّيخ ينوي أنْ يصل إلى قُرى عجلون العالية ليُبشّر في مساجِدها وأسواقِها، وخرجنا من الغابات، إلى الإسفلت، ونحن نتّجه جنوبًا لنبلغ القلعة، ومررْنا في الطّريق بفَجّال يعرض بضاعته على جانب الطّريق فوق بسطةٍ خشبيّة، وكان اللّون الورديّ للفجل مُغرِيًا، والزّهرة البيضاء جذّابًا، والجرجير الأخضر ذابِحًا. وكان المطر يهطلُ خفيفًا، فيتذرذر فوق حبّات الفجل، ويدرُجُ من تحت أطرافِه قطَراتٍ قطراتٍ كأنّه لؤلؤٌ يتناثر عن

ياقوت. وكانت روائح الثّلاثة تسير في الهواء كأنّها أنغامٌ سائلة، وتدخل منخرَيّ فأغمضُ عينَيّ من اللّذّة، وقلتُ لو قضمتُ قليلاً من الفجل فلن أضرّ أحدًا، وهممتُ بذلك فِعلاً، ومضيتُ إلى البَسطة، فلوى الشّيخ لِجامي وقال لي: «من هنا يا حِمار». فاستجبتُ له تقوًى من الله لا خوفًا من الشّيخ!

وصعدنا صَعَداتٍ سامقاتٍ كأنّنا نفرّ إلى الشّاهق من كلّ شيء. فلمّا مضى على صعودنا زمنٌ غيرُ قليل سكنَ الجوّ في لحظةٍ ساحرة، لم يكنْ هناك من صوتٍ أبدًا. سكنَ كأنّ الأرضَ الّتي كانتْ تدور في فلكها أطفأتْ مُحرّكاتِها فلم يَعُدْ يُسمَع إلا الصّمت. ونظرتُ في الآفاق، فرأيتُ السّحب كأنّها ملائكة تصعد إلى السّماء وتطوي صحائِفها. وابيضّ الهواء، فعلمتُ أنّ الثّلج قادم، ونصبتُ أُذُنَيّ فأيقنتُ أنّ العاصفة ستكون شديدة. وقلتُ للشّيخ: «العاصفة». فنزل من على ظهري، ونظر فلم يرَ شيئًا، فقلتُ: «إنّني أرى ما لا ترى، فهل تعرفُ كهوفًا في هذه النّاحية نأوي إليها ريثما تمرّ العاصفة؟». ولكنّه لم يأخذ كلامي على محمل الجِدّ، وهتفتُ في نفسي: «ماذا أفعل لك أيّها البشريّ، هل عليّ أنْ أنتظر معك وقوع الكارثة حتّى

تنشب فينا؟ أكان هذا قدرنُا نحن الحمير معكم أنتم البشر؟ لماذا لا تتّعظون إلاّ بعد أنْ تحيق بكم الكوارث؟!». ورفعتُ صوتي حتّى يسمعني: «ها أنذا أحذّرك، العاصفة القادمة لن ترحم أحدًا؟». فاستهزأ بي: «وهل أنتَ نبيّ؟». فقلتُ: «لا، ربّما أكون نبيًّا للحمير أمثالك». ونهقتُ حتّى أزعجه نُهاقي، فاستسلم: «اسكتْ... اسكتْ». فكرّرتُ: «هل تعرفُ كهوفًا في هذه النّاحية لنختبئ فيها؟». فردّ غاضِبًا: «أنتَ النّبيّ لستُ أنا!». وركبني، ثُمّ أسرعتُ السّير به إلى حيثُ قادنا إلى مُغُرٍ كان بعض الفدائيّين ينامون فيها ويخطّطون لعمليّاتهم، قبل أنْ يخرجوا منها إلى الصّهاينة والإنجليز، وعرفتُها من بعيد، شممتُ رائحة إخوتي الحمير الّذين كانوا يحملون المتفجّرات على ظهورهم انطِلاقًا منها. وقبل أنْ نصل إليها بساعة، لم يكن يُسمَع إلاّ وقعُ حوافري على الأرض، وصوتُ لهاثنا معًا، ونحن نُسابق الزّمن إليها.

وبدأت السّماء تندف. السّماء لا تنتظر أحدًا. وعدُها قادم. وراح شالُها الأبيض ينثر الثّلج بسرعةٍ، وتغبّشت الرّؤية، وتكاثفَ هطول الثّلج، وبدأت الأرض تلبس البياض في

كلّ بُقعة، والشّيخ يحثّني: «هَيّا أسرع» وهممتُ بأنْ أعضّه: «لقد كنتَ تستهزئ بي وبنصيحتي قبل قليل!». ووصلنا إلى صفٍّ من المغارات، تفغر أفواهها كأنّها تهمّ بابتلاع القادمين إليها، فقصدْنا مغارة فمُها ضيّق؛ لأنّها أحصنُ ضدّ العاصفة من سِواها، ودخلناها ونحن بيضُ القشور، وراح الشّيخ يمسح عنّي وعنه ندفات الثّلج، واسترحْنا في قلبِها، كانتْ جُدرانها تحمل شعارات ثوريّة، بعضُها محفورٌ بالأزاميل على الصّخور، وبعضُها منقوشٌ بالدّم، وقد مرّ عليه زمنٌ فلم تعد تلك الشّعارات مفهومة.

ونظرنا من فم المغارة إلى الخارج فإذا حبّات الثّلج الصّغيرة تتماوج في المدى تسقطُ سِراعًا كأنّها - لولا اللّون - أوراق الخريف قد نثرتْها الرّيح، أو حبّات الرُّمان قد فرطَتْها يدٌ عملاقة. وراحتْ خُضرة الأشجار تختفي شيئًا فشيئًا أمام اندِياح اللّون الأبيض، وفي الجبال البعيدة، البعيدة حتّى انقِطاع النّظر، كان الأفق يبيضّ، والشّجر يبيضّ، والأفق يبيضّ، والهواء يبيضّ، وكلّ شيءٍ يتسربل بالبياض، وراح اللازورد يذوب هو الآخر في البَياض. ونحن في الداخل كُنّا نرتعش من البرد ونبتهج من

البَياض. ولم تُظلِم الدُّنيا تمامًا إلاّ وباب المغارة قد تكدّس الثّلج أمامه فغطّاه عن آخِره، واستمرّت العاصفة الثّلجية أسبوعًا كامِلاً، وحُبِسْنا في المغارة؛ حُبِسْنا سبعةَ أيّام كاملاتٍ بلياليهنّ الجليديّة!

وكان معنا اثنتَا عشرة حبّةً من التّمر، ورغيفان من الخُبز، وخمسةُ كتب، وهذا كلّ ما كان معنا. وقسّم الشّيخ الطّعام على الأيّام، فأخذ التّمر فأكل في اليوم الأوّل أربعَ تمراتٍ قسمها اثنتَين للفطور، وواحدةً للغداء، والرّابعة للعشاء، وفعل ذلك في اليومَين التّالِيَين، وتركَ لي رغيفَي الخُبز فقسمتُهما بنفسي على الأيّام الثلاثة، وظنّنا أنّ العاصفة لن تدوم أكثر من ثلاثة أيّام على أبعد تقدير، فنحن لسنا في سيبيريا القاسية بل في عجلون الحنونة، ولا أدري كيفَ فاتني أنْ أعرف أنّها ستستمرّ أكثر من ذلك! ولكنْ لكلّ حمار كَبْوة ولكلّ عالمٍ هَفْوة كما يقولون!

وكنتُ أقدرَ من الشّيخ على احتِمال البرد، وقال لي في ليلة اليوم الثّاني: «أنا لا أحسّ بأصابعي». وكانت في طريقها إلى الموت، فجمعتُ ما في صدري من هواءٍ حارّ، ورحتُ أنفخه

عليها حتّى انحلّ الدّم المتجمّد فيها، وعادَ إليه الشّعور بها، وفعلتُ ذلك أكثر من مرّة في الأيّام الصّعبة الّتي قضيناها هنا. وسمعتُ الشّيخ في إحدى ليالي الصّقيع يهذي وهو نائمٌ بهذه الكلمات:

إذا كـان الـشّـتـاءُ فـأدفِـئـونـي
فـإنّ الـشّـيـخَ يُـهـرِمـه الـشّـتـاءُ

وأردتُ أنّ أقول له: «لو كان شِتاء لكان هَيّنًا، ولكنّه ثلجٌ وجليدٌ وصقيع». ولم أعدْ أقوى على الاحتِمال فكيفَ بالشّيخ المسكين. وأردْنا أنْ نُغامر في اليوم الثّالث بعد أنْ نفد الطّعام فنخرج لنجرّب حظّنا، فلم نستطعْ أنْ نزحزح الثّلج عن باب المغارة بوصةً واحدة، إذْ بدا أنّ بابها قَدْ سُدّ بجبلٍ كاملٍ من الثّلج!

في اليوم الرّابع بدأ الجوع يُهزلُنا، ورُحنا نبحث في زوايا المغارة عن شيءٍ نأكله، فما وجدْنا إلاّ التّراب وبعض الرّوث القديم الّذي خلّفَتْه حمير الثُّوّار قبلَنا، وبدا أنّ الموت يُغازلنا، وكان لا بُدّ من مقاومته، فقلتُ للشّيخ: «هلمّ أحدّثك». فقال:

«تحدّثني؟!». فقلتُ: «أنا أعلم بالحديث منك». ولم تكنْ لدى الشّيخ طاقةٌ بالجِدال، فهزّ رأسه مستسلِمًا. فحدّثْتُه حديث الحمير الّتي كان الثُّوّار يُحمّلونها بالمُتفجّرات فتمضي بها عبر هذه الطّرق الوعرة في هذه الجِبال إلى مكامن الصّهاينة، فتنفجر في وسط الكمين، فتُستَشهد وتقتل العدوّ، وقلتُ له متفاخرًا: «نحن أقدم الفرق الاستشهاديّة في العمليّات الثّوريّة في التّاريخ». وهزّ الشّيخ رأسه متعجّبًا، وأردفتُ: «ولكنّنا لم نكن نحمل المتفجّرات فحسب، بل كُنّا نحمل الطّعام والغِذاء للمُقاتلين، ونحن حمينا إخوتنا في المقاومة الفلسطينيّة من الموت مرّاتٍ عديدة، وأمدَدْناهم بالمعلومات وبالطّاقة وبالأمل لكي يستمرّوا في نِضالهم ولولانا - ولا فخر - ما حقّقوا عُشرًا مِمّا حقّقوه بالفِعل». وسُرّ الشّيخ، وأردفتُ: «وسأحدّثك بقصّة عجيبةٍ بطلُها حمارُ (جين كيركباتريك) في الحرب العالمية الأولى إنْ طال الأمدُ بنا هنا كثيرًا». واستوى الشّيخ قاعِدًا، وقد تشجّع لمعرفة القصّة، فقلتُ له: «إنّكَ مرهق، وسأقصّها عليكَ غدًا بإذن الله، والآن نَمْ، فإنّكَ بحاجةٍ إلى الرّاحة». ونفختُ على وجهه من رئتَيّ الحارّتين، وعلى صدره، حتّى

شعر بالدّفء والأمان، وبقيتُ عند رأسه ساعةً وأنا أمدّه بهوائي الحارّ حتّى نام، وقبل أنْ يسقط في بئر النّوم كانتْ عيناه تقولان أشياء كثيرة فهمتُها عنه دون أنْ تتحرّك بها شفتاه!

في اليوم الخامس كُنتُ آخذُ بعض الثّلج المتراكم على باب المغارة فأنفثُ فيه هواء صدري الحارّ حتّى يذوب قليلاً ويتمكّن الشّيخ من شرب الماء كي أحافظ به على حياته، وكان الشّيخ إذا اشتدّتْ به سُعرة الجوع أخذ طرفَ كمّه أو جانبًا من قُفطانه فعضّه بأسنانه وهو يتأوّه!

وفقدْنا بعضَ التّركيز لشدّة الجُوع، وبدأنا نهذي، فقال الشّيخ: «أنتَ حِمار». فقلتُ: «أنتَ إنسان». فردّ وهو يضحك ولا يقدر على الضّحك: «سنموتُ هنا». فأجبتُ: «إنّه أفضل مكانٍ يُمكن أن نموت فيه؛ لا عدوّ، لا مرض، لا سَرَطان، لا وحوش، لا كلاب، لا ذئاب، فقط معنا الله، فما أحسنَها من ميتة!!». ومدّ يده فمسح اللّعاب عن فمي، وقرّبه من شفتَيه فلَعَقه، وقال: «ما أطيبَ ريقك!!».

وفي اليوم السّادس، تكوّمنا على أنفسنا، ولفّ الشّيخ قُفطانه

عليه وانتظر الموت، وغطّ في النّوم وهو يحلم به، وتذكّرتُ شيئًا فقمتُ إلى الزّاوية البعيدة، وبحثتُ عن بعضِ روث إخوتي من الحمير السّابقة، فوجدتُ بقايا قليلة، فتناولتُها بشفاهي وأكلتُها، وقرّبتُ شيئًا منها للشّيخ، فقلتُ له: «كُلْ». فنظر الشّيخ بعيونٍ تُوشِك على الانغلاق، وسأل بصوتٍ أقرب إلى الهمس: «ما هـذا؟». «إنّه رَوث الحمير الّتي سكنتْ هذا المكان من قبلنا». واستعادَ بعضًا من غضبه الفِطريّ، وهتف: «تريد منّي أنْ آكل خِراء الحمير؟!». فقلت: «أولاً هذه الحمير استثنائيّة فهي حمير مُجاهِدة واستشهاديّة، ثانيًا رَوثُها غنيّ بالبروتينات والحمضيات والفيتامينات، ثالثًا: الموت أم الخِراء؟». فأجاب دون تردّد: «بل الخِراء». وأكل منه هنيئًا مريئًا، ومن يدري أنّ ذلك الخِراء كان تعويذة النّجاة من الموت.

وفي اليوم السّابع، لم يعدْ من روثٍ في الزّوايا، فقلتُ للشّيخ: «قرّبْ كتبك الخمسة؟». فاستغرب: «الكتب؟». نعم». «وماذا تريدُ منها؟ هل تريدُ أنْ تقرأ لي؟!». «قرّبْها وستعرف». فقرّبها، فقلتُ له: «اخترْ منها ما تريد». «أختار منها لأيّ شيءٍ؟». «لكي تأكله». واستنفر واستوحش واستغرب واستُفزّ، فأردفتُ:

«صحيح أنّنا سنُصاب بالمغص بسبب الكيماويّات في الحبر الموجود فيها، ولكنّ ورقها أُمّه الخشب، والخشب لن نعدم فيه فائدة». وتردّد، فقلتُ: «إنّها خمسةُ كتبٍ في تصانيف متنوّعة، فماذا تختار؟». فظلّ صامِتًا كأنّه حجر، وقلتُ: «أمّا أنا فأختار كتاب الفلسفة». ومددتُ رأسي إليه، ورحتُ أقطّعه بأسناني وأزدرده فما مضى وقتُ قصير حتّى كنتُ قد ابتلعتُه بالكامل. وأمّا الشّيخ فاختار كتاب العقيدة، ففعل ما فعلتُ، ولكنّه لم يقوَ على أنْ يأكله كلّه. وصارت الفلسفة في بطني، وصارت العقيدة في بطنه. ومن يومئذٍ أطلقوا عليّ لقب الفيلسوف، فقد كنتُ قد هضمتُها في تلك اللّيلة بشكلٍ تامّ. وأمّا عقيدة الشّيخ فقد كانتْ ناقصة، فإنّه لم يجرؤ على أنْ يهضم كلّ ما في كتابها، فأكل بعضَه وفرّط في بعضه الآخَر!

وفي اليوم الثّامن، كُنّا موتى إلاّ من خيطٍ رفيع، وصحوتُ قبل الشّيخ، ونظرتُ فإذا هو على رقدته لا يُحرّك ساكِنًا. وأرهفتُ سمعي، فسمعتُ صوتَ ماءٍ، فقفز قلبي بين ضُلُوعي، وعرفتُ أنّ الشّمس أمّ الحياة عادتْ لتنقذنا من الموت، كانت أشعّتها قد أذابت في اللّيلة السّابقة كثيرًا من الثّلج، واليوم جاءتْ لتفتح

لنا باب المغارة، وهُرعت إلى ذلك الباب، فبحثتُ بحوافري، فإذا الثّلج ليّن، وإذا أكثره في الخارج قد راحَ يذوب، فأيقظتُ الشّيخ، وهتفتُ به: «لقد نجونا». ففزّ بكلّ ما تبقّى فيه من قُوّة، وبقينا أكثر من ساعتَين ونحن نفتح لنا طريقًا للخروج. وخرجنا، فرأينا الكون لم يتغيّر عليه شيء، غير عابِيءٍ بأحد، ولا مباليًا بمخلوق!

بيت الرّبّ لكلّ مَنْ أحبّ

وكانت أقدامنا تغوصُ في الثّلج، وهو يتكسّر من تحتنا، وفرحُ العصافير فوق الأشجار يبدو في زقزقاتها. وكانت الشّمس تقول لنا: «امضُوا فإنّه قد كُتِبتْ لكم حياةٌ جديدة». ومضينا ونحن لا نُصدّق أنّنا نجونا بالفعل!

ولعبْنا بالثّلج كالأطفال يومًا كامِلاً، وصادفَنا في الطّريق فلاّحون عابرون، فأعطَونا طعامًا وشرابًا، وجادوا علينا بما يكفي لأنْ ننحبس أسبوعَين لو شاء الله لنا ذلك. ومضينا.

واكتنفتْنا بعد مسير طويلٍ غابةٌ لَفّاء، بالقرب من القلعة، ونحن نصعدُ إليها في التّراب، وداهَمَنا قطيعٌ من الكلاب السّوداء، ومن الشّجاعة أنْ أعترف أنّني أخافُ من الكلاب بخلاف كثيرٍ من الحمير، ولا أدري لماذا؟ فلمّا رأيتُ القطيع كأنّه خيولٌ جامحة يركبها جِنّ أزرق تهجم عليّ هربتُ، نعم هربتُ، ليس جُبنًا، ولكنّ الرّوح غالية، البشر لا يُقدّرون نِعمة الرّوح ولا يعرفونها كما نقّدرها نحن ونعرفها. هربتُ بالشّيخ في اتّجاهٍ لا أعرفه ولا يعرفه الشّيخ، المهمّ أنْ أهرب، ولأنّ بصيرتي عَمِيَتْ في تلك اللّحظة، اكتشفتُ أنّ هروبي كان إلى طُوْر، إلى حدّ جبلٍ شاهقٍ على جُرفٍ هارٍ تحته وادٍ سحيق، والشّيخ يصرخ: «هِيْشْ يا حمار... يا حمار هِيْيْيشْ»، وأنا عن صُراخه في شُغُل.

حتّى إذا أشرفْنا من الجرف على الوادي شهقتُ ونخرتُ، وجحظتْ عينا الشّيخ من هول المُفاجأة، وراح يشتم، ولكنّني تمالكتُ حوافري، فحبستُهما في الأرض، ولكنّ الأرض كانت طينًا زَلِقًا، فتزحلقَتْ حوافري الأماميّة، وبحثتُ في أقلّ من ثانيةٍ بعينَيّ عن صخرةٍ ناتئةٍ قليلاً أحبس خلفهما قوائمي أو أبركَ فوقَها، فوجدتُها، فسارعتُ بوضع قائِمتَيّ تحتها فاختلّ توازني، فألقيتُ بالشّيخ من فوقِ ظهري، فطبّ على الأرض طبًّا شنيعًا، وندّتْ منه صرخةٌ عاليةٌ، وهوى... نَعَمْ هوى... «الشّيخ مات...» صرختُ، «الشّيخ أكلُها...»، وهوى أكثر، وكاد قَعْر الوادي السّحيق يجذبه إليه لولا أنّ جذع شجرةٍ من تلك الأشجار الّتي تنبز من بين الصّخور حَمَتْه فتعلّق بها. وظلّ الشّيخ ينظر إليّ مذعورًا وأنا فوقه، ولم أدرِ ما أفعل، فمددتُ عنقي لكي أعضّ على يده فأخرجه بقوّة قوائمي الأماميّة بعد أنْ أركزهما على الصّخرة الصّغيرة الناتِئة من تحتي، ولكنّ عنقي لم يكنْ ليصل إلى الشّيخ، وراح الشّيخ يجأر إلى الله: «اللهمّ لا تُهلكْني بذنوبي... يا ربّ الأرباب...»، وراح يتوسّل حتّى إنّه بكى، بكى بحرقة، وراح صوتُه يخرج ممغوطًا من خلال بُكائه: «أعرفُ أنّ ذنبي عظيم، ولكنّك ربٌّ رحيم». فسألتُه: «وما ذنبُك؟». فصرخ مرعوبًا: «اذهبْ واطلب لي النّجدة». فقلتُ:

«إلى أين؟». فقال وهو يتأرجح مثل بعرةٍ في قفا الشّاة: «إلى أيّ مكانٍ... إلى أيّ شخصٍ يمكن أنْ يُساعدني». وشدّ أكثر على جذع الشّجرة الّذي يتعلّق به. فقلتُ له: «يا شيخ، ما ذنبُكَ الّذي بسببه وقعتَ في هذا المصيبة؟». فاحمرّ وجهه غضبًا، وقال: «هل هذا وقته؟ اذهبْ أيّها اللّعين واطلبْ لي النّجدة». فأرحتُ قوائمي الأماميّة على الصّخرة، وأخذتُ نَفَسًا عميقًا، وقلت: «لن أذهبَ قبل أنْ تُخبرني». فجُنّ جنونه وهَمّ أنْ يرميني بالرّصاص لو كان يملك مُسدّسًا، ولكنّه حتّى لو كان يملكه فلن يفعل؛ لأنّني أنا خيطُ نجاته الوحيد الّذي عليه شاء أم أبى أنْ يتشبّث به. وقال لي هذه المرّة بلهجةٍ أقربُ إلى الإنسانيّة: «يا حماري العزيز.. إنّ الله أمر بالسّتر... وإنّني بالفعل أذنبتُ ذنبًا عظيمًا، ويكفيك منّي هذا الاعتِراف... وإنّ الاعتراف ليُذلّ كبرياء الرّجال... والآن اذهب... رحم الله والدَيك». فقلتُ: «لن أذهب... هه». وأملتُ رأسي إلى بطني، وتصنّعتُ النّوم، فبكى، وارتختْ يده القابضة على جذع الشّجرة، فتأرجح قليلاً، فانخلع قلبُه، فاستسلم، وهتف: «لقد قتلتُ زوجتي!». وصُعِقت من الخبر، ولم أكنْ أعرفُ أنّ للشّيخ زوجة، ولم أصدّق أنّ هذا الشّيخ الّذي يؤمّ الناس في المساجد، ويطوف القرى يُبشّرهم بقرب يوم القيامة قد قتل زوجته هذه، وسألتُه:

«لماذا قتلتَها؟!». وبكى مثل طفلٍ هذه المرّة، وقال: «هل ستفتحُ معي تحقيقًا؟ أنقذْني. وأعدكَ أنّكَ إذا أنقذتَني وأَعَدْتني إلى سُوف أنْ أخبرك بكلّ شيء». «وعد؟». «وعد». وركضتُ عائدًا عن الطّور ودعوتُ الله ألاّ أجد الكلاب في طريقي، وركضتُ حتّى وصلتُ إلى سوق عجلون القديمة عند ساحة المسجد، فإذا النّاس لاهيةً تروح وتجيءُ وتصيح على البضاعة، ورأيتُ الدّنيا يومئذٍ على صورتها الطّبيعيّة، بيعٌ وشِراء، وصياحٌ وهياج، وجِدال وأَيْمان، وضحكٌ وغضب، وسِبابُ وتلاعُن، والنّاس تشتري وتبيع في صحن المسجد، ويدخل السّوق كلّ أحدٍ ولا يدخل المسجد أحد، ثُمّ يناديها منادٍ من تحت التّراب بعد انتهاء البيع والشّراء يسمعه كلّ مَنْ باع واشترى ويُلبّيه دون أنْ يدري كيفَ، كان هذا الصّوت الّذي لم يتخلّفْ عن إجابته أحدٌ - مهما باع واشترى - هو صوتُ الموت في المقبرة الّتي لا تبعد إلاّ خطواتٍ عن ذلك السّوق وعن ذلك المسجد.

وصحتُ في جمهرةٍ من النّاس مُتجمّعين حول بائع خُردة: «الشّيخ... الشّيخ». ولم ينتبه لي أحدٌ، فقد كانت الكيزان والنّحاسيّات والآنية المعروضة وقرقعتها تحجبُ صوتي عنهم. لكنّني صدحتُ: «الشّيخ... الشّيخ...». وانتبه إليّ

أحدُهم، ولم يُصدّق أنّ حِمارًا يتكلّم، فأردفتُ حتّى أقضي على شكوكه: «الشّيخ... الشّيخ...». فالتفتَ حوله مذعورًا، ثُمّ حدّق فِيّ، وهتفتُ من جديد: «نعم أنا الّذي أتكلّم... هيّا بنا إلى الشّيخ». واقترب منّي حَذِرًا: «هل أنتَ بشريّ؟». «لا أنا حِمار». «حِمار ويتكلّم لغة البشر؟!!». «قدرة الله يا سيدي... معجزة... عبقريّة حِمار... سَمّها ما شِئت...». «أووه... ابنُ مَنْ أنتَ؟ وماذا فعلتَ حتّى مسخكَ الله على هيئة حِمار». وأغضبني قولُه هذا، فهتفتُ وأنا أكزّ على أسناني الكبيرة: «ربّما أنتَ الآن حِمار مسخكَ الله على هيئة إنسان». وتوقّعتُ منه أنْ يغضب، لكنّه لم يفعل، وبدل أنْ يغضب راح يُقهقه حتّى جذب انتباه الكثيرين في السّوق. وهتف: «حِمار ظريف.. على كثرة الحمير الّتي صادفْتُها في حياتي لم أجدْ أظرفَ منك!». واقتربَ من أذنَيّ، وهمسَ فيهما همسًا دافِئًا: «قُلْ لي ابنُ مَنْ أنتَ، ومن أيّ عشيرةٍ وسأكتم السّرّ؟» وضحكتُ بدوري، فلم يكنْ يدري أنّ التّفاخر بالأنساب، والكَبرة على الخازوق كما يقولون لا تكون إلاّ بين قليلي العقول من البشر، أمّا نحن الحمير فنتفاضل فيما بيننا بالعمل وبقدرتنا على الإنجاز، واقتربتُ أنا منه بدوري، وتحرّكتْ فِيّ غريزة العَضّ، وتخيّلتُ نفسي أقضم أذنَه وطَرَفًا من وجهه، ولكنّني تعوّذتُ بالله من شياطين

الإنس، وهمستُ: «والآن دَعْكَ من هذا العجب الّذي لا طائل منه، وتعالَ معي إلى سيّدي الشّيخ، إنّه على حافّة الموت، ويحتاج إلى من ينقذه». وبانتْ هذه المرّة في وجهه علامات الجِدّ، وقال: «وهل أنا حِمار حتّى أردّ عليك؟». واستدرتُ مُعطِيًا إيّاه قفايَ، واستعددتُ حينَ رفعتُ رجلَيّ الخلفيّتَين أنْ أرفسه فأطيح بأسنانه في ضربةٍ واحدة، ولكنّني قلتُ: «لا، لعله الوحيد الّذي يُمكن أنْ يُنقذ الشّيخ، فهو مفتول العَضلات، وفي أواخر العشرينيّات من عمره، وتتوفّر فيه أسباب النّجدة». وتخيّلتُ الشّيخ وقد ازرقّتْ ذراعاه، وانحبس الدّم في وجهه وهو متعلّق في غصن الشّجرة، ويرى الموت من تحته وحشًا فاغرًا فاه يكاد يلتقمه، فاكتفيتُ من فَهم هذا البشريّ الفُضُوليّ بهذا الحديث، ومددْتُ فمي إلى كُمّ قميصِه فسحبتُه بفمي، وجررتُه بقوّة وأنا أقول: «ليس الوقتُ وقتَ فلسفاتك... هيّا بنا..». فصاح: «سأذهب معك.. سأذهب... ولكنْ دَعْ كُمّي» وأركبتُه فوقي، ومضيتُ، وفي المحال الّتي تنتشر على جانب الطّريق الصّاعد إلى جبل الهاوية مددتُ عنقي إلى أحد الحبال المُعلّقة أمامها، وبفمي أخذتُ حبلاً من هذه الحبال الّتي تُربط بها الخِيَش على البِغال، وقلتُ: «ليسامحني الله على هذه السّرقة الصّغيرة، لكنّها وسيلةٌ لإنقاذ روحِ آدميّ يستغيث».

وطرتُ بالفتى إلى الجبل. فلمّا سمع الشّيخ أصواتَنا، وكان على وشك أنْ يتردّى في الوادي فتندقّ عنقه، ويتمزّق لحمُه على الصّخور، استبشر، وتشبّث بالحياة أكثر، وأنقذناه أنا والفتى الغريب، ولمّا رأى الشّيخ أنّه أفلتَ من الموت بعد أنْ رآه آلاف المرّات في سقطته هذه، وتنفّس الصُّعداء، وأدركَ تمامًا أنّه نجا، قبّل يدَ الفتى الغِرّ، وشكره قائلاً: «أنا مدينٌ لكَ بحياتي». ثُمّ ركبني، وأهملني تمامًا، ولم يقلْ لي كلمةَ شُكرٍ واحدة، وبكيتُ في داخلي من نُكران الشّيخ لإنقاذي إيّاه، ولم أسمع منه وهو يهمز بكعب كندرته بطني، ويضربُني بعصاه بين أذنَيّ إلاّ كلمة: «حاه يا حمار... يا حمار حاه...!!».

ومررْنا في الطّريق على كنيسة، وفُتِنَ الشّيخ بالعِلم الّذي عنده، وكاد يقول: «أنا أعلمُ أهل الأرض، فقد انقطعتُ للقراءة والتّدريس ما يربو على نصف قرنٍ». وضحك. وقال: «سأدخل إلى هذه الكنيسة وأناقش القِسّ فيها، وسأتغلّب عليه». فقلتُ له: «إنْ كان هدفك أنْ تتغلّب عليه فقد هزمتَ نفسَكَ من البداية لأنّ انتصار المخلوق لنفسه علّة الخسارة، أمّا إذا كان هدفكَ معرفة الحقّ والحقيقة والانتِصار لهما فستكون لديكَ فرصةٌ للفوز». واستخف الشّيخ بقولي، وسمعتُه يحدّث نفسه: «ماذا

يُمكن أنْ يصدر عن حِمار!!». ولويتُ عنقي بعيدًا، وهو ما زال يحثّني ملوّحًا بقبضته في الهواء ومتوعّدًا القِسّ بالبراهين السّاطعة، وأردتُ أنْ أقول له: «المِراء لا يأتي بخير؛ فدَعْكَ من هذا كلّه». ولكنّه أبى، وضربنَي ثانيةً بين أُذُنَيّ، فغضبتُ، ولكنّني كتمتُ غضبي، وتمنّيتُ في أعماقي أنْ يُهزَم الشّيخ، ثُـمّ استغفرتُ ربّي من هذا الخاطر. ودخلنا الكنيسة، فإذا بهَوها وسيعٌ وسقفُها عالٍ، ونوافذها مُلوّنة، وقناديلها مُدهشة، وجُدرانها تمتلئ برسومات العذراء والمسيح وعددٍ لا أحصيه من القدّيسين. وفي قلب الكنيسة رأيتُ المذبح، هكذا يسمّونه على ما أظنّ، والعِلم عند الله. وفي المذبح صلبانٌ كثيرة، وتماثيلُ أكثر، وبين نوافذه أيقونات أيضًا، وشعرتُ أنّني في متحفٍ من القرون الوسطى... كلّ هذا عاينَتْهُ من الباب الكبير قبل أنْ ندخل إلى الدّاخل، ولوى الشّيخ عنقي، وذهبَ بي إلى مربطٍ أسفل الكنيسة لكي يربطني هناك، ويدخل وحده، وهتفتُ في نفسي: «كم أنتَ أنانيّ». وعاندتُ الشّيخ، فلم أطاوعه، وصلصلتُ، فملأ نُهاقي المكان، وتردّد في أصداء الكنيسة الواسعة العِملاقة، وانتبه القِسّ، فجاء مُهرولاً، وهو يسأل: «ماذا هُنالك؟». ورأى الشّيخَ فرحّب به، وقال له الشّيخ: «أنا أريد أنْ أربطَ هذا الحِمار في الإصطبل، وهو يُصرّ على

الدّخول». فابتسم القِسّ، وقال: «بيت الرّبّ لكلّ مَنْ أحبّ». فقلتُ في سِرّي: «قِسٌّ طيّب، وكلامٌ عَذْب». وهتف الشّيخ: «ولكنّه حِمار!!». فردّ القِسّ: «ولكنّه خَلْقُ الله، فَدَعْه لكي يراه». ثُمّ إنّني دخلتُ، ورُحتُ أتفحّص المكان منذهلاً بالتّفاصيل الّتي أراها، وشدّ انتباهي تِمثالٌ مُتقن الصّنع، ويبدو صاحبه فيلسوفًا من خلال نظراته المتأمّلة، والكتب الّتي يحملها أسفلَ بطنه قريبًا من سرّته أو عورته الّتي يُسمّيها بعضُ البشر الحَمامة لا أدري بالضّبط، فاقتربتُ منه، فقرأتُ على قاعدته: «القدّيس توما الإكويني». وفحصتُ ذاكرتي، ومرّتْ تلك الذّاكرة على كلّ الّذين كان اسمهم توما في التّاريخ، فعثرتُ على كثيرين، واستخرجتُه من بينهم، وعزمتُ إنْ أنا عدتُ مع الشّيخ إلى سوف أنْ أطلبَ منه أنْ يقرأ لي كتابًا من كتبه في الفلسفة!!

وسمعتُ الشّيخ والقِسّ يتحاوران بهدوء فيما بينهما، ورأيتهما يطوفان بتؤدة في أبهاء الكنيسة، وكانا يُمثّلان مزيجًا رائعًا وصورةً متماوجةً جميلةً، الشّيخ بقُفطانه والقِسّ بجلبابه، الشّيخ بعِمامته والقِسّ بقلنسوته، الشّيخ بالمسبحة الّتي تُطوّق عنقه وتنسدل على صدره، والقسّ بمسبحةٍ مثلها تمامًا تنتهي بصليبٍ يستقرّ باطمِئنان على صدره. قُفطان الشّيخ كُحليّ

وجلباب القِسّ أسود، عِمامة الشّيخ بيضاء، وقلنسوة القِسّ قرمزيّة. مسبحة الشّيخ بُنّية، ومسبحة القِسّ حليبيّة. ورأيتُهما ينظران إلى بعضهما بودّ، حتّى إذا مرّ بعضُ الوقتُ في تأمّلاتي في موجودات الكنيسة سمعتُ صوتَهما يعلو، ورأيتُ جِدالهما يحتدّ، وإذا بعبارات الغضب تصدر من الطّرفَين، وقلتُ: «البشر هكذا، لا يدوم اتفّاقهم أكثر من زمن الخُطوات الّتي يذرعونها في مسجدٍ أو كنيسة». وسمعتُ الشّيخ يقول: «سنُحكّم الحِمار في هذه المسألة». ويردّ القِسّ عليه مندهشًا: «الحِمار؟!!». «نعم، الحِمار؛ ألمْ تقلْ إنّه خلقٌ من خلق الله وسمحتَ له بدخول الكنيسة، فلماذا تغيّرت الآن؟». «لا، لم أتغيّر... الحمار..؟ الحمار... نادِه ليحكم بيننا... نادِ حمارَكَ القاضي... أو قاضيكَ الحِمار». ورأيتُ الشّيخ يُشير إليّ من بعيد، وكنتُ لا أريدُ أنْ أستجيبَ لهما، ولكنّني استجبتُ لأنّني نويتُ أنْ أعلّمهما درسًا لا ينسيانه، ولمّا صرتُ ثالثَهما، بدأ الشّيخ فبسطَ حُجّته، ثُمّ جاء دور القِسّ فبسطَ حُجتّه، فلمّا أنهى كلّ ذي حُجّةٍ حُجّته، درتُ باتّجاه الشّيخ دورةً كاملة، ورفعتُ ذيلي، ونصبتُ قفاي، ثُمّ ضرطتُ ضرطةً ارتجّتْ لها قناديل الكنيسة. وقلتُ له: «قد حكمْت». فذُهِلا، وإنْ كان ذهول الشّيخ أقلّ. وقال القِسّ: «إنّ حمارَكَ هذا قليلُ أدب». فدرتُ

مثل الـدّورة الأولـى وضرطتُ مرّة أخرى وأنـا أرفع رجلَيّ الخلفيّتَين وأُدير قفاي بحيثُ تصبح الضّرطة في وجه القسّيس مباشرة، وقلتُ: «حكمت». ثُمّ أنزلتُ رجليّ واستغرقتُ في الضّحك، وخرجْنا مطرودَين، والشّيخ يضحك معي. ولو كان حمارًا مثلي لبانتْ أسنانه الأماميّة مثل حبّات الفول وهو يشهق من شدّة الضّحك!

البشر يَنسَون، الحمير لا تَنْسى!

ومررنا على بِرْكةٍ ونحن عائدون، بركةٍ لم يصنعها البشر، ولكنْ صنعها تجمّع مياه السّيول في منخفضٍ أسفل جبال اشتفينا، ونحن قافِلون من القلعة. وقلتُ للشّيخ: «فلْنَسْبَح». وردّ الشّيخ: «استحِ». فاحتججتُ: «وهل في قولي عيبٌ؟!». «كلّ العيب». «كيف؟». «أنا عجوز وأنتَ تريدني أنْ ألهو كالأطفال». «يبدو أنّك لا تُجيدُ السّباحة، وأنّك خائف». وأثار ذلك حفيظة الشّيخ، فخلع في البرد قُفطانه، وفكّ سراويله، ورمى عِمامته، وقفز في الماء دون أنْ يُفكّر، وصحتُ: «رائع... رائع... إنّكَ تبدو مثل مُراهق». واستبدّ بي الحماس، فنثرتُ البردعة عن ظهري، وقضمت الحبل بأسناني، وركضتُ إلى البركة، وغطستُ مع الشّيخ، ورحنا نسبح مبتهجين، وكانتِ الحرارة تقتربُ من الصّفر، وفكّرتُ بعد أنْ قطعنا أنا والشّيخ عدّة أشواط في البركة: «يا لَنا من مجانين!!». ولمّا خفتَ حماسُنا تسلّلتْ إلينا البرودة، فهممتُ أنْ أخرج من البركة قبل الشّيخ، فقد بدأ البرد يُكسّر عِظامنا، وعرفتُ أنّ الشّيخ قد ناله ما نالني. وفجأةً سمِعنا صياح أطفالٍ من العشيرة الّتي تسكنُ هناك، وكانوا فيما يبدو يتلصّصون علينا، فلمّا ألفَوا ثياب الشّيخ والبردعة مُلقياتٍ بإهمال في الخارج، ركضَ أحدُهم فأخذ ثياب الشّيخ؛ القُفطان والسّراويل والعِمامة، ولفّها تحت ذراعَيه

وأطلقَ سيقانه للرّيح وهو يصيح، وجاء الثّاني فأخذ البردعة وكانتْ ثقيلةً عليه فجرّها جَرًّا وراح يهرب. وصاح الشّيخ بهم: «يا أولادّ.. يا أولاد... اتركوا لي الثّياب». ولكنّهم بدل أنْ يستمعوا له راح بعضُهم يُقهقه بصوتٍ عالٍ، ونظر الشّيخ إليّ وأنا في حيرتي، فصرخ بي: «ماذا تفعل أيّها الحِمار... هيّا الحقْ بهم...». فرددتُ: «ولماذا لا تلحق بهم أنت؟». فاغتاظ ونشق: «أنا عارٍ يا أحمق...». وأغضبني نعتُه لي بالأحمق، ولكنّني ابتعلتُ الإهانة، وخرجتُ من البركة، ولحقتُ بالأولاد، فأمّا الّذي سرق ثياب الشّيخ ففد سقطتْ منه العِمامة ونفذ بالقُفطان والسراويل. وأمّا الّذي جرّ البردعة فقد أفلتَها قبلَ أنْ أهوي عليه بفمي فأعضّه في كتفه. وهكذا التقمتُ العِمامة، ولففتُ بأسناني خيطَ البردعة حول حافري وعدتُ بهما. وخرج الشّيخ من البركة يرتجف من البرد والغضب، وصرخ: «أولاد الحرام أخذوا ثيابي». فقلتُ مازِحًا: «لقد أبقَوا لك العِمامة». فاستشاط الشّيخ غضبًا: «أتهزأ منّي أنتَ الآخَر، لولا تحدّيكَ لي لما رضيتُ أنْ أنزل إلى البركة فأسبح، أنا حمار عندما استجبتُ لحمار». وأردتُ أنْ أخفّف عن الشّيخ ما هو فيه، فقلت: «يا سيدي تشرّفنا بك عضوًا في مجتمعنا؛ مجتمع الحمير». فزادَ ذلك من هياجه. وسألني: «ما العمل؟». فقلتُ: «نسارع بالعودة

إلى سوف». «هكذا فقط بالكلسون والعِمامة؟». «لن ينظر إلى جَمالك أحد، ولن ينتبه لوسامتك مخلوق». «ولكنّني سأموت من البرد». «إذا ركضتُ بك أدفأتُكَ واستدفأتُ». «ولكنْ ألم تمر بك أمّك على أحدٍ في هذه النّاحية كما مرّتْ بك على كوخ الحاجّ (رفيفان)؟». «كلاّ». «لعنة الله على...». وأرادَ أنْ يشتم أمّي فحذّرتُه، فتراجع. وقبلَ اقتراحي على أمل أنْ يجد أحدًا في الطّريق يعطيه بعضَ الثّياب. وهكذا ركب الشّيخ بالكلسون والعِمامة على ظهري، وكان وزنه أخفّ، وجسده يرتجّ كجسد عصفورٍ رشحه المطر وبعثرتْه الرّيح. وهملجتُ به حتّى وصلْنا إلى سوف عند المغرب، وكُنّا قد غِبْنا عنها زمنًا طويلاً، لم أعدّ أيّامه لأنّه كان زمنًا ممتعًا بصحبة هذا الشّيخ الرّائع، ولمّا وصلْنا إلى الجبلَين اللّذين ينفرجان عن طريقٍ في فم الوادي الّذي يقودنا إلى القرية، تلقّانا عددٌ من الفلاّحين، فنظروا في هذا الرّجل الّذي أحملهُ فوقَ ظهري كأنّه جُثّة في ثلاّجة، وتعجّبوا منه، وقرفوا من فِعله، ونهروه: «ألا تستحِ؟». وشعرتُ أنّ الله ردّ لي الكلمة الّتي قالها الشّيخ لي عندما طلبتُ منه أنْ ننزل لنسبح في البركة. وكان جليًّا أنّهم لم يعرفوه، وصحتُ بهم: «هذا الّذي أحمله هو الشّيخ عليّ ألا تُساعدونه؟!». ولكنّهم تلفّتوا حولهم كأنّما شكّوا في أنّني أو أنّه مَنْ يتكلّم ومَضَوا في

حال سبيلهم. وأرادَ الشّيخ أنْ يقول لهم: «يا سَفَلة ألا تُساعدون مَنْ ساعدَكم على معرفة الله؟». ولكنّ صوتَه خرجَ من فمه مثل دم يخرج من فم مسلول. ومضيتُ إلى بيت الشّيخ، وكان أذان المغرب يصل إلى أسماعنا من المسجد القديم، ويبدو أنّ أهل القرية قد وكّلوا طِفلاً جاهِلاً ليؤذّن، لأنّه أخطأ فيه أكثر من عشر مرّات. ولمّا صرنا على مقربةٍ من بيت الشّيخ، ظهر لنا عددٌ آخر من الفلاّحين، كِبارٌ في السّنّ، وتعرّفوا على الشّيخ مع أنّ الظّلام كان قد حلّ، وصُعِقوا وهم يرون حمامته تَغُور بين ساقَيه العاريتَين، وصدره المكشوف للرّيح تعبثُ بشعرات صدره الشّائبات، ولا يلبسُ إلاّ عِمامةً فوق رأسه، وبدل أنْ يُنجِدوه فيأخذوه ويُلبِسوه ملابس دافِئة، ويَسقوه شَرابًا ساخِنًا، ويُجلسوه في فم الدّاخون راحوا يُعاتِبونه: «تغيبُ عنّا شهرَين وتأخذ راتبك من الحكومة وتدّعي أنّك شيخ؟! أليستْ هذه سرقة؟!». وشتمهم، لم يسمعوه، لكنّني سمعتُه يقول لهم: «يا أولا القَحـ... ساعِدوني الآن، ثُمّ عاتِبوني». ولكنّهم استمرّوا في تقريعه: «تتنزّه أنتَ وحِمارُك على حسابَنا؟!». «ألسنا نحن الّذين اشترينا لكَ هذا الحِمار؟». «ولماذا اشتريناه يا تُرى لك؟ أليس من أجل أنْ يحملك من بيتكَ إلى المسجد فتؤمّنا للصّلاة؟!». أرادَ الشّيخ أنْ يقول لهم: «ما فائدة أنْ أؤمّكم في

الصّلاة وأنتم كَفَرة... ألا ترون ما أنا فيه؟» ولكنّه لم يقلْ ذلك لأنّه كان قِطعةً من الزّجاج صلبة تكادُ تتكسّر إذا نَقَرتَها بطرف إصبعك، وتابعوا هم صَبّ عتاباتهم: «ألا تخجل من نفسك؛ تخرج مع حمار؟». ونهقتُ محتجًّا. وقال آخَر مستظرفًا: «يبدو أنّه حِمارٌ يُحبّ الطَّشَّة، وإلاّ لَما طاوعكَ هو الآخر، آه... صحيح... نسينا أنّه حِمار!!». ونهقتُ من جديد، ولكي أكفّ الشّرّ من أنْ يستفحل، مضيتُ بالشّيخ إلى بيته، فدفعتُ الباب بحافري، ودخلنا الغرفة، وكانتْ غايةً في الدّفء مقارنةً بالجوّ الصّقيعيّ في الخارج، وأهبطتُ ظهري للشّيخ، وأنزلتُه بترفّق، فلّما صار على الفراش، وقفتُ على قائِمَيّ، فأخذتُ بفمي ثيابه الأخرى المُعلّقة في المسامير على الحائط، وأنزلتُها له، وقلّبتُه بفمي كذلك لأساعده على ارتِدائها، وهو يهمهم، وعرفتُ أنّه يريدُ أنْ يشكرني، وتوقّعتُ أنّه سيقول لي: «أنتَ أفضل من هؤلاء البشر الّذين يدّعون أنّهم أصدقائي». وسرى شيءٌ من الدّفء في جسده، ومكث الشّيخ قليلاً حتّى مشى الدّم في عروقه، واستعادَ حياته، وقرّبتُ إليه مِعلفي، فأكل من الشّعير معي، ودبّتْ فيه بعضُ القُوّة فقام إلى الدّاخون وأوقد النّار، وانتعش كأنّه عاد إلى الحياة من جديد، ونظرَ إليّ نظرةَ امتِنان، وقبلَ أنْ يقول كلمةً واحدةً، كُنّا نغطّ مَعا في نومٍ عميق!

وفي الفجر قام على عادته، فتوضّأ، وصلّى قبل أنْ نذهبَ معًا إلى المسجد، ومضينا في الطّريق، فلمّا رأى النّاسُ الشّيخَ في المسجد بارِئًا فرحوا كأنّهم لم يشتموه ولم يعاتبوه ليلة أمس، وهتفتُ في سرّي: «دجّالون». وردّتْ عليّ الجُدران: «منافِقون». وأخذ الشّيخ نصيبَه من القراءة، وحفظتُ خلفَه ما قال.

ولقد وعيتُ ما لم يَعِ البشر، وإنّ الله خالق كلّ شيء وصاحب الفضل يهبه لمن يشاء، ولا يُميّز بين خلقه إلاّ بما أعطاهم أو بما يُعطونه مِمّا أعطاهم لِخَلقه، ولقد مكثتُ بصحبة الشّيخ السّنين الطّوال فما فارقتُه، وما فارقني، وحفظتُ عليه ما لم يحفظهُ شيخُ الأزهر، ولا شيخ الزّيتونة، ولا شيخ مكةّ. وتفقّهتُ فيما سمعتُ ما لم يَتفقّهْ به سعيد ولا عكرمة ولا قتادة ولا سفيان. وتفلسفتُ ما لم يتفلسفْ به ابن رشد ولا ابن سينا ولا ابن باجة ولا ابن خلدون.

وبعد خمسَ عشرة سنةً من المدارسة والتّطواف في القُرى، والمبيت في الشّوارع والأزقّة والخانات والزّرائب والإصطبلات وبيوت الغرباء والقراءة على ضوء السُّرُج والأكل مع الشّيخ في مِعلفٍ واحد، والشّرب معه من الجُرنٍ نفسِه؛ بعد ذلك كلّه دخل عصرُ التّلفاز. فقد اشترى الشّيخ

من راتبه الّذي كان يأخذه من وزارة الأوقاف تلفازًا حديثًا، كان ثالث تلفاز يدخل إلى القرية. وعندما كُنّا نعود من صلاة العِشاء، كُنّا نسهر أنا والشّيخ فنحضر أفلام أسمهان، وإسماعيل ياسين، وأغاني أم كلثوم، وبعد سنواتٍ أخرى تطوّر الشّيخ أكثر فصرنا نحضر المسلسلات الّتي كتبها وليد سيف مثل عروة بن الورد، وطرفة ابن العبد، والمُعتمد بن عبّاد. وشاهدتُ برفقة الشّيخ مئات المسرحيّات والمُسلسلات والأفلام الأخرى.

وفي يومٍ صيفيّ قائظ، وكان البعوض يومئذٍ يسرح ويمرح في الغرفة، ويتخّذ من جلدنا مائدةً لجوعه، ومن دمنا شرابًا لريّه، سألتُه: «لماذا قتلتَ زوجتَك؟». فانتفض الشّيخ من مكانه، وظلّ ساكِتًا، فأعدتُ عليه السّؤال، فقال: «ألم تنسَ، لقد مرّ على ذلك الحادث خمس عشرةَ سنة!». «البشر ينسون، الحمير لا تنسى». «ثُمّ؟». «لا يُوجد ثُمّ! هناك سؤال بسيط: لماذا قتلتَ زوجتك؟». «لن أجيبَكَ الآن». «ولكنّكَ وعدْتَني إنْ عُدنا إلى سوف أنْ تخبرني، وقد مرّ على ذلك الوعد كلّ تلك السّنين، وقد انتظرتُ أنْ تستحي أنتَ فتخبرني دون أنْ أطلب، ولكنّ البشر فوق أنّهم ينسَون فإنّهم ينكثون بعهودهم، ويتحلّلون من وعودهم». وتضايق الشّيخ، وزفر: «سأخبرك... سأخبرك... أنا عندَ وعدي». «أخبرْني إذًا». «ليس الآن». «متى؟!». «في

رحلتنا القادمة». «لن أرافقك قبل أنْ تخبرني». «إذا قلتُ لك الحقيقة مرّةً واحدة، فهل تُصدّقني؟». «بالطّبع فأنا ما جرّبْتُ عليكَ كذبًا!!». «لقد كانتْ تخونني». «تخونك؟!!». «قلتَ إنّك لا تريد استيضاحاتٍ، وستكتفي بالإجابة الصّريحة؟». «بالطّبع... بالطّبع... ولكنّ الموضوع أثارَ فضولي». وهزّ الشّيخ رأسَه، وقال: «لقد كانتْ تخونني مع فلاّحٍ آخَر». «معقول!!». «لقد كنتُ شابًّا سيّئ الأخلاق». وهززتُ رأسي متأسفًّا. وتابع الشّيخ دون أنْ أطلبَ منه ذلك، وكأنّه وجد راحةً في الحديث: «لقد كنتُ أعودُ بعدَ منتصف اللّيل سكران إلى البيت، وكانتْ زوجتي تنصحني، ولكنّني كنتُ أضربها». وتنهّد الشّيخ قبل أنْ يُتمّ: «وبعدَ سنتَين من زواجنا، ولدتْ لي ابنةً سمّيتُها مريم، وكانتْ فتاةً جميلةً جدًّا، وأُولعتُ بها ولعًا شديدًا، ولكنّني لم أُقلِعْ عن عادتي في السُّكر، وما كنتُ أجنيه من الحِراثة في حقول النّاس في النّهار كنتُ أُنفِقه على ملذّاتي في اللّيل». وسكتَ الشّيخ، وساحتْ على خدّه عبراتٌ حارّة، واقتربتُ أكثر من الشّيخ أواسيه، وشجّعتُه على المُضيّ في الحديث: «كلّنا نُخطِئ.. هيه... وماذا حدث بعد؟». «طلبتْ منّي نقودًا من أجل إطعامها وإطعام ابنتنا... ولكنّني كنتُ في عالَمٍ آخَر... وكُنّا دائمًا ما نتشاجر في اللّيل بعد أنْ تشمّ رائحتي، وهي

تقول: «حرامٌ عليك ضيّعتَني وضيّعتَ ابنتنا، وليسَ في البيت لقمةُ خبزٍ واحدة...»، وأنا أردّ عليها بصفعها على وجهها، حتّى إذا كان يومٌ عُدْتُ فيه مبكّرًا على غير عادتي، فإذا هي في حِجر رجلٍ آخَر، فتناولتُ الفأس المُعلّقة على الجِدار، وهويتُ بها عليهما، فقتلتُهما على الفور، ثُمّ أعملتُ الفأس في جسدَيهما ففصلتُ رأسَيهما، وقطّعتُ أعضاءَهما قِطعةً قِطعةً، وابنتي تنظر وتصرخ والرّعب يملأ عيونها، ولم أكنْ في عقلي، ولا أشعر إنّ كانت موجودةً أم لا، ثُمّ حملتُ أشلاءَهما، ودفنتُهما في الحقل، بعد أنْ حفرتُ لهما حفرةً عميقة، عميقةً جدًّا، ورميتُهما فيها. ونفضتُ يدي وأنا ألعنُ اليوم الّذي تزوّجتُ فيه. وعدتُ فنمتُ كأنّ شيئًا لم يحدث. وفي الصّباح أخذتُ ابنتي (مريم) إلى أختي، وأخبرتُها بما حصل، وأودعتُ ابنتي عندها أمانة، وهربتُ إلى مصر، وقُبلتُ في الأزهر الشّريف، وتخرّجتُ فيه، ثُمّ عُدتُ إلى الأردنّ من أجل أنْ أعيشَ حياةً جديدةً بعيدًا عن حياتي السّابقة. وما زلتُ هارِبًا إلى اليوم!».

مكتبة
t.me/t_pdf

الطّريق قريبةٌ على مَنْ مَضى

«ولكنْ يا شيخُ كيفَ طاوعتْكَ نفسُكَ أنْ تقتلَ زوجتَكَ وتتخلّى عن ابنتك بهذه السّهولة؟ يا لكَ من قاسي القلب!! ألسْتَ نادِمًا؟!». «لو كنتَ مكاني ماذا كنتَ ستفعل؟». «دعني أُفكّرْ». «أمّا زوجتي فلم أندمْ على قتْلِها ألبتّة، وأمّا ابنتي فإنّني أندمُ في كلّ لحظةٍ على تركِها. الّذي يقتلني يا حماري العزيز، أنّني لم أجرّبْ طوال هذه السّنين الّتي ربّما تزيدُ عن أربعة عقود أنْ أذهبَ إلى أختي فأسألها ما حلّ بابنتي ولا كيفَ تدبّروا أمرَها، ولا أختي جاءتْني تسأل عنّي، ولا ابنتي عنّتْ نفسَها أنْ تبحثَ عن أبيها». «أنتَ حمار يا شيخ». وذُهِل الشّيخ، وأصابَتْه صدمة: «حِمار؟! لماذا؟». «تريدُ من ابنتك أنْ تبحثَ عنك، ولو كنتُ مكانك لبحثتُ أنا عنها خلف كلّ حجر، وسألتُ عنها كلّ ورقةِ شجر... صحيح أنّك حمار... أقصد حمار بلا عقل... ولكنْ لديّ حلّ...». وصمتُّ، فتحفّز الشّيخ: «قُلْ يا حماري العزيز، قُـلْ». «ما رأيُكَ أنّ نجرّب البحثَ عنها معًا...؟». «ولكنّني خائف». «طبيعيّ، ولكنّ حلاوة اللّقاء تُزري بالخوف، وثَمَرة النّظر في عيون ابنتك ولو صارت الآن أُمًّا يُنسيك كلّ ألم ويُنسيك الماضي بأكلمه...». «آخ... لو أحظى منها بنظرة، أوْ بكلمة بابا». «أنتَ حمار». «مرّة ثانية!!». «أنتَ حمار بلا رَسَن هذه المرّة». «لماذا؟!». «لأنّكَ أنتَ الّذي حرمْتَ نفسَكَ من

أنْ تقول لكَ هذه الكلمة لا هي... أنتَ لم تسألْ عنها... يا إلهي كيفَ يُمكن لقلبكَ أنْ يحتمل... آه قلبي...». «لم يعدْ لي قلبٌ يا حماري العزيز... لقد دفنتُه مع زوجتي». ووقفتُ على قدَمَيّ، وصرختُ: «سنبحثُ عنها من هذه اللّحظة». «هذه اللّحظة، هل أنتَ مجنون؟». «نعم مجنون لأنّني قبلتُ أنْ أكون في خدمة مجنونٍ مثلك». «بدأنا بالغلط». «هيّا بنا». «ولكنّ اللّيل في آخره!!». «ألا تريدُ أن ترى ابنتك؟!». «بلى».

وخرجنا من (سُوف). لم يكنْ في الحَيّ حَيّ، كان خاليًا تمامًا، كانتْ سوف تموتُ بعد العِشاء، تبدو مثل قريةٍ خاويةٍ على عروشها، حتّى كِلابُها تنام مبكّرًا، وحميرُها لكثرة ما تتعبُ في النّهار، تُصلّي المغرب والعِشاء جماعةً ثُمّ تأوي إلى زرائبها، كنتُ ربّما الوحيد في القرية الّذي أسهر مع الشّيخ، وقد بدأنا في الفترة الأخيرة ننظّم وقتنا اللّيلي، فنُمضي ليلة السّبت لدراسة الفلسفة، والأحد للعقيدة، والاثنين للأدب، والثلاثاء للتّاريخ، والأربعاء للفلك، والخميس والجمعة نُرفّه عن أنفسنا ونضحكُ مِلْءَ أشداقنا، فلا نترك فلمًا أو مُسلسلاً أو مسرحيّة أو خُطبةً لزعيم عربيّ إلاّ ونشاهدها، حتّى تحمرّ عيوننا من السّهر، وكان الشّيخ يُحبّ الشّنينة والقَلِيّة في الصّيف، والشّاي والقهوة

والهريسة في الشّتاء. وها هي سوفُ نتركُها خلفَنا في رِحلةٍ لا ندري كم ستستمرّ، رحلة البحث عن ابنة الشّيخ. «قلتَ لي ما اسمها يا شيخ؟». «مريم. أنسيت؟». «لا، ولكنّني أحبّ أنْ أسمع هذا الاسم من غيري، إنّه اسمٌ رائعٌ وخالدٌ!!».

كانت الكهرباء قد دخلتْ إلى سوف حديثًا. أعمدة الشوارع العالية كانتْ تقاوم بنورها الشّحيح العتمة وتحاول قهرَها. مررْنا في طريقنا على حمار السّهليّ، كان نائمًا فأيقظتُه وقلتُ له: «إنْ سأل عنّا أهل المسجد، فقلْ لهم إنّنا خرجْنا نبلّغ أمر الله لأهله في دياره». فأغمضَ عينَيه اللّتَين فتَحَهما بتثاقُل، وأومأ رأسه بالموافقة، وكانتْ عيونه تقول: «دعني في نومي، لماذا أيقظْتَني!».

كانتْ ليلةً ربيعيّة من ليالي آذار، بردٌ خفيف، ومدًى واسع، والشّيخ لا يرى، وأنا أرى حتّى القطط الّتي دفنتْ رأسَها في فروة صدرها بعد جولةٍ من التّناكح اللّذيذ، وكنت أرى الدّيدان، والعصافير، وقَطَرات الماء، والكلاب، وأوراق الشّجر المُزهر، وتلك المجروشة في الأسفل، والورود الّتي لم تتفتّح، وتلك الّتي تفتّحتْ، و... وكان الشّيخ أعمى. البشر في اللّيل عُميان ونحن مُبصِرون فكيفَ نستوي؟!

وسألني الشّيخ: «أين نبحثُ عن ابنتي؟». فأجبتُه: «في القرية الّتي تركتَها فيها». «وهل تعرفها؟». «لا». «إذًا كيفَ مضيتَ في البحث عنها؟». «المهمّ أن تبدأ، والنّهايات تأتي بعد ذلك!». «ولكنّها بعيدةٌ من هنا!!». «في المرّيخ مثلاً؟!». «تقريبًا... في الجنوب». «الجنوب؟! لم تقلْ لي ذلك!!». «لأنّكَ لم تسألْني». «لا بأس؛ الطّريق قريبةٌ على مَنْ مَضى، ولا بعيدَ على مَنْ أراد». ومَضَينا.

تركْنا الطّريق الّتي تسلكها السّيّارات، فمنظر الحديد المُزمجر، والّذي يمضي إلى غير غاية كأنّه في سِباقٍ مع العدم لا يبعثُ على الرّاحة، وصلْنا مع الفجر إلى قرية برما، ورأيتُ الصّبح يضحك، وضحكت. وهبطْنا مع الكتّة وريمون، ولمعت الزّهور في الطّرق، ورحّبتْ بي. فحيّيْتُها قائلا: «صباح الأمل». وقالتْ لي وردةٌ بنفسجيّة كانت تتأرجح يمنةً ويسرةً على إيقاع نَسَمات الهواء المُنعشة كأنّها راقصةٌ في مرقص أسطوريّ: «الأمل لا الألم». ونَصَحَتْني: «أعطِ الأمل، فإنّه سهلٌ مبذولٌ لمنْ أراد، ولكنّ قلوب اليائسين لا تراه». وقلتُ: «للزّهور فلسفة»؛ وتعلّمتُ شيئًا جديدًا.

وفي المدى الفسيح كان البساط الأخضر يصنع لوحةً

استثنائيّة، ورأيتُ كلّ زهرةٍ تُباهي أختها باللّون والرّائحة؛ رأيتُ رائحة السّوسنة السّوداء تمشي الهُوينى وتتبختر ففتحتُ لها صدري، ورحّبْتُ بها قائلاً: «أنا لك». وقالَت لي زهور الدّحنون: «أليسَ لي في صدرك موضعٌ أنا الأخرى»، فهيّأتُ لها جزءًا منه، ورحّبتُ: أهلاً وسَهلاً»، وكان موضعها العين قبل الفؤاد. وتعربشَ الياسمين الأبيض بأقدامي، وتسلّق على سِيقاني وهو يقول: «أنتَ أحسنُ مَنْ يفهمني». وانحنيتُ لجلال اللّون، وقلتُ: «هل تقبلين بأنْ تكوني كَفَني حين أموت؟»، فقطّبتْ حواجبها: «بعيد الشّرّ عنك». وضحكتُ فضحكتْ معي بنفسجاتٌ كأنّها عاشقاتٌ خَجولات.

أفقٌ سماويّ، هواءٌ حريريٌّ، وأرضٌ خضراء، ودفءٌ، دفءٌ ينسربُ في أنفي فأشعرُ بالرّاحة، وقلتُ في نفسي: «مستعدٌّ أنْ أسير شهرًا ماضِيًا في هذه الحدائق دون توقّف». ودخلْنا شجرًا عالي الجذوع وكانت الشّمس قد بدأتْ تصعدُ في الأفق من نومها، فتخلّلت تلك السّيقان كأنّها ذهبٌ يسيل على سيقان غانية، ولمعت الشّمس في عيني: «هل تستطيع مغازلتي أيّها الحِمار؟». فقلت: «لولاك ما افترّ ثغر زهرةٍ واحدةٍ من هذه الزّهور». وانكمشتِ الزّهور غَيرَى، فضحكتُ. ومضينا.

وكان الجوع قد عَضّ الشّيخ، فجلس يأكل وأنا أنظر إليه، فقلت: «مَنْ أكل وحده غصّ»، فعلقت اللّقمة في بلعومه، وتوقّف عن المَضْغ، وجاهدَ ليقول: «كلّ هذا الطّعام وتُزاحمني على بعضِ الخُبز». فأجبتُه: «جاهل. مَنْ يأكل الزّهور أيّها الجاهل؟ هذه متعة النّظر، أمّا البطن فيكفيه ما انخبز أو ما انجرش». وقدّم إليّ شيئًا من الخبز والجُبن الّذي معه، فأكلتُ بشهيّة كبيرةٍ، وقلت: «آه على بطّيخة حمراء باردة!». فردّ: «الصّيف أمامك». «ما أطول الصّيف على من انتظر!». وقال: «حكيم». فقلت: «لم تسمع بعد».

وبلغْنا قِمّة جبلٍ سامق، فبدا تحتنا سدّ الملك طلال يترقرق ماؤه أزرق كأنّ السّماء أعطَتْه قطعةً منها، وقلتُ: «نشربُ منه». وأشار الشّيخ إلى البعيد: «تلك.. صويلح، ومن خلفها عَمّان». «وما عمّان؟». «حاضرة الأردنّ». «وهل أهلُها يقرؤون؟». وسكت الشّيخ ولم يقلْ شيئًا. وقلتُ له: «نسبح في السّدّ». فقال: «نغرق». فرددتُ مناكِفًا: «تخاف!». «لن تدفعني كما دَفعْتَني يوم إشتفينا». «ولكنّ الفصل ربيع، والعمر ربيع، والماء ربيع، والسّدّ ربيع؛ فما الضّير في أنْ نسبح؟». «إنّكَ مِحراكٌ للشّرّ». وسكتّ. وشربْنا من مائه، وتجاوزناه ونفسي ما تزال تتوق إلى

أنْ تنغمر فيه. ثُمّ إنّ اللّيلَ هبطَ علينا بعد أنْ صار خلفنا، وبدا داكِنًا ونحن نقفُ على الهضبة الّتي تُقابله جهة الجنوب، وبِتْنا ليلتَنا ونحن نسمع - من بعيدٍ - خرير مائه، وحفيف أوراق بعضِ الأشجار القريبة منه، ورفرفة أجناح الطّيور الّتي بدأتْ تعود إلى أعشاشها، وترضى بما ملأتْ به بطونها.

وشددْنا نحو صويلح، فوصلْنا إليها ضُحًى، وسُوقُها قائمٌ، والنّاس في هَرْجٍ ومرجٍ، يتبايَعون ويتساوَمون، وقُلتُ للشّيخ: «هل في هذه السّوق شعيرٌ جيّد؟». فقال: «هي كلّها شعيرٌ، ولكنْ لا مال لدينا». ونظرتُ فإذا خِيَشُ الشّعير تصطفّ بازدِهاء كأنّها حجارة الأهرام، وإذا هي بعضُها فوقَ بعضٍ، وإذا الحَمّالون يجلسُون فوقَها ينتظرون أصحابَها أنْ يبيعوها لكي يحملوها على عَرَباتهم أو أكتافهم إلى الشّارين. وسألتُه: «من أين يأتي كلّ هذا الشّعير؟». فقال: «من بيادر وادي السّير، يأتي بها الشّركس والشّيشان». وقلت: «الشّيشان؟». فقال: «نعم». فسألتُ: «ومَنْ هُم؟». وأشار إلى نفرٍ منهم يلبسون قُبّعات من الصّوف عالية يُغطّيها وَبَرٌ بُنّي وأسودُ، فأعجبني منظرها، ولكنّني هززتُ رأسي غير مرّةٍ فتحرّك الرّسن مع تلك الهَزّات فأصدر إيقاعًا مُوسيقيًّا جميلاً، وقلتُ كمن يعترض: «لا أسأل عن صُورهم،

أسأل عن ما هم أو مَنْ هُم». فردّ: «قومٌ، أتَوا من جبال الثّلج من بلادٍ بعيدةٍ جِدًّا، فِرارًا بدينهم من الاضطهاد». فتعجّبتُ، وقلتُ: «لقد فعلوا ما تفعل الحمير، إنّهم يشبهوننا على الأقل من خمسة أوجه». وتساءل الشّيخ عليّ مُتفكّهًا: «وما هي يا أبا صابر؟» فقلتُ: «الأوّل أنّهم رحّالة يُحبّون التّرحال وإلاّ لما قطَعوا تلك المسافات الشّاسعة، ونحن كذلك». فهَزّ رأسه غيرَ مقتنعٍ كثيرًا وسأل: «والثّاني؟». فقلتُ: «لديهم إصرارٌ مثل إصرارنا». فزمّ شفتَيه دلالةً على قِلّة الاستِحسان، ولكنّه غامر: «والثّالث؟». «الفرار بالدّين من الاضطِهاد، فلا أغلى من ديننا، ودونه حزّ الحلاقيم». فأعجبتْه هذه، وطَلَب: «والرّابع؟». فقلتُ: «علموا مثلنا أنّ الأرض كلّها لله فلم يمنعهم ذلك من ترابٍ يُسمّى وطنًا، ولا وطن إلاّ ما كان فيك لا ما كنت فيه». فأعجبتْه هذه أكثر، واستزاد: «والخامسة؟». فقلتُ كمن يُوفِي بوعدٍ أو يُنجِز مهمّة: «كِرامٌ مِثْلنا لا يقبلون الضّيم، إذ تمثّلوا ما قاله عنترة: وإذا نزلتَ بدارِ ذُلٍّ فارحلِ». فصاح الشّيخ من الإعجاب، وبادرَ إليّ فاعتنقني، وقال: «لأشترينّ لكَ مُدًّا من الشّعير الجيّد ولو بِعتُ عِمامتي». ورقصَ قلبي طربًا. ومضينا إلى كومة من الخَيْش يدلّ عليها بائعٌ، فقال له الشّيخ: «بكم المُدّ؟». فقال: «بأربعين قرشًا». فعبثَ الشّيخ بجيوب قُفطانه كأنّه يبحثُ عن مالٍ، وهو

يعرف أنّه لا يملك فلسًا واحِدًا، وتلعثم وأنا أضحكُ من داخلي حينَ أخرجَ يده صِفرًا، وحرّك شفتَيه بلا حيلة: «ولكنّني لا أملك هذا الثّمن». فقال الشّيشاني: «وما حاجتك إذا لم يكنْ معك؟! تَنَحَّ عن بَسْطتي». وأزاحَ الشّيخَ من كتفه برفق، وراح يصيح على شعيره، وحاول الشّيخ ثانيةً وهو يُشير إليّ: «انظر إليه، إنّه حِمارٌ ذكيّ، وهو يستحقّ قليلاً من الشّعير». فصاح الشّيشاني: «أهو حِماري أم حِمارك؟! إليكَ عنّي». ولكزه الشّيخ: «انظرْ إليه». والتفتَ الشّيشانيّ إليّ، وأُخِذ بجمالي، وكأنّه لم يرني من قبل، والمعاينة الدّقيقة غير الملاحظة العابرة، وراحَ يتملّى قُدرة الله فِيّ، وتوقّف عندَ الخطّ الأسود الّذي يطوّق أسفلَ عنقي فوجده أملسَ لامِعًا، وهتف: «إنّه حِمار رائع!». وسأل الشّيخ: «هل تبيعه؟». فردّ: أسألكَ قليلاً من الشّعير له ولي، وتقول هل تبيعه؟» وأدار الشّيخ عنقه إلى الجهة الأخرى مُغضَبًا، وغَرّ الشيشانيّ بعضُ الدّنانير الموجودة في جيبه، فهتف وهو ما يزال يُعايِنني، ويتلمسّ جبهتي الواسِعة، ويُحدّق في عَينَيّ الكحلاوَين: «أدفعُ لك دينارًا ورُبع الدّينار ثمنًا وافِيًا لازِمًا ذِمّتي، وأعُدُّها لكَ الآن أمامك». وحرّك القروش والدّنانير الّتي في جيبه ليُغري الشّيخ، وحينَها لم يتمالك الشّيخُ نفسَه، وهتف بغضبٍ: «لا أبيعه بوزنه ذهبًا». وجحظتْ عينا الشّيشاني، ثُمّ

ضيّقهما كأنّه يستعدّ للقِتال، أمّا أنا فقد دخلني الزّهو، وأحببتُ الشّيخ كما لم أُحبّه من قبلُ، ونويتُ أنْ أساعده على أنْ يجد ابنته ولو أَكَلَتِ الرّحلةُ من قَتَبي، وأهلكتْ حوافري، وبيّضتْ رموش عينَيّ. واستدرك الشّيشانيّ: «هل تريدُ له مُدًّا من الشّعير بالفِعل؟». فقال: «نعم». إذًا يعمل في حقلي في البيادر نهارًا ويحصل على أجره بكدّ ذراعه». ورفض الشّيخ، لكنّني همستُ في أذنه: «وافق يا صديقي، وسنحظى معًا بطعام لذيذ». ووافق الشّيخ بعد تردّد، وقال للشّيشاني: «إذًا غدًا في الصّباح نكون عندك».

وعدلْنا في الطّريق إلى المسجد فقد نادَى المُؤذّن لصلاة الظُّهر. وكان مسجد الشّيشان في صويلح أهمّ معالم تلك البلدة، وهبطْنا الدّرجات العشرين إلى قاع المسجد، والنّاس تنظر إليّ وتستنكر دخولي، كأنّني أدخل بيوتهم أو أقتحم منازلهم، وكأنّهم لا يدرون أنّ المساجد لله، وأنّ هذا بيتُه لا بيتُهم. وتركْناهم في استنكارهم، وأوقفني الشّيخ على الباب، وقال: «تدخل أمْ تسمع من هنا؟». وأردتُ أنْ أُعفي الشّيخ من الحرج، فقلتُ: «بل أسمع من هنا». وكان في رأس الشّيخ الكثير من العِلم ليقوله للنّاس بعد الصّلاة. وأُعجبَ النّاس بحديثه،

وتحمّس أحدهم فقال: «عشاؤك اللّيلة عندي»، فقال الشّيخ: «والحِمار؟» وأشار إليّ أنا الواقف بالباب، فردّ: «والحِمار». وبِتنا تلك اللّيلة في بيتِ كرمٍ وجَمال، واستعدْنا بعضَ قُوانا من أجل حِراثة الغد وتعبه، وفي الغيب ما يصنع ربّ الغَيب؛ فَلِمَ الأسى؟!

لا أعرفَ بالطّريقِ
مِنَ الحَمير!

وأخذ الشيّخ على عادته بعض الكتب من مسجد الشّيشان، وهو يردّد عبارته الأثيرة: «لا شراكة إلاّ في أربعة: الماء والكلأ والنّار والكتاب». ثُمّ وهو يمطّ شفتَيه: «مَنْ كتم علمًا ألجمه الله بلجامٍ من نار. وأوّل كَتْم العِلم الّتباهي به خلف زجاج المكتبات حتّى تأكله الغبرة دون أنْ تمسّه يدٌ، أنا بأخذي الكتب من هنا أُخرجها من قُبورها وأعيد لها الحياة مع حِماري العزيز». وكنتُ أهزّ رأسي موافِقًا إيّاه، وأُردف: «فلنرفعْ شِعار: المعرفة للجميع». والشّيخ يبتسم.

ومضينا إلى بيادر وادي السّير، وكان الجوّ لطيفًا، والسّماء صافيةً، والنّاس رائقة، وكلّ يغدو إلى رزقه، وفي الطّريق قبل أنْ نصل البيادر قال لي الشّيخ: «هل لك بأبيات عِرار في هذه النّواحي!». فقلتُ: «قد سمعتُها». فقال: «مِنّي؟». فقلتُ: «نعم». فقال: «فأنشِدْنا نشيدَه رحم الله والدَيك». فقلتُ: «حتّى نبلغ النّشَز». فقال: «ولِمَ؟». فقلت: «لأنّ عِرار لمّا رأى الجميلات هناك قال أبياته المشهورة تلك». فقال: «وَجَب». فلمّا بلغنا النّشر، والهواء يلهو، والهوى يسهو، وقفتُ، فمددْتُ عنقي، وفتحتُ فمي، وتهيّأتُ للنّشيد، وشَدَوت:

ليتَ الوقوفَ بوادي السّيرِ إجْباري
وليتَ جارِكَ يا وادي الشِّتا جاري

فتنهّد الشّيخ، حتّى علا صدرُه فبان كأنّه قُبّة، وشعرتُ أنّ له في هذا المكان منازلَ هوًى، فأردفتُ:

لعلّني مِنْ رُؤى وَجْدِي القَديم بِهِ
أرتادُ مَسًا لِجِنّيّاتِ أَشْعارِي

فزفر الشّيخ حتّى شعرتُ أنّ حَرَّ جهنّم في زفيره، فلمّا وصلتُ في إنشادي إلى قوله:

مكتبة
t.me/t_pdf

فألمسُ الشّوقَ في أطلالِ ذاكِرَتي
وألمحُ الحُبّ في أنقاضِ أَوْطارِي

هاجَ الشّيخ، فرقص على رِجْلٍ واحدة، وخلع عِمامته وراحَ يُلوّح بها، وهو يصيح: «هِيه... هِيه...». ثُمّ إنّه رماها، وحجل كما تحجل الطّير، وتمايل كما تتمايل جذوع أشجار الحُور العالية الرّفيعة عند هبوب الرّيح، ثُمّ صفّق، وأخذ يخلع قُفطانه، ورماه في الهواء، ثُمّ هَمّ بخلع سراويله، فناشدْتُه الله ألاّ يفعل، فإنّ التّصابي وإنْ كان محمودًا عند الطّرب إلاّ أنّه يُغري بنا السُّفهاء، ثُمّ علا صوتُه بالنّشيد، وناح كأنّه قيثارةٌ في فم عاشقٍ

مَفؤود، وأكمل بنفسه:

ولا أرى الخَفِراتِ البِيْضَ مُعْرِضَةً
عَنّي تَـأَفَّـفُ مِـنْ خُبْـرِي وَأَخْبـاري

فرقصتُ معه، وحانتْ منّي التِفاتةٌ إلى الوراء فإذا خلفَنا عددٌ من الحُوريّات يردّدنَ النّشيدَ معنا، وإذا رُمّانهنّ يترجرج فوقَ صدورهنّ، وإذا هُنّ كأجمل ما خلقَ الله، وشعرتُ أنّني في الجنّة أطوفُ بين الأُتُنُ العذراوات الّتي لم يمسسهُنّ قبلي إنسٌ ولا جانّ، وشَعَر الشّيخ مِثلي أنّه في الجنّة معي يطوف بين الحُوريّات، وأخذَنا النّشيد حتّى سَكِرْنا وذُهِلْنا عن أنفسنا، ولم نزل نرقصُ حتّى لسعتْنا الشّمسُ، وقهقه الشّيخ، وهو يرمي في شِباك الحسناوات آخر بيتٍ:

ولا أُبـالِـي إِذا لاحَـتْ مَضارِبُهُمْ
مَقالَةَ الـسُّـوْءِ في تَـأْويـلِ مِـشْـوارِي

وضحكتْ معه الحسناوات، ولملم الشّيخ ثيابه، فلمّا التفَتْنا خلفَنا لم نجد حسناء واحدة، وإذا هو صدًى لا ندري من أين جاء، وإذا الهواء يرقص عابِثًا بنا وحدنا، ويخفّف عنّا وجد القلب، وحَرّ الشّمس، ونظر الشّيخ إلى ظلّه، وقال: «لقد تأخّرْنا

على الشّيشانيّ، وإنْ لم نحرثْ حقله اليوم هلكْنا من الجوع، والطّريق أمامنا طويلة». وهُرِعنا إلى الحقل!

وبدأتُ الحراثة وأنا في غاية النّشاط والسّرور من أبيات عِرار، وقلتُ للشّيخ وهو يُعمل السِكّة المربوطة على عنقي في التِّلم الأخير: «بمثل هذا فحدّثْنا إذا قصدْنا الجنوب، فإنّ الطّريق الطويلة بالحديث الطّيّب تَقصُر، ألم تسمع قولَهم في الغابرين: أتحملُني أمْ أحملك؟». وأقرّ الشّيخ بكلامي وهو يمسحُ عرقه، وكان النّهار قد انتصفَ منذ زمن، وراح الزّوال يزول هو الآخر، والشّمس تستعدّ للمغيب. وجاء الشّيشانيّ آنئذٍ ونظر إلى الحقل فأعجبتْه حِراثتُنا، وقفز من الفرح، ومدّ إلينا المُدّ، وقال: «تستحقّونه عن جَدارة». فقلتُ له: «زِدْنا، فإنّا قد أجَدْنا». فنهرني، وقال: «الطمع من شِيَم الأنذال». فخجلتُ، وأقررتُ، وسكتَ الشّيخ على بهدلتي فكأنّه أقرّه هو الآخر على ذلك. ومضينا بعد أنْ شربْنا ماءً عذبًا من إحدى الأجران المنتشرة هناك.

وفي طريقنا كُنّا نرى الأفعى السّوداء من الإسفلت تتلوّى تحتنا، وهي تقذف بالمركبات الحديديّة إلى المجهول. وسألتُ

الشّيخ: «إلى أين يمضون؟». فقال: «لا أدري». فأردفتُ: «ونحن؟». «إلى الجنوب». إلى أيّ جهةٍ في الجنوب؟!». «الجنوب كلّه جهة، وهذا يكفي». فعلمتُ أنّ الشّيخ نسي اسم القرية، أو هو سيتذكّرها من الأطلال لا من الأسماء، ولكنْ من ينسى ابنته؟! وأردتُ أنْ أسأله عن اسمها للمرّة الثّالثة وأنا أعرفه، لأنّ موسيقاه لا تُقاوَم، ولكنّني عدلتُ إلى سؤال آخَر: «ما اسم أختك الّتي تركتَ عندها ابنتك؟». فردّ: «أَمِينة». وهمهمتُ: «أمينة... أمينة... اسم جميلٌ هو الآخر، أسماء الفلاّحين جميلة».

ولقيتْنا بعضُ الخِرائب في الطّريق فنمْنا فيها، ومررْنا على مساجد كثيرة في القُطرانة واللّجون، فحدّثَ الشّيخُ أهلَها، وأخذَ على عادته بعضَ كُتُبِها، وصلّيْنا مرّةً في مسجدٍ لم يجدْ فيه الشّيخ غيرَ كتاب (رياض الصّالحين) فتركه، فإنّه زادُ مَنْ لا زادَ له مِمّن أرادَ أنْ يُحدّث النّاسَ ولا شيءَ في عقله. وأكلْنا وشربْنا عند أهل الخير، وقد نَقَصَنا السّفرُ شيئًا من صِحّتنا رغم ذلك، وكان الشّيخ في اللّيالي يتذكّر عهد ابنته فيبكي وينوح كأنّه طفلٌ صغير!!

وقال الشّيخ: «ننعطف من هنا». فقلتُ له: «من هنا الكرك». فقال: «نعم، ولكنْ كيفَ عرفت؟!». فقلتُ: «إنّنا نحن جنس الحمير أكثر الخلق سِياحةً في الأرض، فما من بُقعةٍ أو بلدٍ أو نشزٍ أو غورٍ أو سهلٍ أو جبل إلاّ وباركْناه بأقدامنا، نحن أقدمُ من الإنسان على الأرض، ومَنْ يدري مَنْ يعيش بعدَ الآخر عليها، وإنّني كلّما مررتُ بجهةٍ من هذه الّتي يُسمّيها البشر الجغرافيّات شَمَمْتُ رائحة آبائي وأجدادي الّذين عملوا بصمتٍ وبجِدّ بعيدًا عن الضّجيج والبهرجة، فعلمتُ أنّنا قَدّمْنا لعِمارة الأرضِ، ولجعل الحياة فيها ممكنةً وطيّبة ما لم يُقدّمْه أحدٌ سِوانا مِمّن خَلَقه الله!». وتبسّم الشّيخ تبسُّم الرّضى.

وانعطفْنا يمينًا إلى الكرك، وكانت الجبال الجرداء تمتدّ أمامنا امتِداد البصر، والشّيخ في الظّهيرة قد أمال عِمامته على جبهته حتّى غطّتْ جزءًا من عينَيه، ونام فوق ظهري. ومضيتُ أهتدي الطّريق وحدي، فإنّه لا أعرفَ بالطّريق من الحمير!

وحلّ بنا مساءُ ليلةٍ في بلدة القيصر الرّوماني (هادريان) الّتي يُسمّيها النّاس اليوم (أَدَر)، وكان أذانُ العِشاء، فرأى الشّيخ أنْ نمضي إلى المسجد ففعلْنا، ورأينا ونحن في الطّريق خُوريًّا يلفّ

ذراعه حول ذِراع شيخٍ وهما يتبسّطان في الحديث ويضحكان، فسأل الشّيخ عليّ: «ما هذا؟». فقلتُ: «كان الخُوريّ عند الشّيخ يشرب الشّاي، ويذكران عهود آبائِهما وأجداهما المُشتركِين، فلمّا نادى المُؤذّن لصلاة العِشاء، قام الخوريّ فشيّع الشّيخ إلى المسجد، وسيدخل الشّيخ إلى مُصلاّه، وسيذهب الخوريّ إلى مُصلاّه، وكُلٌّ يغنّي على ليلاه، وما في القلب إلاّ الله»، وضحك الشّيخ، وضحكتُ معه، وأردف: «هل صِرتَ تعلم الغيب أيّها الحِمار؟!». «كلاّ يا سيّدي، ولكنّني مشروع مُخرج سينمائيّ يتخيّل المواقف ويحكيها، ولم أجد أُذُنًا صاغية أكثر من أذنك لكي أقول لها هذياناتي!!».

ودخلْنا المسجد، فإذا الشّيخ الّذي تأبّط ذراع الخوريّ هو الإمام، وإذا هو يقرأ في الرّكعة الأولى: «ولتجدنّ أقربهم مودّة للّذين آمنوا الّذين قالوا إنّا نصارى ذلك بأنّ منهم قِسّيسين ورُهبانًا وأنّهم لا يَستكبِرون».

وحَزَبنا الجوع والتّعب، فلم نسأل النّاس تعفُّفًا، وأوينا إلى بيت مُهدّم، نصفُ جداره الأماميّ قد حال رُكامًا، وحجارته تشهد أنّ الّذين سكنوا هنا كانوا قد عاشوا قبل أكثر من ألفَي

سنة. وكانتْ قناطر البيت من الداخل أيضًا قد أصابها التّلف، وانتشرتْ فيها الهوامّ، وحمدْنا الله أنّ الصّيف لم يأتِ بعدُ، وإلاّ أخرج البيتُ كلّ أفاعيه، وبثّ كلّ عقاربه لرطوبته، فأوينا إلى النّوم، وكان الشّيخ ينظر إلى السّقف وهو يرجفُ من الرّعب خوفَ أنْ يستسلم حجر قنطرة الرّكن فتتداعى حجارته فوقنا، فنندفن تحتها، ولكنّ الله سَلّم.

فلمّا صاح الدّيك، خرجْنا من القرية، وإذا آبارُها الّتي خفيتْ في اللّيل تظهر في الصّباح، فشربْنا من مائِها، بجِرار فخّاريّة مسّتْها يدُ الأباطرة، وكان لا فرق؛ الفَخّار لم يحفلْ بنا نحن المساكين ولا بهم أولئك القياصرة، فالّذي يشربُ الماء ذو روح، مثلنا تمامًا مهما تبدّلتْ ثيابه، وتزخرفتْ كراسيه المُذهّبة، والله جعل من الماء كلّ شيءٍ حيّ، ولم نكنْ نحن ولا هو إلاّ هذا الشّيء!!

ورآنا بعضُ أهلها فأشفق علينا، ومَدّنا ببعضِ الطّعام. ولمّا تركْناها خلفَنا سألتُ الشّيخ: «إلى أين فإنّكَ أتعبْتَني». فنهرني: «كسول». فأعدتُ: «لنْ نضرب في الأرض بلا غاية كأنّنا متسوّلون». فنهرني أكثر. فأعدتُ ثالثةً: «عَمّ تبحث؟». فردّ بخشوع: «عن نفسي».

ومررنا على القلعة، وهي يومئذٍ التّاريخُ في حجارة، والمجدُ في تُراب، وصلاحُ الدّين في ذكرى. وفلسطينُ في الشّرق. وأشفَينا عليها من شاهق. وصمتَ الشّيخ كأنّه في محراب صلاة، وخفض رأسه، وأغمض عينَيه، ورأيتُه يتلو بعضَ الصّلوات، فصنعتُ صنيعه.

ثُمّ مررنا على قُرًى داثِرة وأخرى ظاهرة لا أُحصي لها عَدًّا، والشّيخ كلّما مرّ ببيتٍ مهجورٍ سأل بصوتٍ مجروح: «هل فيكم أَمِينة؟». ولم أكنْ أرى إلا الهواء والفراغ في البيت، وخُيّل إليّ أنّ الشّيخ يهذي أو أنّه في طريقه إلى الجنون، أو أنّه يُدرّب نفسه على السّؤال الذّابح، أو أنّه يريدُ أنْ أرى ما كان هنا، أو ما كانه هذا المكان معه!! ولم أهتدِ إلى حقيقةِ ما يُريد الشّيخ، وشعرتُ يومئذٍ أنّه خابية أسرارٍ، وأنّه بِئر خفايا رغم أنّني صادقتُه كلّ هذه السّنين ظانًّا أنّني أعرفه أو أعرفُ نواياه، ولكنّ الشّيوخ خَطِرون، لا تحزر لهم نِيّة!!

ثُمّ إنّنا قرأنا في المتحف مِسلّة (ميشع)، ولّما وقفْنا بباب المتحف رفض الحارس أنْ يُدخلني، فلحستُ وجهه وطيّبْتُ خاطره فَقَبِل. وأنا أعرفُ كيفَ ألحسُ عقول النّاس، فالنّاس

البُسطاء مثلي تُرضيهم الكلمة الطّيّبة، والتّربيت على الكتف، والنّظرة العَطوف، واللّمسة الحَنون.

ودخلْنا قريةً يُقال لها دِمنة، ولم أدرِ إنْ كانت هي دِمنة الّتي عناها زهير بن أبي سُلمى في قوله:

أَمِــنْ أمّ أوفــى دِمــنــةٌ لـم تَـكَـلَّـمِ
بِـحَـوْمـانـة الــدّرّاجِ فـالـمُـتـثَـلّـمِ؟!

وسألتُ الشّيخ فلمْ يدرِ مثلي. ودخل الشّيخ دُكّانًا قديمًا، ورأيتُ فيه فلاّحًا قد جاوز السّبعين، وإذا هو يبيع الرّاحة والقضامة والسُّكّر والهريسة وبعض المُلبّس، فإذا وزن بعضَ القضامة للأولاد ودفعَ إليه الأولاد النّقود قرّبها حتّى كادتْ تُلامس عينَيه، وحدّق فيها دقيقةً قبل أنْ يعرفَ ما هي، أو يتأكّد أنّها ليستْ نقودًا رومانيّة أو بيزنطيّة، وأعادَ الفكّة بعدَ الوزن إلى الطّفل، وهو يقول له: «سلّم على أمّك». ومدّ الشّيخ يده ليُصافحه، فأخذ وقتًا حتّى عرف أنّ يد الشّيخ ممدودةً له، وعرّفه بنفسه: «أنا عليّ بن الحُسين». فأنكره الدّكنجي. فزاد الشّيخ: «كُنّا نحرثُ معًا أتلام ناصر بن حمود». فزمّ الدكنجيّ السبعينيّ شفتَيه. فلمّا قال له: «وأمّي صبحا بنت سالم» عرفه حينئذٍ

وصاح: «عليّ السّوكرجي!!». فانخرع الشّيخ، وأخفض رأسه، وهتف بصوتٍ مبحوح: «نعم هو، ولكنّنا تُبنا». وراح الدّكنجي يصيح: «أينَ غِبْتَ كلّ هذه السّنوات؟ قتلتَ زوجتَكَ وهربتَ؟ يا أخي ماشي، يقتل الواحد منّا زوجته، ويغيب سنة أو سنتين ويعود، مَنْ سيلحقكَ بالعَصا يا صديقي!! أمّا أنْ تغيب خمسين سنةً فأنتَ حِمار». ونهقتُ من ورائه، فضيّق الدّكنجي عينَيه، ولفّ من خلف طاولته وفتح ذراعَيه على اتّساعهما ثُمّ عانق الشّيخ وهو يقول: «ومعك حِمار». فردّ الشّيخ: «صديقي». فقال الدّكنجي: «إنّ الطّيور على أشكالها تقع». واستمرّا في العِناق، والهِياج، واستحضار الذّكريات الغابرة حتّى زهقتُ فنهقتُ، وصحت: «من دون دراما إذا سمحتُما، قلبي الصّغير لا يحتمل» وأنا أتظاهر بمسْح دموعي.

ثُمّ إنّنا أمّنّا طعام ذلك اليوم والشّرابَ والمَبيت، وسأل الشّيخ صديقه: «فما فعل الله بأختي أمينة؟». «ماتتْ منذ عشر سنواتٍ على الأقلّ». فسحّتْ دموع الشّيخ على خدّيه، ثُمّ تمالكَ نفسَه، وسأل وقلبُه يتقطّعُ خوفًا ورجاءً: «وابنتي مريم». «تزوّجتْ منذ أكثر من ثلاثين عامًا». «وأينَ تعيش؟». «مع زوجها». «أعرف، ولكنْ أينَ يسكُنُ زوجها؟». «سمعتُ أنّه طَفيليّ». «في أيّ

القُرى أو البلاد هو من تلك النّاحية؟». «وما أدراني، هل أنا الّذي زوَّجْتُها؛ اسألْ أباها». «وهل زوجُ أختي ما زال حَيًّا؟». «نعم». «وأينَ بيتُه؟». «لم يُغيّرْه، ولم يخرجْ منه».

وقصدْنا بيتَ أبي سُلطان، فاستقبلتْنا عريشة عنبٍ قد اخضرّت، وبقرةٍ قد اسبكرّتْ، وطرقْنا الباب، فلم يردّ أحدٌ، وكانت حجارة البيت تقول: «إنّه لا أحد». ولكنّ الشّيخ كان يريدُ جوابًا، ولم يقطع هذه المسافات كلّها، طَوال هذه الأسابيع ليحصل على لا شيء أو يعود بخُفَّيْ حُنين. ودفعتُ الباب بحوافري، وقلتُ للشّيخ: «تقدّم، فقد فاز باللّذّة الجَسور». ودخلْنا، فرأينا في صحنِ البيت رجلاً قد بُلّغ الثّمانين أو هو جازَها مُمدّدًا في فِراشٍ على الأرض، لا يظهر منه إلاّ رأسُه، وهو يشخر شخير الموت، ويأخذ قِسطه الأخير من هواء الحياة، وكانتْ له رائحةٌ كريهةٌ جِدًّا، هي رائحة البول والبُراز، وهتفتُ: «أينَ أولادُ أختك يا شيخ حتّى يحفظوا للرّجل شيخوخته؟». فقال: «وما أدراني إنْ كانتْ أختي قد أنجبتْ أم لا؟». وأزحْنا عن وجهه الغِطاء، ومسحْنا وجهه ببعض الماء، وانتظرْنا حتّى أفاقَ نِصفَ إفاقة، ولمّا رأى وجوهنا الغريبة وخاصّة وجهي ارتعب، فطمْأنه الشّيخ، وقصّ عليه قِصّته، وأنّه شقيق زوجته

المرحومة، ولكنّ الرّجل لم يستوعبْ شيئًا، وبدا أنّ الخَرَف قد أتى على أجزاء كثيرةٍ من دماغه، وبحثْنا عن الجزء المتبقّي من دماغه الّذي لم يُصبْه التّلف حتّى نحصل على إجاباتٍ لأسئلتنا: «أين تعيش مريم؟ مَنْ زوجُها؟ متى خرجتْ من هنا؟ هل لها أولاد؟». ولكنّه كان ينظر إلينا بعيونٍ تدور وتنوص في محاجرها كأنّه في عالَمٍ آخَر، ثُمّ إنّه غمغم بكلماتٍ لم نفهم منها شيئًا، ولا أدركْنا ما يقول. وهَزّه الشّيخ من أعطافه: «أين مريم؟». ولكنّه كان يفتح عينَيه ببطءٍ ويُغلقهما، وترتجّ شفتاه كأنّهما جناحا ذُبابة، وهو يشير بإصبعه إلى الباب، ويغمغمُ من جديد! ثُمّ إنّه هَمَد، ولم تبدُ منه حركة، وسألتُ الشّيخ: «هل...!!». ولم أُتِمّ السّؤال من الخوف.

وتركْناه دون أنْ نأخذ منه إجابةً، وخرجْنا فسألْنا الجارات، فما حصلْنا على إجابةٍ أَزْيَدَ من إجابة الدّكَنْجي. وتركنا الرّجل في مستقرّه الأخير يواجه الموت، فلمّا صرْنا في سهول أَدَر، صاح الشّيخ صياح المفجوعين: «يا مريم أينَ أنتِ؟ يا مريم هذا أبوكِ قد نَحَره النّدم، وقَتَلَه الشّوق لكي يراكِ... يا مريم... يا أبتي... يا حَبّة الفؤاد... ونور العينَين... يا مريم أينَ أنتِ يا ابنتي...؟!». واختنق صوتُ الشّيخ وهو يبكي، وأغمضتُ

عينَيّ، وبكيتُ معه... ثُمّ إنّنا مضينا والجَنوبُ غايتُنا، ومَنْ كان الجنوبُ غايتَه فقد اهتدى!

وخلوْنا في ليلةٍ صافية، كانت النّجوم فيها تقول أسرارًا لا تُقال لسِوانا، وكُنتُ أعرفُ اللّحظة المواتية الّتي أسال فيها الشّيخ أحاول أنْ أنبشَ على سِرٍّ لم يبُحْ به لأحدٍ من قبل، فيبوح به لي، وكان اللّيل سَلْوى المكروبين، ونجوى العُشّاق، وذكرى الهاربين من أنفسهم إليه، وكان اللّيل طبيبًا؛ يُداوي بلا دماء، ويشفي بلا دواء، ولكنّه يقول لكَ أشياء لم تقلْها شفة، وقول اللّيل أبلغُ الأقوال!

وسألتُ الشّيخ في تلك الخلوة: «لماذا لم تتزوّجْ بعد رحيل زوجتك وكنتَ ما تزال في مَيْعة الشّباب؟». فردّ: «لأنني أردت أن أعيش لله، ولله فقط، وأكفّر عن كلّ ذنوبي الّتي ارتكبتُها في حياتي». فحدجتُه بطرفِ عيني، فرأى نظرتي على ما تبقّى في ذُبالة المصباح من نور، وأردفتُ: «قُل غيرها يا شيخ فالجواب لا يبدو لي مُقنِعًا». فتنحنح، ثُمّ عدّل جِلْسَته، وقال: «لأنني أخاف أن أقتل زوجتي الجديدة». وشهقتُ، لكنّني رأيتُه صادِقًا، فقلتُ: «مُقنع... ولكن لماذا؟!». فقال: «لأنني كنت أحسّ أن

شهوة القتل رُكّبتْ فِيّ؟ وأنّ أصعبَ مرحلةٍ هي مرحلة القدرة على إنفاذ القتل الأوّل، فإنْ حدث ثارتْ من بعده النّفس اللّوّامة والخائفة والمُترقّبة، وعَلَتْ سَوْرة النّدم، فإنْ مرّ زمنٌ على ذلك فهدأتْ تلك الثّورة وخمدتْ تلك السَّوْرة، صار القتل من بعدها سَهْلاً». فَصِحتُ بدهشة: «هل قتلت بعد زوجتك وذلك الفلاح أحدًا آخر؟!». «لا يا حمار، ولكنّني شعرتُ بأنّ القتل صار سهلاً بالنسبة لي». «ولكن ألا يبرد مع الزمن؟ ألمْ تتخلّص من ذلك وُتنقِّ روحكَ منه؟!». «بلى». «فلماذا لم تتزوج إذًا؟». «لأنه لما بَرَدتْ شهوة القتل بَرَدتْ معه أشياء كثيرة». وصمتَ وقد بانتْ في حروفه الحسرة، فعاجلْتُه مُستطلِعًا: «تقصد شهوة النساء؟». «وهل هو غير ذلك يا حمار!!». ودمعتْ عيناي حُزنًا على شباب الشّيخ الضّائع، وقلت: «نَفَخَ الله فيك شهوة العودة إلى أحضان النساء يا شيخ». فردّ وهو يضحك ضحكةً خفيفةً كأنّما طاب له هذا الدّعاء: «استحِ يا حمار فأنا في السبعين، لعنة الله على أفكارك الشّيطانيّة».

لا أتخلّى عن رفيقي
من أجل عينَي امرأةٍ

ونمنا في الخرابات، وحدثَ أنّنا لم نُوفَّق إلى مبيتٍ في إحدى اللّيالي إلاّ في زريبة لأحد البدو، تسلّلْنا إليها خُفية دون أنْ يرانا، ونمنا فيها مع الماعز والتّيوس. وكانتْ رائحة البول تزكم أنوفنا. وفي اللّيل رأيتُ الشّيخ يتقلّب على جنبَيه، وهو يهذي: «يا مريم سامِحيني...». ولم تكنْ هناك من مريم فكيفَ لها أنْ تُسامحه؟! ولم أحزنْ على الشّيخ حُزني عليه في تلك اللّيلة.

ومررْنا على قرية بير أبو العلق، فإذا النّاسُ فيها كما خلقَهم الله أوّل مرّة؛ يعيشون في الكهوف، والمُغُر، والخِيام، وإذا كأنّهم مثلنا خارج التّاريخ، أو هم التّاريخ الّذي خارجه البشر، وإذا وجوههم تصف قسوة الحياة وشِدّتها، ولكنّهم كانوا أطيبَ النّاسِ قلوبًا، فأنزلونا فيها، وقام شيخُها فهيّأ لنا بيتًا من الشَّعْر مَدّ فيه الطُّنُب، وأعتدَ المُتّكأ، ونادَى في غلام له فذبحَ لنا شاةً، وطبختْها لنا ابنتُه، فلمّا أشرفتْ علينا تُقدّمه لَنا، صُعِقَ الشّيخ، ورأيتُ ذلك في حركاته، فلكزتُه بفمي، وسألتُه: «ماذا هُنالك؟». فردّ: «إنّها تُشبِه ابنتي». فغمزتُه مُستنكِرًا: «كيفَ تُشبه ابنتكَ وأنتَ تركتَها وعمرها سنتان؟!». فردّ كأنّني أفسدتُ عليه لذّة النّظر إلى وجه الصّبيّة: «إنّ لها عينَين كعينَيها، والعيون لا تكبر بكبر أصحابها». فشككتُ في قَوله، ووجّهتُ

إليه سؤالاً آخر: «وابنتك يُفترض أنْ يكون عمرها على الأقلّ أكثر من أربعين عامًا، وهذه الصّبيّة في أوائل العشرين!». فردّ: «إنّ النّساء اللّواتي يعِشْن في البادية يكُنّ أصغر من قريناتهنّ بعشرين سنةً على الأقلّ، وإنّ قلبي يقول إنّها هي». وشعرتُ أنّ قلبَ الشّيخ الفارغ سيُصدّق أنّ كلّ فتاةٍ عشرينيّة يراها ستكون ابنته، وحزنتُ لما آلتْ إليه حال الشّيخ. فلمّا حضر شيخ البير سألتُه من فوري: «أيّها المُعزّب الكريم هل هذه الصّبيّة الجميلةُ الّتي تميسُ في ثياب الدّلال ابنتك؟». فنظرَ إليّ مُحنقًا، وهتف: «من سوء الأدب أنْ تسأل». فبلعتُ لِساني. ثُمّ إنّني قُمت إلى الطّعام بصمتٍ فأكلتُ ما في الخِوان حتّى ملأتُ بطني، ثُمّ حلّيتُ بالشّعير الّذي في المعلف أمام بيت الشَّعْر فأتيتُ عليه بأكمله، ثُمّ دعوتُ بسطلِ ماءٍ من مياه الواحات العذبة فكَرَعْتُه عن أوّله، والشّيخان ينظران إليّ وهما لا يُصدّقان ما يَرَيان، ولم يَدْرِيا أنّ حماقَتهما هي الّتي أثارتْ حفيظتي، وحرّكتِ الجوع في معدتي، وأنّني ما فعلتُ ما فعلتُ إلاّ لأُداري غضبي، وأكتمَ غيظي. وظلّ في نفس الشّيخ عليّ شيءٌ من الصّبيّة مثلما ظلّ في نفس سيبويه شيءٌ من حَتّى. فلمّا مضى على مكوثنا في الضّيافة ثلاث ليالٍ، حُقّ له أنْ يسألنا ونسأله، فقال: «من أيّ البلاد أنتم؟». فقلنا: «من سُوف». فسأل: «من وادي العيون

إذًا؟». فأردفتُ: «والأنهار الجواري، والصّبايا الجواري». فضحك شيخ البير، وقال للشّيخ عليّ: «حمارك ظريف». ثُمّ حمّس القهوة في مِحماسه على النّار، وسقانا قهوةً مُزّةً شربْناها على ذِكر الشّعراء والأدباء، والحكايات والمُلَح. ثُمّ حامَ السّؤال في صدر الشّيخ كأنّه الإثم، وعرفتُ ذلك من قَلَقِه، وعدم ضَحِكه معنا كلّما سردْنا طُرفةً أو نكتة، فلكزتُه مُشجّعًا إيّاه على أنْ يقذف السّؤال في وجه الشّيخ ليرتاح، فحينئذٍ استند، وبلع رِيقه، وسأل: «صبيّتُكَ الّتي أنضجتْ لنا الطّعام أهي ابنتُك؟». وردّ شيخ البير بتأفّف كأنّما يريد أنْ يُنهي الحِوار عند هذه النُّقطة: «إنّها زوجتي». وصاح الشّيخ صيحةً سارعتُ إلى وضع جبهتي في فمه حتّى أُخمدها: «لا تفضحْنا يا رجل». وشعر شيخ البير أنّنا ضيوف ثِقال الظّلّ، وأنّنا نزعْنا السَّهْرة.

وفي الصّباح لم يكنْ لنا من حَلّ إلاّ أنْ نُغادر المكان بكرامتنا. وغادرْنا بالفعل مُتعجّلين نُسابق طُلُوع الصّباح، وفي الطّريق سألني الشّيخ: «إنّها زوجته، فمن المُحتمَل أنْ تكون ابنتي. لقد ضيّعْتَ منّا فرصةَ أنْ نجدها أيّها الحِمار». وأحسستُ أنّ فيها شتيمةً، فحرنتُ في الدّرب، ووقفتُ كأنّني نُحاسٌ مصبوب، وحاول الشّيخ أنْ يهمزني فما تحرّكتُ خُطوة. وقلتُ له: «إنْ كانتْ مرافقتي تُزعجك فَأَكْمِل الطّريق بنفسك». «إلى أين

ستذهب أيّها المجنون؟». «سأعود إلى سُوف، أو أمضي في طريقٍ أُخرى، فإنّ الصُّحبةَ إذا كانتْ على دَخَلٍ لم تُحتَمل، وإنّ الطّريق ونحن بهذه القلوب المُعكّرة لا يُمكن أنْ تُقطَع ولا أنْ تُطاق». فنزل من فوقي، وقبّل رأسي، واعتذر اعتذارًا لطيفًا، وقبلتُ عذره، فما أسرع أنْ نُسامح نحن الحمير! ومضينا.

ودَنَوْنا من (أَذْرُح)، وهي من القرى الّتي خدم فيها أجدادي البشر، ولها في القلب قطعةٌ لا تُرى ولكنّها تُحسّ، وسمعتُ فيها أربعة أصواتٍ ما تزال تحوم خالدةً في المكان لا يُخفِتها مرّ الدّهر؛ إنّها أصواتُ عليّ بن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سُفيان وأبي موسى الأشعريّ وعمرو بن العاص. ولا زالتْ طيوف الأربعة تختال هُناك. وشعرتُ بشيءٍ من القداسة؛ إنّ ترابها مختلف، وهواءَها مختلف، وناسَها مُختلِفون، وحجارتُها مختلفة، وإنّها طرفُ حوضِ مَنْ كان صديقًا للشّجر والحجر قبل أنْ يكون صديقًا للبشر، إنّها حوض النّبي الخاتَم. وأردتُ أنْ نبقَى أطولَ فترةٍ ممكنةٍ فيها، ولكنّ الرّياح تجري بما لا تشتهي السُّفُن.

وقال الشّيخ إنّه يعرف أبا عقيل في هذه النّواحي، وإنّه كان صديقًا مُشترَكًا بينه وبين أبي سُلطان، فسألْنا عنه، فقالوا إنّه في بعضِ حاجته الآن، ولكنّه إذا هبطَ خُفّاش اللّيل هبطَ

بيتَه، فسألْنا عن بيته حتّى دخلْناه، ففتحتْ لنا الباب صبيّة عشرينيّة، فلمعتْ عينا الشّيخ، وسألتُها حتّى لا يذهب الشّيخ بظنونه بعيدًا: «هل أنتِ ابنةُ أبي عقيل؟». فردّتْ: «نعم، فيا هلا بضيوفنا، وإنّ أبي ينتظركم». وسمعنا صوتَه من خلفنا يصيح: «مَنْ يا مريم؟» فخفق قلب شيخي، ولكزتُه: «لقد قالتْ لكَ إنّها ابنته، ففيم التّعلّق الفارغ هذا؟!». ثُمّ إنّ أبا عقيل قال لها: «خُذي الحِمار إلى الزّريبة واعلفيه... وأهلاً وسهلاً بضيفنا». وابتدرتْني فربّتَتْ على عنقي، فإذا كفُّها حرير، وخَدُّها خرير، وثوبُها حرير، وصوتُها حرير، ومَشْيُها حرير... ولكنّ الشّيخ قال: «بل يدخل معي». ولولا ما في قلبي من وفاء، لتركتُ هذه الفاتنة تقودني إلى الزّريبة واستمتعتُ بصُحبتها، ولكنّني لا أتخلّى عن رفيقي من أجل عينَي امرأةٍ مهما كانتْ ساحرة، فماذا سيقول النّاس عَنّا نحن الحمير؛ إنّنا سقطْنا في الامتِحان من أوّل نظرة؟! ودخلتُ مع الشّيخ الصّالون، وإنْ كان قلبي يتلفّتُ نحو مريم.

فلمّا جلسْنا، وأتتْنا كؤوس الشّاي ترقرق، وقد فاحَ عِطرُها، قال الشّيخ: «يا أبا عقيل...». فأوقفه أبو عقيل بإشارةٍ من يده: «تبيتُ عندنا ثلاث ليالٍ وبعدها تقول حاجتك... وأبشِرْ بما جئتَ من أجله ولو كان دونه عنقي». فردّ الشّيخ بتهذيب: «لولا طول

السّفر، وعجلة الغاية لكان ما تقول يا أبا عقيل، ولكنّني أعرّفك نفسي، وأرجو أنْ تسمح لي...». وسكتَ الشّيخ، وسكتَ أبو عقيل، فعرفَ أنّه قَبِل منه، فأكمل: «أنا صديقُ صديقِكِ أبي سُلطان». فضيّق أبو عقيل عينَيه يستطلع خُبر الشّيخ، لكنّه لم يهتدِ، فسأل: «مَنْ منهم؟». فردّ: «أنا عليّ بن الحُسين». فقهقه أبو عقيل وهو يُرجِع ظهره إلى الوراء: «السّوكرجيّ». فانزعج الشّيخ: «إنّ الله يقبل التّوبة ونحن البشر لا نقبلها يا أبا عقيل». فاعتذر: «كنتُ أمازحك». وهمستُ في أذن الشّيخ: «النّاس لا ينسون ماضيك المُخزي أيّها الشّيخ». فلكزني بكوعه وهو يشدّ على شفتَيه. وأكمل: «إنْ كان حدّثكَ أبو سلطان حديثي، فلا بُدّ أنّك...». «أعرف؛ قتلتَ امرأتَك. لا تحزنْ، لقد مرّ على ذلك زمنٌ طويل، والله غفورٌ رحيم». «ليس من أجل حكاية امرأتي جِئتُ، بل من أجل ابنتي... ابنتي مريم». وراحَ الشّيخُ يعُدّ على أصابعه، ثُمّ يرفع بصره إلى الشّيخ، ويقول: «إنّها تقترب من أربعين عامًا». «نعم». «فلماذا تبحثُ عنها الآن؟». «إنّها ابنتي يا أبا عقيل، وإنّني أريدُ أنْ أُمتّع عينَيّ برؤيتها ولو لمرّة واحدةٍ قبل أنْ أموت» وتهدّج صوتُه وهو يقول العبارة الأخيرة، فرقّ له قلبُ أبي عقيل، وقال: «قد سمعتُ من صديقي قصّة فتاةٍ يُمكن أنْ تكون ابنتك!». فتلهّفَ الشّيخ: «أكملْ». «لقد قال لي

إنّها من الرَّبَّة». فَقَلْقَلَتِ الكلمةُ الشّيخ: «إنّها من هناك». «وإنّها يتيمة». «إنّها كذلك». «وإنّ عمّتها زوّجَتْها من رجلٍ شمّريّ في بعضِ نواحي معان». فارتجّ جسدُ الشّيخ، وسمعتُ خَفَقات قلبه، وقال: «ومن يكون الشّمّريّ هذا؟». «لا أدري، ولكنْ إذا ذهبْتَ إلى شيخهم فإنّه سيدُلُّك».

وخرجْنا إلى مضارب شَمّر، فرحّب بنا شيخُها، وطافَ بنا على الّذين تزوّجوا من بنات الفلاّحين من أربعين سنةً واحِدًا واحِدًا فما عثرْنا على مريم بنت علي بن الحسين فيهنّ، وكأنّها لم تكنْ أو لم تُوجَد، أو لم تولَدْ من الأساس.

وقنِطَ الشّيخ قُنُوطًا رأيتُه فيه كما لو كان داءً وبيلاً، ودَخَلَه حُزنٌ ثقيل، وغَمٌّ طويل حَلاّ كلّ خليّة في جسده، وأُصيبَ على إثر ذلك بضعفٍ في البصر، فراحَ يتهدَّى الطّريق إذا مَشى، ومررْنا بعدها على أكثر من مئة قريةٍ وخربة ومَحلّةٍ نسأل عن مريم، فما اهتدَينا إليها.

وعُدْنا نجرّ أذيال الخيبة، وبِتْنا على قوارع الدّروب، ولم يعد الشّيخ يحفلْ بشيءٍ ممّا يُصيبه، وهزل جسده، ونَحُل، وزاغت نَظَراتُه، ولم يعدْ يأكلُ شيئًا، ولولا أنّني كنتُ أُرغِمه على الأكل بوضع الطّعام في فمه لمات من الجوع.

وكُنّا إذا بِتْنا في مسجدٍ أو أيّ مكانٍ يهذي طَوال اللّيل، ولا أدري ما أفعل به، وأرغمْتُه على أنْ نمرّ على مستشفًى في طريق عودتنا، فلمّا عاينه الطّبيب، قال لي: «أينَ أهلُه؟». فقلتُ له: «إنّني أهلُه». فقال لي بأسًى: «الشّيخ ميّتٌ، ولا يُرجَى شِفاؤه». فنهقتُ في وجهه نهيقًا غطّى بسببه أذنَيه، وهو يقول: «اخرجْ من هنا أيّها الحِمار». ورددتُ: «الموت لمن يُبشّر بالموت».

ووصلْنا إلى سُوف بعد شهورٍ طويلةٍ، والنّفَسُ يتردَّدُ ببطءٍ في صَدْر الشّيخ. وطلبَ منّي أوّل ما وصلْنا إلى سُوف أنْ ندخل المسجد، فلمّا صار على بابه نظر إلى التّابوت، وقال: «لقد حان أنْ أُحمَلَ فيه». فهدّأتُ من رَوعه، وحلّفتُه ألا يقول ذلك. وكان الوقتُ صلاةَ المغرب، فصلّينا في المسجد، ولم يقبل الشّيخ أنْ نعود إلى دارِنا، وأقسمَ عليّ ألاّ يخرج من هنا إلاّ على المحفّة.

ومكثْنا إلى صلاة العِشاء، وتجمّع أهل سُوف حول الشّيخ، وطلبْتُ منهم أنْ يُقنعوه بالذّهاب إلى بيته، فلمّا صِرْنا في بيته لم ينمْ، وجلستُ أحادثُه، وجعل يقول: «لقد كانتْ بضعةً منّي فكيفَ فرّطتُ فيها... إنّها أجمل طفلةٍ رأتْها عيناي... لقد كانتْ على وشكِ أنْ تقول لي بابا، ولكنّ الشّيطان أبى إلاّ أنْ يحرمني من ذلك... لقد كنتُ أتمنّى أنْ تكون لي بعدَ رحيلي ابنةٌ تتذكّر أباها البائس... حَقًّا يا لي منْ بائس!!». ولمّا أخذ منه التّعب

كلّ مأخذ نام، فسمعتُه في النّوم يهذي: «سامحيني يا مريم... لقد ظلمْتُكِ وظلمْتُ نفسي... سامحيني يا ابنتي». فلمّا طار غراب اللّيل، وأقبلَ وجه الصّباح، كان الشّيخ قد رحل عن هذه الفانية!!

مكتبة
t.me/t_pdf

مَقطوعٌ مِن شَجَرة

وحُمِلَ الشّيخ على ظهري إلى المسجد، وتلقّاه المُصلّون على الباب، فغسّلوه في المصطبة فوق الطّاولة الّتي على يمين الدّاخل، وكان جسدهُ نحيلاً جدًّا، وعودُه رقيقًا إلى الحدّ المُؤسف، وكانتْ شَعَراتُ صدره البيضاء تروح وتجيء مع كلّ إبريقٍ من الماء يُصبّ عليه وهو ساكنٌ تمامًا. وكانتْ عيناه مُسبلَتَين كأنّهما تحتجّان على هذا العالَم، ولا تُريدان أنْ تريا أحدًا. وكانتْ أصابع يديه رفيعة، قد غزا جِلدَها التّجاعيد والعروق السّمراء، وإصبع السّبّابة في الفجر شهد لله بالوحدانيّة وظلّ على شهادته، وأراد أهل القرية أنْ يُسبِلوه كبقيّة الأصابع، فمنعتُهم، وقلتُ: «يلقى الله على هذه الهيئة».

ولُفّ في الكفن الأبيض، الكفن الّذي اشتراه من راتبه قبل عشرين عامًا، وكان يقول لي: «إنْ مِتّ ففي هذا الكفن، فقد قرأتُ عليه القرآن كامِلاً». وطُيّب الكفن، ووُضِع الغار والحَنوط في عينَيه، وحُمِلَ إلى المقبرة، ووُضِعَتْ عِمامته فوقَ صدره كما أوصى، وكان التّابوت يهتزّ على أكتاف المُشيّعين فتهتزّ العِمامة معه، وهم يصعدون الطّريق إلى المقبرة الفوقا، ولم أتمالك نفسي حُزنًا على صاحبي، فارتختْ مفاصلي،

وانهمرتْ دموعي على خَدَّيَّ سَحّاحةً، وأخذتُ جانبًا من الطّريق، وبركتُ أرتاح قليلاً، فلمّا رأيتُ الجنازة تبتعد عنّي، حدّثتُ نفسي: «أفي هذا الموقف تضعُف وصاحِبُك يُساق إلى مثواه الأخير؟!». فقمتُ وتبعتُ الجنازة. فلمّا صرنا أمام الحفرة الّتي هي مُستقرّ كلّ حيّ، دعوتُ للشّيخ بقلبٍ مكلوم، وسألتُ الله له المغفرة عمّا سلف، والفردوس الأعلى من الجنّة. وأُهيل التّراب على الشّيخ، فكأنّه ما كان يومًا، ولا كان الّذي كان مِنّا، ولا أنّ روحًا دبّتْ على هذه الأرض.

رحلَ الشّيخ ورحلتْ معه كلّ أسراره! عاش غريبًا ومات غريبًا؛ فَقَدَ أهلَه ومُحبّيه، وانعزل عن النّاس، ورأى في الكون والتّأمّل فيه والسّياحة في ربوعه عزاءً، واتّخذ من الكتب وسيلةً للهروب من ماضيه المُؤلم، مات ولم يرَ ابنته، ولم يَدْرِ ما حلّ بمن كانتْ تربطه بهم رَحِم؛ مات مقطوعًا من كل شيء لا من شجرةٍ فحسب، ولم يجد في النهاية إلا حمارًا يتخذ منه صديقًا له. وأنا؟ مقطوعٌ مثله من شجرة، تخلّى عنّي أبي، وماتتْ أمّي وهي تحلم بأنْ تراني مختلِفًا. وأصبحت بعد الشيخ مثل الأرملة، فؤادٌ فارغ، وروحٌ ثكلى، وجسدٌ مذبوح، ولم يُبقِ لي

الشّيخ إلاّ الذّكرى، وكانت الذّكرى زادي فيما سيأتي من أيّام، ولولا ما تعلّمْتُه من الشّيخ لوقعتُ أنا في جُبّ الكآبة أيضًا، ولربّما حدّثتْني نفسي بالانتِحار، ولكنّ العِلم يَحمي، والتأمّل يحمي، والتفكّر في خلق الله يحمي، والسّياحة في الأرض تحمي، وتعاهُد الأشعار والأخبار يحمي. وبهذا وحده عشت، وليسَ بالخُبز وحده يحيا الخلق، ولكنْ بكلّ كلمةٍ من الرّوح القُدُس!

واصطفّ الناس على المقبرة يعزّونني. وقال أحدهم: «البقيّة في حياتك». فقلتُ: «لم تعدْ بقيّة في الحياةِ فأصلحْ عزاءَك». وقال ثانٍ: «سَلِمَ رأسُك». فقلتُ: «لم يسلم رأسُ سيّدي، ولا رأسي ولا رأسُك؛ فأصلِحْ عزاءَك». وقال ثالث: «تَجَلّدْ». فقلتُ: «ذهب الحُزنُ بالتّجلُّد». وقال رابع: «إنّ لله ما أعطى وله ما أخذ». فقلتُ: «أحسنَ الله عزاءك».

وذهبَ النّاس، وخَلَت المقبرة من كلّ ديّار، وبقيتُ وحدي، فدنوتُ من قبر الشّيخ، وقرأتُ على روحه الفاتحة، ثُمّ إنّني مكثتُ مِقدار ما يُنحَر الجَزور أؤنِسُه في وحشَته، وفي ليلته الأولى بين التّراب والدّود، وقلت: «أما والله قد كُنتَ بَرًّا بي،

فأسأل الله أنْ يكونَ برًّا بك، وقد فقّهتَني في الدّين والحياة والنّاس فأسأل الله أنْ يُثيبَك، وكنتَ صديقًا صَدوقًا فأسأل الله أنْ يكتبك في الصِّدّيقين، ولقد تجاوزتَ عنّي في مواطن كثيرة فأسأل الله أنْ يتجاوز عنك». ثُمّ لم أتمالك نفسي فانهمرتْ دموعي. فلمّا استعدتُ رباطةَ جأشي، أنشدتُ أبياتًا في رثائه، فقلت:

ذهبَ الكِرامُ وأوْدَتِ الأبرارُ
فالصُّبحُ ليلٌ، والدّروبُ قِفارُ
ولقدْ وقفتُ على تُرابِكَ خاشِعًا
والرّوح ثَكلى، والجوانحُ نارُ
ورأيتُ كيفَ الحِلمُ غُيّب كُلّهُ
لمّا أُهيلتْ فوقكَ الأحجارُ
والله يا شَيْخِي، وأُقسِمُ صادِقًا:
قَدْ أَظْلَمَتْ لَمَّا رَحَلْتَ الدّارُ
فَلَسَوْفَ أحفظُ طِيْبَ عَهْدِكَ ما مَشَى
فوقَ الدّروبِ الدّارِساتِ حِمارُ

وكانتْ أوّلَ ما قلتُ من الشّعر، والحُزن يغري بالقول،

والشّجَا يبعثُ الشّجا كما قال مالك، والمصائب تجمع المُصابين كما قال شوقي.

ثُمّ اختلفَ النّاس فِيّ كما اختلفوا في الحلاّج، وإنْ كنتُ لا أقول بالتّناسخ ولا أقول بالحلول والاتّحاد؛ فقال الّذين اشتروني: «نبيعُه». وقال آخَرون: «نستفيدُ منه في السّقاية أو الحِراثة». فردّ عليهم قوم: «عندنا حميرُنا، ولا نحتاجه». وقال ثالِثون: «نُطلِقه فيذهب يرتع في المراعي كما يُريد، فأرضُ الله واسعة، ولئن لم تَضِق بكلّ ما فيها من الحمير، أفتضيقُ بهذا الحِمار؟!». واحتجّ الّذين اشترَوني: «دفعْنا فيه المال، ونُبعثره؟! كلاّ». ثُمّ استقرّ رأيُهم على أنْ يدفعوا بي إلى أحدِ فلاّحيهم من الزّاهدين فِيّ. فدُفِعتُ إلى سَطّام بن أرحب، فأخذني من بيتِ الشّيخ، وأُطفِئت النّار في البيت، وحُلّ مربطي فيه، وهُجِرت الدّار فصارتْ بلقعًا بعد أنْ كانتْ عامرة، وكنتُ أزورها بين الحين والحين فأسمع حجارتها تبكي الرّاحلين، وتنوح على الشّيخ عليّ، كما لو أنّ عليًّا كان ابنَها!

وهكذا صِرتُ في بيت سطّام، فأهملني، وتركني في حاكورة بيته كأنّني أجرب، ومرّتْ عليّ ليالٍ شديدة، ولم يكنْ ينتبه إلى

إطعامي، ولا إلى إروائي، وكان يربطني بحبلٍ غليظٍ يمنعني من أجول في الحاكورة فآكلُ من خَشاشِها. وكنتُ أتذكّر أيّامي مع الشّيخ فأبكي، ويُوحشني فقدُه فأنوح. فأشدو خالِيًا:

سَقى اللهُ المَرابعَ مِن عَلِيّ
غياثَ القَطْرِ من رَبٍّ عَلِيّ

ولم يكنْ أحدٌ يسمع شدوي، ولا يشعر بي مخلوق، وانطفأ بريقُ عينَيّ ولمع فيهما الحُزن، «وأُفرِدْتُ إفرادَ البعير المُعبّدِ» كما قال طَرَفة.

وكان لسَطّام ولدٌ اسمُه دَحّام لا يتجاوز عمره خمسَ عشرةَ سنة، كان قد وجد تسليته فِيّ؛ فكان يتركُ المدرسة في الصّباح ويعود في التّاسعة فيركبني لينطلق إلى المنصورة، وهو يُوجِعني في الطّريق ضربًا ونَهْرًا وزعيقًا، ويصيح: «حاه... حاه...». وقلتُ: «ربّما لا يعرفُ قدري، ولا يُقدّر منزلتي، ولا يعرفُ قَدْرَ الكِرام إلاّ الكِرام، وهذا الغُلام جاهل، وكم من عالِمٍ قد سبّه مَنْ لا يُساوي غرزةً في نعلِه» كما قال الشّافعي فأخذتُه بالهَون، وتواضعتُ لكبريائه الجوفاء، وحملتُه حتّى أَحمِلَه على الشّكر، وأنكرتُ ذاتي من أجل أنْ يكون ولدًا طيّبًا فما أجدى فيه ذلك شِروى نَقير.

ومع أنّ الحِمار مَدَنِيٌّ بالطّبع كما قال ابن خلدون، إلاّ أنّني كنتُ أُفضّل العُزلة والانفراد جرّاء مُعاشرة هذا الصبيّ الجاهل لي، وكان يضربني بعصًا غليظةٍ على ظهري حتّى يسيل منّي الدّم، وانقشر جِلدي الرّماديّ الجميل لكثرة الهراوات، وبانتْ من تحته أنسجتي، وذُقتُ من الهوان ما لم أذقْه في حياتي وكنتُ العزيز المُكرّم عند حبيبي الشّيخ عليّ.

وأغرى مرّةً كُلَّ مَنْ هم على شاكِلته من أولاد المدرسة، فهربوا من الحصّة الثّانية، ودعاهم أنْ يأتي كلّ واحدٍ منهم بِحِمار أبيه أو جدّه أو جاره أو الشّارع إلى ساحة المنصورة وهي سهلٌ فسيح في أعلى سُوف، ونَظّمَ سِباقًا يحصل الفائز فيه على دينار، وكانوا عشرةً وضع كلٌّ منهم عشرة قروشٍ في كيسٍ عند حَمْدي، وتراهنوا على الفائز، ولمّا انطلقت الصّافرة من فم حمدي مُعلنةً بداية السّباق، أطلقتُ قوائمي للرّيح، وأردتُ أنْ أُسدي معروفًا لهذا الصّبيّ لعلّه يُقدّر، وقلتُ: «صُنع المعروف لا يحتاج إلى مُقابل». وشددتُ قوائمي مع هُزالي لقلّة ما كان يُقدّم لي من طعام، وبذلتُ غايةَ ما أستطيع، فسبقتُ الجميع، وفرح دَحّام فرحًا شديدًا، وكادَ يبكي بكلّ جوارحه لمّا تناول

الكيس وفيه مِئة قِرش، وقال للأولاد: «لا أحد يستطيع التّغلّب على دحّام» وراحَ يرقص ابتِهاجًا ونسيني تمامًا. ثُمّ إنّه لَمّا عادَ إلى القرية اشترى لنفسه ببعضِ ما فازَ به هريسةً وقُضامة، وأكلَها بتلذّذٍ، ولم يشترِ لي حفنةً واحدةً من الشّعير، وبِتُّ ليلتي تلك جائِعًا!

وشدّ عليّ ذات مرّةً يُريد أنْ يتنزّه في المغاسل، وهي ذات خُضرةٍ يانعة، وينابيع مُتفجّرة، وبساتين غَنّاء، فأكل من ثِمارها؛ من تُفّاحها وبرقوقها ومُشمُشها وحده، ولم يُعَنّ نفسه أنْ يُلقي لي حَبّة واحدة، ثُمّ ساقني بعصاه الّتي صرتُ أخافُ منها كلّما رأيتُها في يده، إلى (البركتَين)، وأراد أنْ يسبح، وأبوه لا يدري أنّه هاربٌ من المدرسة، فطاوعتُه لعلّه يرعوي، وبدتْ لنا (البركتين) بمائها الرّقراق وأشجار الصّفصاف العالية الّتي تنعكسُ على صفحتها كأنّها لوحةٌ فنّيّة ساحرة، وتذكّرتُ عهدي مع الشّيخ والسّباحة في إشتفينا، فتاقتْ نفسي إلى السّباحة، وقلتُ: «أُبرّد حرارة الصّيف القائظ بالانغِماس في الماء البارد، وأُريح جسدي المُتعرّق من السّفر المُضني». فخلع الولد ثِيابه، ورماها على الحجارة الرّومانيّة الّتي تُحيط بالبركتين، وقفز في

الماء منشغلاً عنّي كأنّني نَكِرة، وراح يشقّ الماء بذراعيه وساقَيه مهتاجًا مُبتهِجًا، وأنا أنظر إليه وأُمنّي نفسي بتجربة الشّعور إيّاه، ولم أكنْ أدري أيُغضِبه ذلك أمْ يُرضيه، فبقيتُ منكسر الخاطر أُراقبه، وفجأة غاصَ في الماء ولم يخرج، ثُمّ مرّتْ لحظات كأنّها دهور قبل أنْ يبدأ يخبط بيدَيه يمنيًا وشِمالاً وهو يصيح، فعرفتُ أنّه على وشك الغَرَق، فلم أنتظر حتّى أُسارِعَ إليه فأُنقِذه، فهبطتُ إلى الماء، وسبحتُ - وأنا السّباح الماهر - حتّى وصلتُ إليه وهو يبلع الماء ويُشفِي على الغَرَق، فانتشلتُه بفمي، وسبحتُ عائِدًا به إلى الشّاطِئ، حتّى أخرجتُه، ومدّدْتُه على الأرض، ونفختُ في فمه، فرشقَ ما شربَ من الماء واستيقظَ من غيبوبته، ففرحتُ لمّا رأيتُ النَّفَس قد عاد إليه، فلمّا وقعتْ عيناه عليّ توقّعتُ أنْ يشكرني، فشَتَمَني!! ثُمّ جفّفَتْه الشّمس، فقام فركبني، وقال: «حاااه... حاااه يا حمار..». وبدأتُ أُدركُ أنّه لا أنكرَ للمعروفِ مِن الإنسان!

وتساءلتُ: «ماذا يُعلّمونهم في المدرسة؟!». ثُمّ تذكّرتُ أنّه أخذ حَظّه من المدرسة كما أخذت الفراشة حَظّها من الصّخرة، وماذا تُفيد كثرة الماء إذا كانت الأرض ذات قِيعان لا تُنبِت!!

وخلا له الجوّ ذات مرّة، إذ ذهبَ أبوه وعائلته إلى خالٍ لهم في قريةٍ أخرى، ووجدَ نفسه معي وحيدًا، ولم يكنْ لديه ما يشغل به فراغَه لا في العقل ولا في الوقت، وصدقَ أبو العتاهية حين قال:

إنّ الشّبابَ والفراغَ والجِدَةْ
مَفْسدةٌ للمرءِ أيُّ مفسَدَة

فقام إليّ، ففكّ مربطي، وساقني إلى غرفةٍ مُطرفةٍ من غُرَف البيت، فتعجّبتُ مِمّا يفعل، وناداني بأعذب نِداء لم يكنْ ليتلفّظ به من قبل: «هَيّا يا حِماري العزيز!» فازداد عجَبي، فلمّا صرنا في الغرفة، تلفّتَ حوله وتأكّد أنّه لا أحدَ معنا، ثُمّ إنّه - وواخجلتاه - فَكّ سِرواله، وأخرجَ عُضوه، وهَمّ أنْ يعتليني من الخلف، فحينئذٍ فقدتُ كلّ ما في رأسي من صواب، وأدركتُ أنّ هذا الولد السّافل يحتاج إلى تأديب، وتركتُه ينزل سِرواله حتّى إذا هَمّ أنْ يقوم بفِعْلِته رفعتُ قوائمي الخلفيّة فرفستُه في موضع العَوْرة، فوقع على الأرض ينزفُ مغشيًّا عليه، ثُمّ إنّني هممتُ بأنْ أعضّه، أو أرفسه في وجهه فأطير له أسنانه كلّها، لكنّني تراجعتُ، وقلتُ: «يكفيه هذا التّأديب». ولا أشكّ في

أنّه فقد رجولته وأُخصِي في تلك الرّفسة، وعلى نفسِها جنتْ براقش.

ثُمّ إنّني قلت: «لا أقيم عند هؤلاء الأوغاد». وتركتُهم غيرَ آسفٍ. ومضيتُ خارجَ سوف، وقلتُ لا أقيم في قريةٍ أهلُها فيهم هذا الخبيث، ورحتُ أفكّر فيما أصنع في حياتي المُستقبليّة، وأنا يومئذٍ لي من العُمر والتّجربة ما يكفي أنْ أختار، والخير ما اختاره الله.

حزبُ الحمير؛ يَدُ الله مَعَ الجَماعة

وعَدَوْتُ حتّى صرتُ في شارع الأعمدة في جرش، فنزلتُ شلالاتٍ صغيرةً هُناك فأرحتُ في ظلّ خُضرتها، وبرودة مائها أُفكّر فيما أصنع، وكُنت حينَها أحمل قلبًا يهزأ بكلّ شيءٍ، ويتوق إلى كل شيء، وأنا يومئذٍ أُفكّر كيفَ أغيّر التّاريخ؛ تاريخ الحمير على الأقلّ، أو كيفَ أصنع شيئًا يكون ذِكْرًا لأحفادي من بعدي، «فالذِّكر للإنسان عُمرٌ ثانٍ» كما قال شوقي، فكيفَ إذا كان للأَحْمِرة؟ فإنّه سيكونُ مُضاعَفًا!

وقلتُ في نفسي وأنا مُضطجعٍ ظُهر ذلك اليوم في ذلك الظّلّ: «إنّ الحبيب قال يَدُ الله معَ الجَماعة» وأدرتُ الفِكرةَ في رأسي، وهل من قُـوّةٍ إلاّ في الجماعة؟ وهمستُ: «أنا قليلٌ بنفسي كثيرٌ بإخواني». وبدأت الفِكرةُ تختمر، وقلتُ: «حُقوقنا مَهضومة، وأفضالُنا مَنكورة، وحياتنا مَظلومة، ودماؤنا مَهدورة... وإذًا لا بُدّ من تأسيسه!!». ونهضتُ على أقدامي، ورحـتُ أعـدو كالغزال في كلّ اتّجاه، وأنـا أصيح مبتهجًا: «مَرْحى... مَرْحى...» ونهقتُ نهيقًا مُتواصِلاً حتّى أيقظ نهيقي الثّعالب في جحورها، وأطار الحَجَل من أعشاشها، وهيّج السّاكنين في دُورهم، وصرختُ بأعلى صوتي: « يحيا الذّكاء... ولّى عهد الاضطِهاد... أيّها العالَم فلْتَشْهد ولتستقبلْ حزبًا ليس كأيّ حزب.. إنّه حزب الحمير».

وبـدأتُ على الفَور من لحظتي، أفكّر كيف أقنع الحمير بالانضِمام إليه، وأين سيكون المقرّ الرّئيسيّ له، ومَنْ سيكون أمينه العامّ، ومَنْ سيكتب بيان الحزب الأوّل، ومَنْ سيتلوه، وأيـنَ؟ ومَنْ سيشهده، هل ندعو الـوزراء والأمـراء والنّوّاب لحضور حفل التّأسيس أم نكتفي بأنفسنا؟ هل نطلب من الشّعراء والرّوائيّين أنْ يكتبوا لنا قصائد ومقطوعات في يوم التّأسيس لامتداح الفِكرة الخَلاّقة؟ وقلتُ: «ليت في الشّعراء العرب مثل الشّاعر الكُردي نالي الّذي مجّدنا في قصيدة من أروع قصائده». وتتابعتْ تساؤلاتي: من أينَ سنحصل على تمويلٍ لضمان استمراريّته؟ وهل سنقبل فيه نساء الحمير من الأُتُن الجميلات، والشّابّات الوسيمات؟ وكيف نضبط العلاقة الجنسيّة مع الآخَر؟ وكيف نضبط الصّرف الماليّ؟ وهل نقبل الجنسيّات الأخرى أو الحمير الآخرين في شتّى أصقاع الأرض؟ أمْ نبدأ بحمير الأردنّ ثُمّ بعد ذلك يكون لكلّ حادثةٍ حديث؟ وهل نقبل عُضويّة البشر في الحزب أمْ نستغني عنهم، فلدينا ما يكفي من الحمير؟ ودارتْ ببالي مئات الأفكار والخواطر والهواجس حول الحزب. ولكنْ مع ذلك قلت: «مَنْ قال دون أنْ يفعل فكأنّما فَسَا أو سَلَحَ على نفسه، والميدان لحميدان... وهَيّا إلى العمل».

ومضيتُ إلى قُرى جرش أوّل الدّعوة؛ فالأقربون أولى بالمعروف، وابدأ بِمَنْ تَعُول كما قال الحبيب، فدعوتُ حميرها إلى الفِكرة، وبيّنْتُ لهم ما نويتُ على صُنعه، فمنهم من استجاب من أوّل الأمر، ومنهم مَنْ تردّد، ومنهم مَنْ خافَ بسبب مالِكه والعُبوديّة الّتي اسْتَمْرأها، ومنهم مَنْ شتمني وقال: «صحيح أنّك حِمار!!». ومنهم مَنْ قال: «ألمْ يبعثِ الله إلينا حِمارًا غيرَك؟». ومنهم مَنْ نعتني بالجنون وبأنّني أفكّر كما يُفكّر البشر! ومنهم من قال: «لولا أنّكَ أخي في الحَمِيْريّة لعلوتُكَ بحوافري». ومنهم من ضحك حتّى استلقى على قَفاه ورِجلاه تدوران في الهواء، ومنهم من طَرَدني، ومنهم من قال: «لو جئتني طالبًا يد ابنتي لأجبتُكَ إلى طلبك، أمّا أنْ أنضمّ إلى مثل هذه التُّرّهات فلا». ولم أحزنْ، ولم أيأس، ولم أقنط، ولم أتراجَع، وقلتُ في نفسي: «على أيّة حال لو استجاب لندائي هذا عُشر الّذين دعوتُهم أو حتّى أقلّ من ذلك لكُنّا أكبر حزبٍ في العالَم...!!». وفكّرتُ أكثر: «نحن لسنا حزبًا يمينيًّا ولا يساريًّا، ولهذا ستكون لنا الحُظوة بانضِمام أكبر عدد ممكن من الحمير». ورحتُ أواصل اللّيل بالنّهار وأنا أبشّر بمبادِئ الحزب الّتي ستُحقّق العدالة في الأرض!

وتَبِعني عددٌ كبيرٌ من الحمير رغم المُعارضات الأولى،

وقلتُ لهم: «الحقوا بي إلى العاصمة، فإنْ لم نبدأ ضربتَنا من هُناك فعلى الأقلّ في أطرافِها». ومضَيْنا، وكلّما قطعْنا ميلاً أو اثنَين انضمّ إلى حزبنا عددٌ جديد من الحمير الّتي ثارتْ على اضطهاد أصحابِها لها، أو الّذين قاموا بتحميلهم أضعافَ أضعاف طاقتهم، أو أولئك الّذين مات أصحابهم مثلي، أو تُركوا في البرّيّة دون مالكٍ أو راعٍ، وقلت: «نرعى أنفُسَنا بأنفسِنا. وليذهبْ مجتمع الظَّلَمة إلى الجحيم، وأنا ثُمّ العالَم من بعدي». وفكّرتُ أنْ أجعل العبارة الأخيرة أوّل شعارات الحِزب، لِما فيها من الأنفة وحِماية الـذّات، فلا بُدّ من أنْ أُحصّن أتباعي من التّغوّل عليهم من ذوي السّلطة الغاشمة، أو الأيادي الجاهلة المِبطاش، أو أصحاب النّفوذ الأغبياء.

وكانَ عددٌ من الحمير يسألني في الطّريق: «اتّبعْناكَ دون أن نسألك؛ فما لنا؟». فقلتُ لهم: «الجنّة إنْ شاء الله». فقالوا لي: «وهذا العالَم الظّالم الّذي يُجشّمنا العَناء ويسومَنا سوء العذاب كلّ يوم دون أنْ يرحمنا؟». فقلتُ: «هؤلاء إلى زوال وديارهم إلى خَراب، وأنتم أبقَى منهم، ألمْ تسمعوا قول ابن خلدون: الظُّلْمُ مُؤذنٌ بخراب العُمران». وكان بعضُهم يُصدّق وكثيرون لا يُصدّقون، ولم يكنْ لديّ مالٌ مثل معاوية أستميل به أتباعي، ولا سيفٌ مثل الحجّاج أُرهبهم به، وأقتلُ مَنْ يُخالفني

أو يخرج عن أمري، ولكنْ كان لديّ القولُ الطّيّب، والفِكرة النّبيلة، والمنطق السّليم، «فمن شاء فليُؤمن ومَنْ شاء فلْيكفُرْ».

ولمّا وصلْنا إلى صويلح، كان عددُنا قد جاوز الألف حِمار، وكان ذلك علامةً على ثِقَل الظُّلم الّذي وقع عليهم، فكلّما ازداد عددُ أتباعك الّذين يستقطبهم شِعار العَدالة؛ فمعنى ذلك أنّهم يرزحون بشكلٍ أكبر تحت نِيْر الظُّلم!

ولمّا تجمّعْنا في دوّار صويلح، استرجعتُ ذِكرى الشّيخ عليّ وقوله: «لا أبيعه بوزنه ذهبًا» فحننتُ إليه، كما حنّ القُشَيريّ إلى رَيّا في قوله:

حَنَنْتَ إلى رَيّـا ونفْسُكَ باعدَتْ
مَـزارَكَ مِـنْ رَيّـا وشِعْباكُما مَعا

واستعبرتُ كما استعبر جَرير في قوله:

لـولا الـحَـيـاءُ لهاجني استِـعْـبـارُ
ولَـــزُرتُ قـبـرك والـحـبـيـبُ يُـزارُ

ولكنّني تجلّدتُ كما تجلّدَ أبوذؤيب الهُذَليّ في قوله:

وَتَـجَـلُّـدي لـلـشّـامِـتيـن أُريـهُـمُ
أنّـي لـرَيـبِ الـدّهـر لا أتضعضعُ

ثُمّ قلتُ لأتباعي: «إنّ هذا الميدان مكتظّ، وإنّنا سنعطّل حركة السَّيْر إنْ أقمْنا فيه اجتماعَنا الأوّل، وإنّنا نحرص على مصالح النّاس أكثر مِمّا تحرصُ عليها الدّولة، فاتبعوني إلى ياجوز، فإنّ فيها سُهُولاً فِساحًا كلّما رأتْنا رَحّبَتْ بنا. ومضيتُ بهم إلى هناك والحمير في الطّريق تتبعني ويتضخّم عددها مع تطاول الدّرب، حتّى بدتْ لنا هِضاب ياجوز من بعيد، فأتبعَ بعضُنا بعضًا، فلمّا وصلتُ إلى شجرة البُطم العتيقة الّتي دُفِنَ تحتها نمر بن عدوان، وقفتُ على قبره، وقرأتُ لروحه الفاتحة، وأشهدتُ الله أنّه لو كان حَيًّا لقبّلتُ رأسه، فإنّه علّمني كيفَ يكون الحبّ. وانتظرتُ حتّى أصقبتْ إليّ كلّ الحمير، ووفدتْ إليّ النُّخَّة من كلّ مكان، وكان عددها قد فاق الآلاف الثّلاثة. فعلوتُ صخرةً في المكان أستطلعُ الأتباع فإذا هُمّ مَدّ البَصر، وإذا هم من أجمل خَلْقِ الله هيئةً، ودخلني الزّهو بهذا التّلاحم الشّعوريّ الطّافح، ولم يكنْ من شيءٍ ليُفرّقهم أو ليغلبهم يومئذٍ إلاّ أنْ يحسدهم مَنْ يراهم، وتذكّرتُ قولَ يعقوب لأبنائه: «لا تدخلوا من بابٍ واحدٍ». ووقفتُ بينهم يومئذٍ خطيبًا، كما وقفَ

قُسّ بن ساعدة، وقلت:

«الأرضُ لا تُبنَى إلاّ بالعمل، ولا عملَ يُثمِر إلاّ بإخلاص، وإنّه إذا فُقِدَ الإخلاص فُقِدت الثّمرة، ولسوفَ تلقَون من عَسْفِ البشر ما يدلّ على أنّ الظّلم غريزةٌ مركوزةٌ فيهم، فاصبروا واحتسِبوا، واتركوا مقالة الشّانئين، وأنجِزوا لهذه الأرض ما لم يُنجِزه أحدٌ، وتواضَعوا حتّى لا يُعرَف منكم السّيّد من العبد كما قال العرندس:

هَيْنُونَ لَيْنُونَ أَيْسارٌ ذوو يُسُرٍ
سُوّاسُ مكرُمةٍ، أبناءُ أيْسارِ
مَنْ تلقَ منهم تَقُلْ لاقيتُ سيّدَهُمْ
مِثلُ النُّجومِ الّتي يَسْرِي بِها السّاري

وكونوا الأوطأ أكنافًا تُحَبّوا. ولو تحلّى البشر ببعضِ صِفاتكم لغيّروا العالَم، ولجرى نهرُ المودّة بينهم فما أكل بعضُهم بعضًا، ولا شرب بعضُهم دمَ بعضٍ. وإنّنا سنلقَى العنت ونحن صامِتون فلا تحسبوا ذلك ضعةً ولا ضعفًا، وإنّما هو صبرٌ وتعفّف، وهو في ميزان الله عظيم، والله الّذي خلقَ كلّ شيءٍ يعرفُ منزلةَ كلّ عبدٍ عنده بما أعطى ووهب، لا بما أخذ وسلب. ونحن

لا نطمع إلى قِيادة البِلاد ولا أنْ نكون مُلوكًا؛ فالملوك أشقى النّاس، ولكنّنا نطمع أنْ تسود روح المحبّة والتّعاون والرّضا، وأنْ يقضي الفرد عُمره مرتاحًا شاكِرًا أنعُم الله مهما حاقَ به حتّى يأتيه وعدُ الله وهو كذلك، ولو رأى النّاس عمَلَنا وعملَ الملوك لتمنّوا أنّ نكون نحن المُلوك، ونحن مَنْ يتولّى سياسة الدُّول، ولكنّ أحد شعاراتنا الّتي ستشكّل سيرورة أعمالنا أنّ الملك مَنْ لا يعرفُ الملك! ولن نذهب إلى قول الحاقدين الّذين يَفُوهُون بما لا يعملون حين قال شاعرهم الجاهل:

ولـو لَـبِـسَ الـحِـمـارُ ثِـيـابَ خَـزٍّ
لقال الـنّـاسُ يـا لـكَ مِـنْ حِـمـارِ!!

ولكنْ نقول:

وَمـا عَـرَفَ الـمُـلُـوكُ كَـمـا عَـرَفْـنَـا
ألا لَـيـتَ الـحَـمِـيْـرَ هُـمُ الـمُـلـوكُ!

وإنّني سأذهب إلى الأمور الإجرائيّة حتّى أكون واضِحًا معكم؛ فإنّ مَنْ صدقَ قومَه صَدقُوه، سنؤّسس مملكة الحمير في هذه الأرض الخَلاء العامرة بالغابات (ياجوز)، حتّى لا

نُزاحِم البشر على مواضع سُكناهم فإنّنا أكثر خَلْق الله زُهدًا بِعَرَضِ الدُّنيا، أمّا بالنّسبة لمشكلة الطّعام فإنّ الدّواب تجد ما تأكل وما تشرب، فهذه ليستْ مشكلةً تستدعي منّا أنْ نُفكّر بها، وإنّ الله يرزق النّملة في جُحرها أفلا يرزقنا نحن؟ وإنّ أحراشَ ياجوز كفيلةٌ بأنْ تُطعِمنا وتُطعِمَ أبناءَنا وأحفادَنا إلى يوم الدّين. وأمّا بالنّسبة للتّناسل والتّكاثر، فإنّني سأعقد محكمةً للتّزاوج، ولن يُزوَّجَ فيها إلاّ الأكفياء القادرون على القِيام بأعباء الأسرة، فنحن لسنا بشرًا نُنجِب وننسى، ونهربُ عند أوّل مسؤوليّة تُواجهنا. وأمّا المبيت، فهنا في ياجوز، وفي أيّ مكانٍ آمن، فإنّ الأرضَ لله. وأمّا إدارة شؤون الدّولة، فسننتخب هيئةً إداريّة للحزب تُشرف على أمراء الولايات في بقاع المعمور من الأردنّ.

ونصيحةٌ أخيرة، لا تُدقّقوا على كلّ أمر، وتنشغلوا بكلّ طارِئ، فإنّ التّغافُل دواء والمماحكة داء، وإنّ قلّة السّؤال أبرأ للفؤاد وكثرته شقاء. ولِينوا في أيدي إخوانكم حتّى يقضي الله أمرًا كان مفعولاً».

ثُـمّ إنّني نزلتُ عن الصّخرة والحمير تهتفُ بحياتي، وأصواتُها تملأ الفَضاء، وتجوز طبقات السّماء: (أبو صابر... أبو صابر...).

وبدأ عهدٌ جديد؛ وتداعتْ للانضِمام إلى حزب الحميرِ الحميرُ من كلّ مكانٍ في الشّمال والجَنوب. وخلال فترةٍ وجيزةٍ سمعتْ حمير العالم بما فعلته حمير الأردن فودّتْ لو أنها تصنع الصنيع ذاته الّذي صنعناه، وإنّ الإرادة لقادرةٌ على أنْ تُقيمهم مقامَنا أو أفضلَ منه؛ فابدؤوا يا إخوتي!

وأقمنا غـداءً جماعيًّا بتلك المُناسبة، وبعد أنْ استرحْنا قليلاً، تداعَينا لانتخاب الهيئة الإداريّة، فرشّحني القوم أمينًا عامًّا للحزب، لا لأنّني أفضل الحمير، فذلك شَرَفٌ لا أدّعيه؛ ولكنْ لأنّني بدأتُ الفِكرة، فقبلتُ رغم زُهدي بكلّ منصب، واختارت الحمير: (الدَّوْبل) نائبًا للرّئيس، و(البُهْصُل) أمينًا للسّرّ، و(الفَـرا) أمينًا للصُّندوق، و(التّولب) و(الجلعد) و(الزِّهلق) أعضاء رئيسيّين، و(الصّنادل) و(القِلْو) و(القَنادل) أعضاء احتِياط.

وقامَ كلّ فردٍ بدوره أتمّ قِيام، ولم يشكُ أحدٌ من كثرةِ العمل، فإنّه لا أحدَ أجبرهم أنْ يقبلوا بمناصبهم، وسبقَ الفِعلُ القولَ فعاشت الحمير مع حِزبها ومملكتها أحسنَ عِيْشة، ولم تنسَ أنْ تُحسِنَ إلى خَلْقِ الله بمن فيهم الإنسان ولو أنّه جاحدٌ، لأنّ من

أهمّ المبادئ الّتي قام عليها الحِزبُ هو إنكار الذّات.

ولمّا فشا أمرُنا في بقيّة الولايات، واستنار بهدْينا حُمُرٌ من كلّ مكان، أطلقْنا شعار: «يا حمير العالَم اتّحدوا». وفَعَلَ الشِّعارُ في الحمير فِعْلَ السّحر، فتأسّستْ ممالك في كل أصقاع الأرض، وبدأ عهد الحمير، وعاش النّاس في بُلَهنية، وكانوا يظنّون أنّ عهد الرّخاء جاء عفوًا، وما دَرَوا أنّه ما تحقّق إلاّ بالتّعب والكدّ، فالّذين أكلوا ثمرةَ الجوز لم يدروا مَنْ غرسَ الشّجرة ولا مَنْ سَقاها!

وكان (الدّوبل) شابًّا واعِدًا وفكّرتُ من البداية كيفَ أُهيّئه ليخلفني بعد أنْ أؤدّي مهمّتي وأحدّد العلاقات وأضبط الأمور، وصَحِبْتُه أربع سنين، علّمْتُه كلّ ما تعلّمتُ، فلمّا استنار قلبُه بنور المعرفة، دعوتُ إلى اجتِماعٍ لأعضاء الهيئة العامّة لحزب الحمير، في موطننا الأوّل في ياجوز، وقدّمتُ استِقالتي ليخلفني (الدّوبل) فإنّه قد صار قمينًا بهذه المهمّة الشّاقّة. واحتجّ على استقالتي عددٌ كبيرٌ من الحمير، وطالبوا بأنْ أستمرّ في المنصب، وخافَ بعضُهم على الفِكرة أنْ تنهار، وما دَرَوا أنّ الفِكرة أكبر من الأشخاص، وأنّها لا تموت بموتهم

ولا برحيلهم ولا حتّى بكُفرهم بها، وقال بعضُهم: «لمن تتركُنا بعدَك، إنّنا سنصبح أيتامًا». فنهرْتُهم وقلتُ لهم: «إنّ طول عهدكم بالبشر نقلَ إليكم أسوأ صِفاتهم من صناعتهم للطُّغاة، وقبولهم بالعبوديّة». وأصررتُ على الاستِقالة، فأنا لستُ مثل الزّعماء العرب ولا مثل الحُكّام الشّموليّين الذين يلتصقون بالكرسيّ ولا يتركونه ولو أهلكوا ثلاثة أرباع شعبهم، ولا يُمكن أن يغادروا منصبهم إلا بواحدة من اثنتين؛ عزرائيل أو أمريكا. أنا جئت لأخدم شعبي، لكنني لست وحدي في ذلك، أنا حلقة في سلسلة، أترك مكاني للشّباب الطّامحين، والقادة الجُدُد حالَما ينتهي عَقْدي الاجتماعيّ مع حميري! ولو كان الأمر بيدي ما حكمتُ أكثر مما حَكَم أبو بكر الصّدّيق أو عمر بن عبد العزيز.

وتمّ لي ما أردتُ، وصار (الدّوبل) أمينًا عامًّا للحزب، واستأمنتُه على إخوته، وقلتُ له: «لا تهدمْ ما بنَينا بجشعٍ أو طمعٍ أو انفرادٍ بالسُّلطة، وأَحِطْ نفسكَ بالصّادقين لا المُنافقين». ونصحتُ الهيئة الإداريّة أنْ تُشكّل مجلسًا تُسمّيه: (قادة المستقبل)، يدخلون دروس الفلسفة والحِكمة والمعرفة

وإعـداد القادة على طريقة أفلاطون في جمهوريّته، حتّى لا يكون الحُكمُ دُوْلة بين الأغنياء أو أصحاب العائلة الواحدة. واستجابت الهيئة لنصيحتي، ومن يومئذٍ لم يحكم حمارٌ أكثرَ من أربع سنوات، وكان يحلّ مكانه الأكفأ من الّذين تمّ تدريبهم من قبلُ. ولقد عمّ الرّخاء، وانتشر الأمن، وسادَ العدل. وأنا؟ تفرّغتُ لأعرفَ أكثر، وأرى أكثر، وأعيشَ حياتي الخاصّة بعد أنْ أدّيتُ واجبي!

مكتبة
t.me/t_pdf

مَنْ وجدَ عِشقَه
فلْيؤجّلْ صَلاتَه

وأردتُ أنْ أعيشَ عامًا من العُزلة الاختِياريّة لكي أحفر عميقًا في ذاتي، ولكي أُعطي نفسي فرصةً أوسع للتّأمّل، وخرجتُ من ياجوز، وعدتُ إلى سُوف، وتركتُ بُيُوتاتها القديمة وتلك الّتي نشأتْ حديثًا، وانتحيتُ جانِبًا من جبالِها، حيثُ يُمكن للواحد أنْ يكون قريبًا من الله بعيدًا عن نفسِه، واتّخذتُ لي مَعبدًا أستذكر فيه كلّ ما تعلّمْتُه وخبرته في حياتي. ومررتُ وأنا أصعد باتّجاه الجبل على المقبرة الفوقا، وبدت المقبرة من بعيدٍ مكانًا حقيقيًّا في عالَم مُزيّف، وبدتْ شواهدها كأنّها أيدي الّذين من تحتها تُشير للّذين هم من فوقها أنْ هَلُمّوا إليّ، فإنّ بقاءكم في دار الفناء قصير. ووقفتُ أمام قبر الشّيخ عليّ طويلاً، وتذاكرتُ عهوده الخضراء، وأيّامه الجميلة، فبكيتُ، وقرأتُ على روحه الفاتحة، ودعوتُ له كثيرًا، ثُمّ إنّني صعدتُ إلى القِمّة.

وكنتُ أصومُ النّهارات الكثيرة، وأقوم اللّيالي الطّويلة، وأتنسّك الشّهور المتتالية في مقامي الّذي أقمتُه على مسافةٍ قريبةٍ من مقام ابن الأدهم. وكان الصّوم يُصفّي ذهني، ويُريني في جُوعي ما لا أراه في شِبَعي. وذات مرّة وأنا أنظر إلى الوادي الّذي يصعد باتّجاه الجبل رأيتُ أتانًا قادمةً نحوي، وهي تغذّ السّير، فتحرّك في قلبي شعورٌ غامضٌ كأنّه قادمٌ من سنين بعيدة

جدًّا، فكذّبتُه ونفضتُ رأسي فزالتْ صورة تلك الأتان الجميلة، فقلتُ: «لا بُدّ أنّني أتخيّل». ثُمّ إنّني عُدتُ إلى تأمّلاتي ثانية، فإذا بتلك الأتان الفاتنة ما زالتْ تصعد الوادي إليّ، فقلتُ: «إنّه الشّيطان يريد أنْ يصرفني عن تفرّغي للعِبادة». وعدتُ إلى صلواتي فاختفت الأتان، ثُمّ ظهرتْ ثالثةً، فشككتُ أنّني أرى، أو أنّ طول الصّيام والجوع أثّر على عقلي، أو أنّ حرماني من الإناث كلّ هذه السّنين جعلهنّ يتشكّلْنَ في خيالي المريض، وقلتُ: «أتوضّأ، وأغسل وجهي بالماء، وأشربُ من الجُرن، وأرى ما يحدثُ بعدَ ذلك، فإنّ الوَهم بالماء يزول» ففعلتُ. وعدتُ إلى موضعي من التّأمّل، فرأيتُها من جديد، وقد صارتْ قريبةً جِدًّا منّي، وصارتْ ملء العين، فعَضَضْتُ أذني بطرف أسناني، وتأكّدتُ من أنّني لا أحلم، فقلت: «إنّني أراها حَقًّا لا خَيالاً، فلأنظرْ ما تريد». وواصلتْ هي صُعُودها حتّى وصلتْ إليّ، فعاينتُها فإذا هي تفيضُ جمالاً ورقّةً وعُذوبة، وإذا هي تنظر إليّ كمن تريدُ أنْ تقول شيئًا، لكنّها تُطرِقُ في الأرض حياءً كما أطرقتِ ابنةُ شُعيبٍ أمام موسى عليهما السّلام، وتجرأتُ فقلتُ لها: «خيرًا يا أمَةَ الله؟ إنّي لا أدعو إلى موضعي هذا أحدًا، فما الّذي أتى بكِ؟!». فقالتْ: «أما عرفْتَني؟». فحدّثتُ نفسي: «أتانٌ ساحرة، تأتي لتقطع كل هذه المسافات لتُفسِدَ عليّ

خَلوتي؛ لا بُدّ أنّها رسول الشّيطان». وقلتُ لها: «لا ما عرفتُكِ». ودارتْ دورتَين تعرضُ جسدها عَلَيّ، وهي تقول: «وهكذا؟». فضجّتْ عوالمُ في قلبي، وتحرّكتْ مشاعر غامضةٌ في صدري، وتأكّدْتُ أنّني وقعتُ في الشَّرَك، ونظرتُ إلى عينَيها، فقلتُ في نفسي: «إنّ عيونَها تبدو مألوفةً لي؛ أينَ يا تُرى رأيتُها؟» وغُصتُ في ذاكرتي، تذكّرتُ كلّ الحمارات اللّواتي هتفْنَ بحياتي يومَ تأسيس الحزب وإقامة مملكة الحمير، وتذكّرتُ كل الأُتُن الّتي مررنا بها في الخرائب في قُرى الجنوب أنا والشّيخ عليّ، وتذكّرتُ كذلك الآلاف اللّواتي عبرْنَ حياتي، ولم أتذكّر هذه الأتان الفاتنة، مع أنّها تبدو موجودةً في مكانٍ ما في قلبي، وأنّني رأيتُها يومًا ما. واستغربتْ هي طُول سكوتي، وانزعجتْ قليلاً من عدم معرفتي لها، ولكنّني قلتُ لها: «سامحيني، لا أدري أينَ رأيتُكِ؟». فنفدَ صبرُها، وقالت: «أتذكر يومَ عِبّين؟». فقلتُ: «إنّ عهدي به لبعيد». فقالت: «والتّسعين قرشًا». فاستيقظتْ عينٌ واحدة في القلب. فأكملتْ: «والبردعة الحمراء، والخَرَز الأزرق». فاستيقظتْ عينٌ ثانية. ثُمّ دققْتُ النّظر فيها، فعرفتُها، وشهقتُ شهقةً عالية، وصحتُ صيحةً مُستنكرة على وَقور مثلي، وهتفتُ: «صَعْدَة». فهزّتْ رأسَها، وهي تبتسمُ ابتسامةً بانتْ لها كلّ أسنانها اللُّؤلُئيّة، وهتفتُ ثانيةً: «قلبي اختارك».

فردّتْ: «حديث القلب مُتّفقٌ عليه». يااااه؛ إنّها أتان السّوق في عِبّين، حُبّي الأوّل والأخير، يا لَصِدْقِ أبي تمّام: «ما الحُبّ إلاّ للحبيب الأوّل». ورقصَ قلبي، ولمعَ الشّوقُ في عيني، وتبرعمتْ مشاعري، وهتفتُ بالكلمة الّتي قلتُها لها قبل أكثر من عشرين عامًا: «هل تقبلين بي زوجًا؟».

وقطعتُ سنةَ العُزلةِ من شهورها الأولى، ورميتُ بليالي التأمّل ورائي، وركضتُ خلفَ الحُبّ، فمَنْ وجد عشقه فلْيؤجّلْ صَلاتَه؛ فإنّ العشق لا يأتي إلاّ مرّة واحدة، وإنّ الصّلاة ليقبلها الله في كلّ حين. ومضينا معًا إلى ياجوز، وفي محكمة الزّواج عقدْنا القِران، وأقمْنا حفلاً مشهودًا حضرتْه كلّ حمير الأردنّ، وبَعثَتْ بعضُ الممالك في الصّين والعراق ومصر وليبيا والمغرب مندوبين عن حميرها ليحضروا العُرس، وكان زِفافًا مشهودًا وميمونًا. ولم تُصدّق كل الأتُن الشّابّات أنّ مؤسس مملكتهنّ العتيدة تزوّج من أتانٍ كبيرةٍ مثل (صَعْدة)، وتركَ الوسيمات من الصّغيرات المُدلّلات، والمائلات المُميلات، وشعرتُ أنّ الحمير بالفعل بدؤوا يتأثّرون بالبشر، ويكتسبون من صفاتهم، فهذا الحسد الّذي بدا في عيونهنّ لزواجي من صَعْدة لم يكنْ عند جنسنا أبدًا، وإنّما جاء من الآدميّين!

وقضينا شهرَ العسل في المراتع والمرابع، وكانتْ كلّ أيّامنا

عسلاً، وما العسل إلاّ ما رأيتَه عسلاً؛ فافتحْ قلبَكَ أيّها الجُلمود، فإنّ الحُبّ طهارة، وإنّ الحُبّ صلاة، وإنّه ما اجتمع نفرٌ على الحُبّ إلاّ سُعِدوا ووُفّقوا. ولم نتركْ مطعمًا نجد فيه العُشب النّاضر والماء النّمير إلاّ ارتدناه، ولا ملهًى نروّح فيه عن أنفسنا إلاّ وقضينا فيه ساعةً من ليلٍ أو نهار.

ومشتْ معي صَعْدة الطّريق، فهوّنتْ عليّ طولَها ومشقّتها، وأعادتْني إلى أيّام الفتوّة والشّباب، وارتقتْ بي، فرأيتُ في صُحبتها جَنّة الدُّنيا، ونضارة المُنى، ولذّة العيش و»ما لذّة العيش إلاّ للمجانين»، وصنعْنا ما لم يصنعْ زوجان من ماء المودّة الّذي سكبه الله في قلبَينا.

وذهبْنا إلى عَمّان ذات مرّة لنحضر مسرحيّة: «عصر القُرود». ولمّا طلبْتُ من الشّباك تذكرتَين لي ولِصَعْدة، تفرّس صاحب الشُّبّاك في وجهي، وعرتْه دَهشة: «حِمار!!». فقلتُ: «وما الغريب؟». «وتريدُ أنْ تحضر المسرحيّة؟!». «نعم، وما الّذي يمنع؟». «أنّكَ حِمار». «وأنتَ حِمار أيضًا، ماذا يعني ذلك؟». فاهتاج، وصرخ: «المسرحيّة للّذين يفهمون». فأجبْتُه بهدوء: «إذًا على نصفهم ألاّ يحضر المسرحيّة، وعليهم أنْ يطردوك من هنا قبلهم». فغضب وقال: «أنتَ غبيّ». فقلت: «أنا أفهم منك ومن أبيك ومن أجدادك كلّهم، لأنّه لو كان فيهم واحدٌ

يفهم لمّا وصلتْ نُطفة المني الّتي قُذفت في الأرحام إليك».
فدار من خلف الشُّبّاك يريد أنْ يضربني، فلمّا صار وجهه قُبالتي رفستُه فقلعتُ إحدى عينَيه، وكنتُ أريدُ أنْ أُظهر فُتوّتي أمام زوجتي وتشعر أنّ هناكَ حِمارًا يحميها، وهذا ما كان. وحُمِلَ المسكين إلى المستشفى وهو يصيح، واجتمع النّاس عَلَيّ، فأقسمتُ أنْ أحضر المسرحيّة أنا وصعدة وفي الصّفّ الأوّل، وتداعَى صاحب المسرح على إثر ذلك الشّجار، وأدرتُ معه حِوارًا هادِئًا فاقتنع بموقفي، ودخلْنا إلى القاعة، وبدأ العَرض المسرحيّ.

كانتْ مسرحيّة تنعَى على العقل العربيّ لُهاثه وراء النّزوات، وانشِغاله بسفاسف الأمور، ولَهوه بلا طائل، وبحثِه عن المُتَع الرّخيصة، وانتقاله مثل القرود من شجرةٍ إلى شجرة، وكأنَّ كاتب المسرحيّة أرادَ أنْ يقول إنّ البشر مُسِخوا قُرودًا. وكان فيها - بالطّبع - كثيرٌ من الإحالات الّتي لا تُقبَل في تحقير جنس القُرود، وبعضِ المشاهد الرّاقصة الّتي لا تتناسَبُ والمضمون. وبلعتُ بعضَ العبارات السّخيفة، وجاهدتُ في أنْ أملك نفسي حتّى انتهت.

ولمّا خرجْنا، تناولْنا أنا وصَعْدة شرابًا ساخِنًا، ورُحنا نتناقش في أمور المسرحيّة، واقتربَ مِنّا المُخرج الّذي كان يسمع

حِوارَنا، ولعلّه رأى في نَقدنا للمسرحيّة بعضَ الوجاهة فأرادَ أنْ يُحاورنا. قال لي: «كيفَ رأيتَ المسرحيّة أيّها الحِمار؟». فقلتُ: «من ناحية الدّيكور فهي رائعة، ولكنّ هذا أروع ما فيها». وفهم إشارتي، فقال: «والمضمون؟». «تجاريٌّ رخيص، وفيه عنصريّة». فسأل: «كيف؟». فقلتُ: «نظرة البشريّ الاستِعلائيّة دائِمًا ما تكون خاطِئة، والقرود خَلْق الله، ولم يخلق الله إلاّ جميلاً». فضيّق عينَيه، وسحَبَ نَفَسًا من سيجارته، فأكملتُ: «لو سمّاها المُؤلّف عصر البشر لكانتْ أصدقَ وأكثر مطابقةً للواقع؛ فلمْ يُدمّر البشريّة مثلهم، ولم يُهلِكِ الحرثَ والنّسْل غيرُهم، ولـم يجرّ الـويـلات على بني جنسه وعلى باقي المخلوقات كما فعلوا، وما عاثَ فسادًا في الأرض سِواهم». فضحك، وقال: «حمار فَهْمان، من أيّ جامعةٍ تخرّجتَ؟!». فقلت: «من جامعةٍ كانتْ أُمّكَ تبيع فيها العلكة على بابها». فحنق، ورأيتُ الغضبَ في وجهه، فأردفتُ: «البادِئ أظلم». فقال مُستهزِئًا: «يبدو أنّكَ تحمل دكتوراة إذًا من جامعة الحمير تلك!». فقلتُ: «تتفنّون في الإساءة لغيركم، وحين تُواجَهون بحقيقتكم تغضبون!». فردّ: «لستُ أقصد الإساءة... ولكنْ بما أنّكَ بهذا الذّكاء، فعندي مسرحيّة أخرى يكون بطلها حِمارًا، فما رأيك أنْ تمثّل فيها؟!». ثُمّ ضحك. فقلت في نفسي: «البشر

يحتاجون إلى مَنْ يعلّمهم الدّروس بين الحين والحين حتّى لا يتمادَوا في غَيّهم» ولذلك وافقتُ على أنْ أؤدّي الدّور فورًا.

وحشد المُخرج للمسرحيّة في يوم الافتِتاح عددًا كبيرًا من الوزراء والأعيان والوُجهاء من ذوي الكروش المُنتفِخة والذّقون المُتهدّلة، وكان يُريد أنْ يُضحكهم عليّ، وارتقيتُ خشبةَ المسرح، ولمّا صار دوري، مشيتُ بكلّ ثقةٍ حتّى وصلتُ إلى منتصف الخشبة بحيثُ أكون أقربَ ما يكون إلى أصحاب الذّوات، وقلتُ في نفسي: «الآن ستضحكون تمامًا». ولمّا تأكّدتُ أنّ الأبصار قد تعلّقتْ بي فعلتُها في المنتصف؛ درتُ دورةً كاملة، ورفعتُ قفاي وسلحتُ على الأرض، وانتشرت الرّائحة سريعًا، وضحك بعضُهم، وتقزّز آخرون، وصاح وزيرٌ من الوزراء المُتلهّفين إلى رؤية دوري: «ما هذا؟ ألهذا دعانا المُخرج المرموق؟ تَبًّا له ولليوم الّذي رضيتُ به أنْ أكون به في مثل هذا المكان». فقلت: «هذا ما يليقُ بكم» وخرجتُ وأنا مرتاح الضّمير، والرّائحة تزكم الأنوف، وتركتُ العُمّال يُنظّفون ورائي ما أحدثتُه على المسرح... وتأبّطتُ ذراع صَعْدة، ومضيْنا معًا ونحن نضحك، ولا ندري ما صَنَعَ الله بالقوم من بعدنا!

ولمّا رأيتُ إساءة البشر لفنّ المسرح قرّرتُ تأسيس فرقةٍ مسرحيّةٍ خاصّة بي، سمّيْتُها: «صوت الحمير»، وقلت: «لا يفهم

الحميرَ إلاّ الحمير». وكان يحضر عرضي آلاف الحمير، وكان بعضُهم يقطع تذكرة المسرحيّة وينتظر شهرًا أو شهرَين حتّى يحين دَورُه فيدخل المسرح؛ لكثرة اكتظاظ الحمير وتَوقهم إلى المعرفة، وحُبّهم لرؤية كلّ ما هو جديدٌ ونافع والتّعلّم منه. وكنتُ أعودُ إلى مسرحيّات توفيق الحكيم، فمثّلتُ مع فرقتي له: مسرحيّة «الحمار يُفكّر»، ومسرحيّة «الحمار يُؤلّف»، ومسرحيّة «سُوق الحمير»، وكان الحكيم أكثر مسرحيّ شعرَ بنا وفَهِمَ أحوالَنا وعبّر عن مآلاتنا هو والتّركيّ عزيز نيسين، وإنْ كنتُ بعدَ سنةٍ من تأسيس تلك الفرقة المسرحيّة قد تجاوزتهما إلى عددٍ آخر كبير من المسرحيّين والكُتّاب أمثال سعد الله ونّوس وممدوح العدوان وسوفوكليس، ... وغيرهم مِمّن ألهمُوني، وأعطَوني انطِباعًا أنّه ما زال في البشر خير، «وإنْ خِلْتَ بِلْيَتْ» كما يقولون!

وتعلّمتُ من صَعْدة ما تعلّمتْ هي من الحياة، وعلّمْتُها بدوري، وما العلم إلاّ بالمُدراسة والمُحاورة والمُداورة، وكان عهدي معها رطيبًا، فهل يستمر العهد؟ وهل مصيرُ الورود بعد أن تفوح بالشّذى إلاّ الذّبول؟!

وإنّ حالي مع صَعْدة حالُ أبي الفرج البغاء مع أتانِ عزّ الدّين بن بويه، لمّا قال فيها: «كأنّما وَسَمَها الكَمال بنهايته، أو

لحَظَها الفَلَكُ بعِنايته، فصاغَها من ليله ونهاره، وحَلاّها بنجومه وأقماره، ونَقَشَها ببدائع آثاره، ورَمَقَها بنواظر سعوده، وجعلها أحدَ جُدُوده، ذات إهابٍ مُسيَّر، وقُربٍ مُحبّر، وذَنَبٍ مُشجَّر... سُبُجيّة الأنصاف، بلّوريّة الأطراف، جامعةٌ شِيَتَها بالتّرتيب، بينَ زمنَي الشّبيبة والمَشيب. فهي قَيْدُ الأبصار، وأَمَدُ الأفكار، ونهاية الاعتِبار، غَنِيٌّ عن الحَلْي عَطَلُها، مُزْرِيةٌ بالزَّهْرِ حُلَلُها، واحدةُ جِنسِها، وعالَمُ نفسِها، صنْعةُ الحكيم، وتقدير العزيز العليم».

وأنجبتْ لي صعدة قطيعًا من الحمير، أخذتُهم بالدّرس والجِدّ والحِكمة كما أخذ أرسطو نفسه، وإنْ كُنتُ لا أُخْليهم من التّرويح عن القلب ساعةً وساعةً؛ فتلك وصيّة الحبيب، وكَسَلُ القلب بالدّرْس أخبثُ للنّفس، ولا يتعلّم الواحد إلاّ بنشاط القلب.

وبعدَ عامَين من تأسيس فرقتي المسرحيّة، اجتمعتُ بأعضاء الفرقة، وأخبرتُهم أنّ علينا أنْ نُعلّم عددًا من الكُدُش والجِحاش هذا الفنّ العظيم الّذي يعدّ أقدمَ الفنون، وندرّبهم عليه، وإنّ أحدنا ليهرمُ فلا يجدُ مَنْ يخلفه، ولا مَنْ يسير بالفِكرة إلى مَنْ يأتي بعده. وأخشى أنْ يضيع هذا الفنّ ولا يبقى إلاّ بأيدي البشر يعبثون به كما يحلو لهم، فوافقوا على الفور، وانتدبْنا للتّدريب

شُيُوخ المسرح من الحمير، ومن لهم اليد الطُّولى مِمّنْ سبقونا من أهل العِلم والفضل، فدرّبوا عشرات الممثّلين، وبعد عامٍ آخر، تركتُ الفرقة، وقلتُ: «الآن يُمكنكم أنْ تستمرّوا بدوني». وكالعادة تشبّث بي الكثيرون، فشكرتُ لهم طِيْبَ مشاعرهم، ولكنّني قلتُ: «إذا أردتم للفكرة أنْ تستمرّ فاجعلوا الآخرين يؤمنون بها إيمانكَم أو أشدّ، ولْيكنْ هذا لكم أسلوب حياة، إنّ الفكرة الّتي تعتمد على شَخصٍ يظنّ أنّه وحدَه علاّمةَ دهرِه وفريدَ عصرِه سرعان ما ينساها النّاس بموته، بل سرعان ما يركلونها بأقدامهم بعد أنْ يُغيّبه الثّرى. الفكرة الّتي تعيش في القلوب لا تموت، فلا تجعلوا قلوبكم نُهبةً للفراغ!».

وحدكَ مَن تقرّر أنْ
تكون عظيمًا أو تافِهًا

وقالتْ لي صَعْدة ذات مرّة ونحن نجوب صحراءَ (رَم): «صوتُكَ جميل». فأغمضتُ عينَيّ وشكرتُ الله أنْ رزقني امرأةً تُقدّر مواهبي وتلتفتُ إليها، فما تدوم العلاقات إلاّ بشعور أحد الطّرفَين بالآخر والاهتِمام به، ولهذا كان الزّواجُ شراكةً مُقدّسة، ورددتُ عليها: «ليسَ أجملَ من قولك. وإنّني ما عرفتُ ما فِيّ من فضائل إلاّ بما ساعدْتِني أنتِ على استظهارها، ولولا رأيُك الحصيف، ونظرك الثّاقب وتشجيعك المستمرّ لكنتُ الآن مثل الكثرة الكاثرة من البشر آكل وأشربُ وأنام و... وأبزُر الأولاد ورائي». فقالت: إنّ هذا الصّوت الجميل يجب أنْ يسمعه كلّ الخَلْق، وإنّه إنْ لم يصلْ إلى آذان النّاس ويُشنّفها فإنّ الكنز المدفون فيه سيظل مدفونًا ولا أحد يدري به». فنظرتُ إليها بعينَين تفيضان حُبًّا وشغفًا وقلتُ: «إلامَ تُلمّحين؟». فقالتْ كأنّها تتجاهل سؤالي: «لنجرّبْ». فقلت: «نجرّب ماذا؟». فتجاهلتْ سُؤالي مرّة أخرى، وقالت: «هل تحفظُ من الشّعر شيئًا؟». فقلتُ وقد دخلني الزّهو: «الشّعر كلّه». فقالتْ: «أسْمِعني». فدخلني الزّهو هذه المرّة أكثر، إنّ صعدة تريد أنْ أُسمِعها شعرًا، وقلّما تطلب حِمارةٌ من حِمارها ذلك، فقلت: «أَمِنَ المُعلّقات أم المُجوّدات أم الموشّحات أم

المُخمّسات أم الشّعر الخرطبيطي؟». ففتحتْ عينَيها دهشةً، وهتفت: «عرفتُ الأصناف الأربعة الأولى، فما تقصدُ بالشّعر الخرطبيطي؟». فقلتُ، وأنا أرفعُ حافري، وأنبشُ فيه الأرض أبحثُ عن وصفٍ لهذا النّوع من الشّعر، ثُمّ رفعتُ نظري إليها: «الشّعر الّذي أجهدني حِفظُه، فلا يُدرى أوّله من آخره، ولا صدره من قَفاه، ولا معناه من مبناه، ولا هُو يُدرَى ماذا كان يُعاني الشّاعر حينَ تقيّأه، أو أيّ هلوسةٍ أو هذرمةٍ كان يهذي بها لمّا كتبه». فسألتْ وقد دفعها الفضول هذه المرّة: «أيُّ شِعْر مثل هذا يُمكن أنْ يُسمّى شِعرًا؟». فقلتُ: «إنّهم يُسمّونه الشّعر الحُرّ أو الشّعر المنثور أو النّثر المشعور... والله لا أدري ماذا يُسمّونه؟». فقالتْ لي: «دَعْكَ من هذا، أنا أفكّر في شيءٍ عظيم، وأنتَ تهزأ بي؟». فتداركتُ: «كلاّ يا حبيبتي، كلاّ... أنا أتراجَع». «فأسمِعْني مِمّا أطربكَ وأدهشَك إذًا». فأخذتُ بيدَيها حتّى صعَدْنا على نَشزٍ في (رَمّ)، وكانت الشّمسُ تبدو من خلف التلال الصّخرية وادعةً حانية، وقد بردتْ حرارتُها فلطّفتِ الهواء السّاحر، وانعكسَ شُعاعها الدّافِئ على الرّمال الحمراء، والأفق كلّه أمامنا، ولم يكنْ من لحظةٍ أفضلَ من تلك لقول الشِّعر، فتنحنحتُ، وأخذتُ نَفَسًا عميقًا ورُحتُ أنشد ما

قاله عِرار في هذه الأنحاء:

يا أختَ رمٍّ كيفَ رَمٌّ وكيفَ حالُ بني عَطِيّةْ؟

هل ما تزالُ هِضابُهم شُمًّا ودِيْرتُهُمْ عَذِيّة؟

فتنهّدتْ صعدة وهي تكرّر من ورائي: «وديرتهم عذِيّة» حتّى شعرتُ بحرّ تنهّداتها في صَدري، فأكملتُ حتّى أقضي عليها وعَليّ:

سَقْيًا لِعَهْدِكِ والحياةُ كما نُؤمّلها رَضِيّةْ

وتِلاعُ وادي اليُتْمِ ضاحِكةً وتُربَتُها غَنِيّةْ

فطار صَوابُها من جمال الصّوت والكلمات، وضحكتْ، وقالتْ: «هِيه يا أبا صابر... هيه...». فقلتُ: «ها قدْ سَمِعْتِ، فماذا كان يجول في خاطرك؟». فقالتْ: «عليكَ أنْ تُقدّم برنامجًا إذاعيًّا تُؤدّي فيه ما طاب من الأشعار والأسمار، فحرامٌ على الخلق ألاّ يسمعوا لصوتك العذب الّذي يأخذُ بالألباب». فطربتُ حتّى دُرتُ حول نفسي، وأنا أصيحُ من البَهجة، وخفتَتْ حركتي وأنا أفكّر: «ولكنْ أيّ إذاعةٍ تقبلُ بي؟». فردّتْ: «إنّ أيّ إذاعةٍ تحترمُ نفسَها تقبلُ بك، فإذا كانتْ

تبحثُ عن الصّوت فأنتَ خيرُ صائت، وإذا كانت تبحثُ عن المضمون فإنّه لا أحدَ في هذا المجال أعلمُ منك». فلويتُ عنقي جانِبًا، وقلت: «إنّهم سيهزؤون بِنا لو أقدمْنا على فِكرةٍ مجنونةٍ كهذه». فقالتْ بثقة: «أنا أحدّث أبا صابر الّذي استهزأ بكل الّذين استهزَؤوا به، ومضى في دربه وحقّق ما عجز البشر عن تحقيقه؛ ألستَ الّذي حفظتَ على الشّيخ عليّ بحور العلم هذه؟! ألستَ أنتَ الّذي أسستَ أكبر حزبٍ في تاريخ الأرض بُنِيَ على العدالة والمساواة والحُريّة؟ ألستَ أنتَ الّذي أسستَ فرقةً مسرحيّة أنجبتْ عددًا كبيرًا من الفِرق المسرحيّة تنتشر في كَلّ مكان تُقدّم فنًّا مسرحيًّا عالي القِيمة؟! وعليه فسيكون تقديم برنامج إذاعيّ أمرًا سهلاً. امضِ وأنا معك، ولن أتركك دون أنْ تُضيف إلى أحلامكَ هذا الحُلُمَ الجديد». ولمّا سكتتْ كانتْ عُيُوني تفيض من الحُبّ والفرحة، فقُمتُ إليها فعانقتُها، ونامتْ تلك اللّيلة في أحضاني، وأنا أنظر إليها، وأشكر الله على هذه النِّعمة، ولم يطرفْ لي جفنٌ وأنا أفكّر بالأمر حتّى طلعَ الصّباح.

وعُدْنا إلى عَمّان، فذهبتُ إلى إذاعة الفراشات الزُّرق، فلمْ يستقبلْني أحدٌ، بل لم يفتحوا لي الباب، وسمعتهم يتهامَسون: «حمارٌ وحِمارة ضَلاّ طريقهما، فجاءا إلى هذا

المبنى؟ يا لهما من مسكينَين». فضحكتُ في أعماقي وقلت: «بل أنتم الّذين ضللتُم دروبكم، ويا لَكم من مساكين!! واشبعوا بالفراشات الزّرق لتطيروا معها في أوهامكم». وخرجتُ، وقصدتُ عشر إذاعـاتٍ، وطرقتُ أبوابَها والأمل يحدوني، ولكنّها كلّها طردَتْني، وصعدة تقول: «اصبر»، وتتمثّل بقول الشّاعر:

أَخْلِقْ بذي الصَّبْرِ أنْ يحظَى بحاجتِهِ
ومُـدمِـنِ الـقَـرْعِ لـلأبـوابِ أنْ يَلِجَا

ولمّا نفدَ صبري أو كاد، قلت في نفسي: «صعدة لطيفة، وامرأةٌ حنونٌ ومُحبّة، ولكنّ الأمور لا تُؤخذ كلّها باللّطف». ومضيتُ عاقِدًا العزم على الحصول على البرنامج بطريقةٍ مُختلفة. قلتُ لصعدة اذهبي لبعضِ شؤون أولادنا، وأنا سأقوم بالجولة وحدي. وصلتُ هذه المرة إلى باب إذاعة (الحياة الطّيّبة)، فرفستُ الباب بقدمَيّ فانخلعَ على الفور، وسقطَ على الأرض مُهشّما فانخلعتْ له قلوب الشّباب المُوكّلين بمكتب الاستعلامات، وقلتُ: «الحَقُّ يُنتَزع انتِزاعًا». وحدّثتُ نفسي في اللّحظة نفسِها: «فلسفتي الخاصّة، ومَنْ أرادَ أنْ يؤمن بها

فأهلاً وسهلاً، ومَنْ أرادَ أنْ يكفُر فله ما أراد». ودخلتُ وقد هُرِعَ إليّ الحُرّاس والمُوظّفون وهم يصيحون، فقلتُ لهم كأنّني لم أفعل شيئًا: «أين مكتب المدير؟». فصُعِقوا من أنّني أتحدّث بلسانهم، وتركتُهم غارقين بين الخوف والدّهشة، وتقدّمتُ وأنا أصيحُ مُغضَبًا: «أينَ مكتب المدير؟ أين مكتبُ المدير أيّها المُوظّفون؟ لماذا لا تتكلّمون كأنّ القِطّة قد ابتلعتْ ألسُنَكم». وخرجَ المُدير من مكتبه على الجَلَبةِ فَزِعًا، فلمّا رآني، وكان يملك من العقل والفَهم ما لا يملكون، قال لي: «أنا المُدير، تفضّلْ أيّها الحِمار ماذا تريد؟». فهدأ النّاسُ من حولي لمّا رأوا المدير وتراجَعوا إلى مكاتبهم، وقلتُ له: «أولاً أنا أعتذر عن الباب الّذي حطّمتُه أوّل دخولي ويُمكنك أنْ تخصمه من مُرتّبي، ولكنْ إذا عُرِفَ السّبب بَطُل العجب. ثانِيًا أنا أبو صابر، ثالثًا هيّا بنا إلى مكتبك أريدُ أنْ أناقشك في أمرٍ يهمّنا جميعًا». وسارَ المُدير إلى جانبي وهو يبلع رِيقه، ويُشير إلى مكتبه، فدخلنا إليه، فجلسَ قُبالتي، وقلتُ له: «إنّ إذاعتكم فقيرة». فردّ: «من دون شتائم». فقلت: «أنا لا أشتم، أنا أقول الحقيقة، هل من المعقول أنْ تكون ثلاثة أرباع برامجها للزّقْزَقة والفَرْفَشة والنَّطْنَطة وملء عقول النّاس بالكلام الفارغ،

ولا يكون فيها برنامج واحدٌ يُعطي لحياتهم معنًى وللإذاعة قِيمة؟! في أيّ عصرٍ نعيش؟». وهَمّ المدير أنْ يقول إنّه «عصر الحمير»، ولكنّه بدل ذلك اعتدل في جلسته، وظهر على وجهه الاهتِمام، ونادَى على أحد موظّفيه، وقال لي: «ما قهوتك؟» فقلتُ: «على الرِّيحة». فطلبَ من الآذن أنْ يأتينا بفُنجانَين على الرّيحة، وهتف: «دَعْنا نناقش الأمر بهدوء».

قال المدير: «أذني تسمع». فقلت: «اسمعني بقلبك، فإنّ الأُذُن تخدع». فقال: «ها قلبي مُنصِتٌ لك». فقلتُ: «لديّ فِكرة برنامجٍ تُحرّك الماء في البحيرة الرّاكدة العَفِنة الّتي تبصقون ماءها الآسن في آذان المُستمعين». فتأفّف المدير، وتحرّك في مقعده، فأكملت: «لا تأخذ الأمور بشكلٍ شخصيّ. التّافه مَنْ يرى نفسه عظيمًا، العُظماء هم الّذين يُحسنون التّدبّر والاستِماع والتّفكّر في كلّ حين، وقابلون للتّطوّر والتّغيّر، وليسوا أولئك الّذين يقولون إنّا وجدْنا آباءنا على أُمّة، وأنتَ وحدكَ مَن تقرّر أنْ تكون عظيمًا أو تافِهًا». فمسح ذقنه بكفّه، وأطلقَ زفيرًا خفيفًا، وعدّل جِلسته مُتهيِّئًا لِما أقول. فتنحنحتُ على عادتي حين أريدُ أنْ أبدأ عملاً رائعًا، وقلت: «فكرةُ البرنامج تقوم على أنْ تُوقِظَ الإنسانيّة الميّتة في قلوب المُستمعين؛ الإنسانيّة

تتمثّل في إيقاظ العقل والقلب على السّواء، تريد أنْ تنهضَ بأمّة، بمجتمع، بقطيع، بشعبٍ، فعليكَ أنْ تنظّف قلبَه مِمّا تراكمَ عليه من قاذورات بسبب طول العهد بالهُراء المبذول في كلّ حينٍ لكلّ أحد». فقاطعني: «والفكرة؟». «برنامج يقول للنّاس إنّ الخير أصل والشّرّ عارض، إنّ العدل أصل والظُّلم عارض، إنّ الحُبّ أصلٌ والكُره عارض، وهو بذلك يُوقِظ قِيَمَ الخير والعدل والحُبّ من خلال نماذج حيّة من العُظماء السّالفين أو مقولاتهم أو أشعارهم». فقال: «فِكرةٌ حسنة، ولكنْ لا أحدَ سيستمع لك، فالنّاس تُفضّل أن تسمع أغنيةً راقصة على أنْ تسمع قصيدةً خالدة». فاجتاحني الغضب، وقلت: «ذلك لأنّكم أنتم من صنع ذلك، ظَلَلْتُم تبثّون هذا الهُراء حتّى صار أصلاً، وتقذفون هذه التّرّهات حتّى استساغها النّاس، ولكنّكم لو جلوتم قلوبهم وعقولهم وأسمعتموهم ما يرتقي بهما وما يجلو صدأهما مشى معكم النّاس، فالنّاسُ صورةُ ما يُلقَى على أسماعهم». فقال: «إمممممم.... أشكّ أنّ ذلك سينجح». فقلت: «لأنّك مهزوز مثلهم، تنضح بالخَبَث الهُرائيّ مثلهم، تُريد لهم أنْ يكونوا نُسخةً منك ومن أمثالك من الّذين استمرؤوا التّفاهات». فوقفَ على قدَمَيه غاضِبًا، فأتبعتُه: «أوّل

السّقوط أنْ تأخذ الأمر على أنّه مُوجّه لشخصك لا للفكرة السّيّئة الّتي تعشّش فيك». فاحمرّ وجهه غيظًا، وهتف كمن يريد أنْ يتخلّص منّي ومن ملاحظاتي المُحرِجة: «فلْنُجرّبْ» فهززتُ رأسي وقلتُ: «الحُكمُ بعد الحلقات العشر الأولى». فأُسقِطَ في يده، وقال: «ولكنْ...» فهززتُ رأسي ثانية، فأكمل: «ولكنْ إذا لم ينجح البرنامج فسأطردك وسأعمل لك زَفّة، ولن تتناول قِرشًا واحِدًا عن أيّ حلقةٍ من هذه الحلقات». فهززتُ رأسي ثالثة، وخرجتُ من عنده دون أنْ أقول كلمةً واحدةً.

«يا صعدة، المدير وافق، فماذا نُسمّي البرنامج؟!». «الاسمُ جاهز يا أبا صابر: (صوتُ الحمير)». فهتفتُ: «فلْيكن صوتُ الحمير صوتَ الضّمير، ولْنُعلِّمْ العالَم». وجلسْنا ثلاثَ ليالٍ لم ننمْ فيها، ونحن نُجهّز موادّ الحلقات الأولى، ونُفكّر كيفَ نرتقي بالنّاس من الحضيض الّذي سقطوا فيه أو أُسقِطوا.

مكتبة
t.me/t_pdf

حَلِيبُ الحَمير

«أيّها السّيدات والسّادة، أيّها المُستمِعون الكِرام، حيثُما كنُتم تسمعوننا في أصقاع الأرض، برنامجكم (صوتُ الحمير) يأتيكم عبر أثير إذاعة الحياة الطّيّبة، ساعة من المُتعة والفائدة، نطوف فيها على الحدائق، فنختار من كلّ حديقةٍ وردة لا تذبل، ونُقدّمها لكم حتّى تكون على موائدكم فتظلّ ذكراكم الطّيّبة... طاقَم البرنامج يُحيّيكم، وهذا أنا أبو صابر أحيّيكم من وراء الميكرفون، فأهلاً وسهلاً ومرحبًا بكم». [كانت هذه شارة البرنامج].

في اليوم الأوّل أغلقَ نصف المُستمعين المِذياع أوّل ما سمعوا اسم البرنامج: (صوت الحمير)، وقهقه النّصف الثّاني حتّى غطّى صوتُ قهقهاتهم على ما كنتُ أقوله، وذهبت الحلقة الأولى أدراجَ الرّياح. وتشفّى المدير بي؛ كأنّ البرنامج لا يُقدَّم على إذاعته، بل على إذاعةٍ مُنافسة! وهكذا هم البشر؛ يقفون ضِدّ أنفسهم، ولن يتعلّموا. أمّا بالنّسبة لي فقد كنتُ أتوقّع ما هو أسوأ من ذلك، أنْ يقذف أحدُ الفارغين من هؤلاء البشر المذياع بالكندرة، أو تنهال سيول الشّتائم، أو يقول بعضُهم: «لم يبقَ إلاّ الحمير لنستمع إليها!!». على الصّعيد الآخَر، ما من حِمارٍ سِمَع البرنامج بالصُّدفة إلاّ استمع إليه حتّى نهايته،

وارتهنَ كُلٌّ بما فعل، أمّا البشر فبالخسارة، وأمّا الحمير فبالفوز!

دفعَ الفضولُ النّصفَ الّذين أغلقوا المِذياع في الحلقة الأولى، والنّصف الّذي قهقه أنْ يسمع في الحلقة الثّانية الّتي كانتْ تدور عن الأمانة. «فما الأمانة؟». «أنْ تقول الحَقّ ولو على نفسك، ويكون لك وجهٌ واحدٌ لا ألف وجه». «مَن هو المخلوق الوحيد على وجه الأرض الّذي يعيشُ بأكثر من وجه؟ هل هم الحمير؟ هل هم الكواكب والنّجوم؟ هل هي الأشجار؟ أم الإنسان؟». «كيفَ للإنسان هذه القُدرة على التّلوّن؟». قال أحد المُتّصلين: «إنّما رضي البشر بأنْ يحملوا الأمانة لأنّهم أصحابُ عقول ولا عقول للكائنات الأخرى». فسألتُه: «فكيفَ أبتْ حَمْلَها في قوله: فأبينَ أنْ يحملْنها. بل: وأشفقْنَ منها؟ فأبتْ بالعقل، وأشفقتْ بالقلب، ولكنّ تعريف العقل الّذي تقوله أيّها الإنسان إنّما هو أحد تعاريفه لا كلّها، وإنّ الإحساس الّذي تظنّ نفسكَ منفردًا به إنّما هو ما تظنّ لا على الحقيقة، وإلاّ فكيفَ تخشع الجبال، وتنفطر السّماوات وتنهدّ لكلمة، وكيفَ ينوح الجِذع، وكيفَ تتشقّق الحجارة بالرّحمة؟». فسأل أحدهم: «فلِمَ حَمَلَها إذًا؟». «لأنّه ظالمٌ وجاهلٌ، وما قبلتِ المخلوقات الأخرى أنْ تكون ظالمةً ولا

جاهِلةً ولا أنْ تبوء بإثم ذلك الظُّلم والجَهل، فمَنْ أعدلُ وأعرفُ بالأمانة إذًا؟!». وقال آخَر: «إنّنا حملْناها لأنّنا كُنّا شُجعانًا في أنْ نتحمّل تبعاتها، وجَبُنَ الحِمارُ مثلك عنها». فرددتُ: «الحِمار حمل الإنسان الّذي حمل الأمانة فما أدّاها!». «وَمنْ يُضيّع الأمانة أو يخونها؟». «الإنسان؛ وهو بذلك يستعجل قِيامته».

ودَوْزَن الشّباب في الإستوديو الصّدى، فأنشدتُ قول شيخ المعرّة:

يـخُـونُـكَ مَـنْ أدّى إلـيـكَ أمـانـةً
فـلـمْ تـرْعَـهُ يـومًـا بـقـولٍ ولا فِـعْـلِ
فأحْسِنْ إلى مَنْ شِئْتَ في الأرضِ أو أَسِئْ
فإنّكَ تُجزَى حَـذْوكَ النَّعْلَ بالنَّعْلِ

وألقتْ حلقة الأمانة حجرًا في البُحيرة بالفعل، فانداحت دوائر التّساؤل دائرةً دائرة حتّى بلغتْ منتهاها، والتفتَ النّاس والخلق إلى ما أقول. وبدأ مَنْ كان يلوي عنقه إلى كِفله وخَصْرِه، يلويه إلى قلبه، وعرفتُ أنّني قد بدأتُ أحقّق الغاية.

وطارتْ شُهرة البرنامج، وصار النّاس يستمعون إليه في أقاصي الأرض، ودخلت الحمير على الخَطّ، فنقلتْ إلينا

تجاربها في بُلْدانها، واضطررتُ لكثرة المتّصلين من البُلدان الخارجيّة، أنْ أُخصّص فقرة في البرنامج سمّيْتُها: (قِصّة من بلدي). ونجحت الفِقرة، فصار كلّ حِمارٍ يروي قصّته، وتعلّم النّاس من تجارب الحمير ما لم يتعلّموا من قبلُ.

وعندما أنهيتُ الحلقة العاشرة، وخرجتُ من الإستوديو عانقني المدير عناقًا حارًّا، ودفع لي أجري على مئة حلقةٍ مُقدّمًا، ووقّعتُ معه عقدًا لعام كاملٍ، وقلتُ له: «ماذا تعلّمتَ من أبي صابر؟». فقال: «أنْ أحكم على الجوهر لا العرض؛ فالعينُ تخدع». «وماذا تعلّمْتَ من البرنامج؟». «أنّ لله في خَلْقه شؤونًا». فقلتُ له: «قبلتُ بأنْ أستمرّ معك ومع إذاعتك من أجل التّاريخ لا من أجلك، ومن أجل صدقة العِلم لا صدقة المال».

واتّصل حمارٌ فسألتُه: «من أيّ البلاد أنت؟». فقال: «من الصّين». فقلتُ: «من بلد الحكيم كونفوشيوس؟». فقال: «إنّ أجدادي هم الّذين ألهموه حِكمته». فقلتُ: «قد ادّعيتَ فما الدّليل؟». فقال: «كان كونفوشيوس يطوف جبال الصّين، ويدخل كهوفها ليتأمّل، أو كتاتيبها ليُعلّم النّاس وهو يركبُ

حِمارًا اسمه (أبو زيادٍ) أنا من سُلالته، وكان يضع في خُرجه دفترًا يُسجّل عليه تأمّلاته، وإنّ جدّي هذا ألهمه تلك الحِكمة في ثلاثة مواطن على الأقلّ». فقاطعتُه: «قد تبسّطْتَ في شرح ادّعائك، ولكنّكَ لم تُقم الدّليل عليه». فردّ: «قد استعجلْتَني، أفلا صبرتَ حتّى أقول لك، فنحن الحمير ما خُلقنا عَجولين كما خُلِقَ الإنسان». فتراجعتُ وقلتُ: «أصبْتَ، فقُلْ وأوجِزْ، فإنّ هناك عددًا كبيرًا من المُتّصلين على الخطّ، وإنّهم ينتظرون دورهم، فَدَعِ الضِّرْع يَدِرّ لغيرك». فقال: «كان كونفوشيوس وهو يضرب في الأرض يريدُ أنْ يصعد أعلى قِمّة، ويجد فيها كهفًا يأوي إليه لينعزل عن النّاس كي يدوّن تأمّلاته، وكان يقود جدّي أبا زِياد في إحدى الطّرق الوعرة، فلمّا وصل إلى أوّل الجبل، وكان شاهقًا، نظر إليه فرآه يُطامن السّماء، فقال: هذا مُبتغاي، وتابعه ببصره حتّى يرى نهايته، فالتوتْ عنُقُه دون أنْ يرى تلك النّهاية، فأصابه القنوط، وقال: إنّ هذا الجبل مُحالٌ الصّعود إليه والوصول إلى قِمّته، ونظر حوله فوجد بعضَ الكهوف في بعض السّهوب، فهَمّ أنْ يختار الأسهل، ويأوي إلى هذه الكهوف المتواضعة، ولكنّ جدّي كان لا يعترفُ بالهزيمة، فدار حول الجبل حتّى وجد منفذًا صعبًا ودخله،

وبدأ يصعد الجبل في خطوطٍ متعرّجة، وأخذ ذلك منه وقتًا أضعافَ ما كان يرجو الحكيم، ولكنّه وصل به في النّهاية إلى غايته، كان كهفًا لا يعلوه شيء، يُطلّ على الأرض من فوق كأنّه مُنزرعٌ في قُبّة السّماء، تُرى منه جهات الأرض السّتّ، فلّما بلغ جدّي الحمار بالحكيم ذلك الكهف، ربّت كونفوشيوس على عنقه، وقال: لقد علّمْتَني أيّها الحِمار حكمةً اليوم، وكتب في قِرطاسه: (عندما يبدو لك تحقيق الهدف مُحالاً، لا تُغيّره؛ بل غيّر طريقة عملك لتحقيقه)». فقلتُ: «قد أدّيْتَ الدّليل». فقال المُتّصل: «بقيتْ اثنتان». فقلتُ: «قد أطلت». فردّ: «سأوجز، فاسمع. في عيد الرّبيع، كان كونفوشيوس قد خرجَ مع النّاس ومعه حماره، فأقبل النّاس في وسط السّهول يأكلون ويشربون ويضحكون، وأمّا جدّي فطافَ على كلّ وردةٍ يتشمّمها، ويقفُ عندها مليًّا، ويُسمّيها، ويُخاطبها، ويتغزّل بها؛ فكتب كونفوشيوس في قِرطاسه: (كل شيء يملك قَدْرًا من الجمالِ ولكن ليس كلّ عينٍ يمكنُ أن تُشاهده). «والثّالثة؟ ونعتذر من المُتّصلين لطول انتظارهم». فقال: «مرّ جدّي والحكيم يركبه على قنطرةٍ فوقَ نهرٍ، فحثّه على أنْ يعبرها فأبى، فتعجّب منه الحكيم، ورآه يتحوّل عنها إلى النّهر نفسه، ويعبر به سباحةً إلى

الضّفّة الأخرى، كان الحكيم يرى أنّ فِعل أبي زياد جنونٌ وخطأ وتهوّر، فلمّا صار آمنا في تلك الضّفّة، نظر إلى القنطرة فإذا هي قد وقعتْ بالنّاسِ الّذين كانوا يعبرونها، فصاح مهتاجًا: «هل كنتَ ترى ذلك أيّها الحِمار؟». وكتبَ في قرطاسه وقد أُعجب بشجاعة أبي زياد: (مَنْ يرى الصواب ولا يفعله فهو جبان)».

وانتشر برنامج (صوت الحمير) بين الخلق، وكانت النّاس تنتظر بَثّه بالثّانية، وطلبَ عددٌ من الوزراء والأمراء أنْ يحلّوا ضُيوفًا عليه، فأبيتُ؛ فأنا لا أتقن التّملّق والتّزلّف، والبشر - على عادتهم - يغضبون إذا ما واجهتَهم بحقيقتهم. إضافةً إلى أنّني لا أريدُ للبرنامج أنْ يُحسَب على توجّه سياسيّ دون آخَر، فالحمير لا تعترف بهذه التّوجّهات البائسة، ولا تُؤمن إلاّ بأنفسها.

وانتشرتْ فِكرة ذكاء الحمير من خلال البرنامج عند البشر، وحامتْ حول ذلك إشاعاتٌ غريبةٌ، فمنهم مَنْ قال إنّ سبب ذكائهم هو صبرهم على التّعلّم، ومِنْهم مَنْ قال هو معرفتهم بالخالق أكثر وقربهم منه وتسبيحهم له في اللّيل والنّهار، والله يُؤتي فضلَه مَنْ يشاء، ومنهم مَنْ قال إنّ لهم أنبياءَهم الّذين

بعثهم الله إليهم يعلّمونهم!! وتاق البشر إلى أنْ يكونوا مثلنا. وتسابَقوا إلى الحصول على عقلٍ متوقّد الذّكاء تسابُقًا محمومًا، وانداحت الإشاعات كأنّها رمادٌ ذُرّ من غيم السّماء فأخنى على رؤوسهم، وغطّى على عيونهم.

ومَن استمع للإشاعات فكأنّما صبّ في أُذُنَيه السّمّ، ولكنّ أغربَ إشاعة تلك الّتي قالتْ إنّ سبب هذا الذّكاء هو حليب الحمير، فلو شرب البشر ذلك الحليب لتمتّعوا بالصّحّة وبالعُمر الطّويل وبالذّكاء الخارق، ولم أكنْ من قبلهم أدري أنّ الذّكاء يُشرَب، وأنّ المرء يحصل عليه من عاملٍ خارجيّ. والأغرب من كلّ ذلك أنّ هذه الإشاعة كانتْ نابعةً من دراسةٍ صدرتْ عن أهمّ مركزٍ للدّراسات الطّبّيّة في أمريكا، ولأنّ كلّ ما تقوله أمريكا في العصر الّذي أعيشه مُصدَّقٌ كأنّه وحيٌ من السّماء، فإنّ النّاس أقبلتْ على حليب الحمير تشربه بِنَهَم، واجتاح حليب الحمير العالَم، وأصيبَ النّاس بالجنون وهم يسعَون للحصول عليه، ولم يبقَ لنا من ضُروع إناثنا من الحمير ما يسقينا نحن، وحُلِبتْ تلك الضّروع في أرقى المخابر الطّبّيّة في فرنسا وبلجيكا وألمانيا، ووُضِعتْ في آنية شفّافة من الزّجاج وبيعتْ في كلّ المتاجر الكُبرى في أنحاء العالَم، وكانتْ باهظة

الأثمان، وتقاتَل عليها النّاس على نحوٍ صادم، وصدّقت النّساء أنّ حليب الحمير يزيدهنّ جمالاً ورِقّة وأنوثةً، فبِعْنَ مصاغاتهنّ الذّهبيّة من أجل الحصول ولو على قارورةٍ واحدةٍ منه!! وقال علماء التّاريخ والآثار: «إنّ جمال كليوباترة الفرعونيّة السّاحر، واحتفاظِها بشبابها وبنضارة وجهها، وإشراقةِ جسدها، سببه أنّها كانتْ تتحمّم في حليب الحمير»، فتمنّتْ كلّ فتاةٍ عصريّة أنْ لو استطاعتْ أنْ تفعل ما فعلتْ كليوباترة!!

وأدّى هذا التّهافت على حليب الحمير أنْ يقلّ إنجاب الإناث بسبب عزلهنّ عن الذّكور، فرفعتُ عبر الإذاعة شعار: «حليب الحمير للحمير». ووصل الصّوت إلى أقاصي البِلاد، ولكنّ الشّركات العِملاقة ما كانتْ لتتوقّف عن استنزافنا ما لم يكنْ هناك قانون يُجرّم بيع هذا الحليب في المجالس التّشريعيّة، ورفعْنا بذلك مسوّدات قانون إلى تلك المجالس وخاصّة في تركيّا والهند والصّين ولكنّ الشّركات كانتْ غالبًا ما تُجهض التّصويت على القانون برشوة أعضاء المجالس التّشريعيّة، وهكذا وجدْنا أنفسنا نُهبةً لجشع الإنسان وطمعه فينا دون أنْ يُفكّر بتأثير ذلك علينا وما يُسبّبه لنا من مصائب!!

وحدثتْ بسبب هذا الاستنزاف كارثة، لقد اختلّ النّسيج الاجتِماعيّ لشعب الحمير؛ وعنّست الذكور حينما اقتاد البشر الإناث إلى مزارع خاصة لينفردوا بِحَلْبها، وخاصة في بعض المناطق التي تمتلك التكنولوجيا من المتلهفين لتجربة كل جديد في أمريكا واليابان، وبسبب هذا الاختِلال لم تجد الآلافُ من الحمير ولو أنثى واحدة للتّزاوج، وما كان ذلك ليكون لولا أنانيّة البشر وشَرَهِهم القاتل.

وحدث ما لم يكن بالحسبان؛ إذ كانت هناك أمٌّ أمريكية من اللواتي يؤمِنّ بالخرافات تسقي ابنها حليب الحمير ثلاث مرات في الْيَوْم ليُشفَى من الرّبو وينمو سليمًا، ولكي تعوّضه عن جفاف ثدْيها، فقد وصفه الطّبيب لطفلها كونه يحتوي على فيتامين – أكثر من الفيتامين نفسه في حليبها بستّين ضِعفًا. وحدث أن أصاب الطّفلَ اختِناقٌ ومات، وفِي التشريح قال الطبيب الشرعي إن السبب هو أنّ الحليب الّذي كانتْ تُعطيه الأمّ لابنها مَغشوش. وأنّـه كان مخلوطًا بحليب حيوانات أخرى، وليس حليبَ حميرٍ صافيًا!! فرفعت الأم قضيّةً على الشركة المُصنِّعة، وتحصّلتْ على حُكمٍ قضائي بتعويضها ثلاثة ملايين دولار وبإغلاق الشركة المُصنّعة، ودبّ الرعب في بقية

الشركات فبدأتْ تُغلق الواحدة تلو الأخرى، وخلال عام كانتْ التّسابق المحموم إلى حليبنا قد توقّف أو كاد، وهكذاً بدأ نسجينا الاجتماعي يعود إلى توازنه، وعاد أمر التزاوج بين الحمير يأخذ مجراه الطبيعي، ولو لم يمتْ ذلك الطّفل المسكين لكُنّا انقرضْنا، وتذكّرتُ قول أبي الطّيّب: «مصائبُ قومٍ عند قومٍ فوائدُ».

الخالِدون من الحمير

واحتفلت الإذاعة بمرور عام على بثّ برنامج (صوت الحمير)، ودعتْ إليه شخصيّات مرموقة، أو هكذا يتمّ تصنيفهم في مقاييس البشر، وكان الحفل قد أُقيم في أحد الفنادق الكُبرى، وجاء الضّيوف ليتعرّفوا عليّ، على (أبو صابر) الّذي دوّخ برنامجُه المستمعين، فلمّا رأوني تقالّوني فتذكّرتُ قِصّة كُثيّر عزّة مع عبد الملك بن مروان، وأرادَ رئيس الوزراء أنْ يمزح معي، فقال: «أليسَ صحيحًا أنّ الله تعالى قال إن أنكر الأصواتِ لصوت الحمير». فقلتُ له: «بالطّبع قال ذلك، ولكنّه سكتَ عن أنكر العقول، أظنّ أنّ أنكر العقول يليقُ بكم يا دولة الرّئيس». ومرّتْ سيّدة أخرى من المُنعَّمات، فضحكتْ لمّا رأتْني، فعرفتُ كم يهتمّ البشر بالمظهر، فتقدّمت إليّ: «أبو صابر؟». فقلتُ: «نعم». فقالتْ: «أخيرًا رأيتُك... ولكنْ قل لي يا أبا صابر هل صحيح أنّكم الحيوان الوحيد الذي يركب غيره»، فرشقتُها بغمزةٍ، وقلتُ: «صحيح، فهل تريدين أن تجرّبي؟ فإنّ برهان التجربة أشد أنواع البراهين ثبوتًا». وكانتْ زوجتي صَعْدة بجانبي، فلكزتَني مُغضَبة.

وكان بعضُ المندوبين عن السّفارات الغربيّة ضمن الحُضُور، وتقدّمتُ من أجل إلقاء الكلمة الرّئيسيّة في الحفل، فقلت: «أيّها النّاس، ما عُبِدَ الله بمثل العَطاء، ولا أُحِبّ بمثل

الحُبّ، وإنّ بيننا وبينكم رَحِمًا، وإنّني أعظكم أنْ يُحيّي بعضُكم بعضًا في الصّباح، ثُمّ يضربُ بعضُكم رِقابَ بعضٍ في المساء. الدّم حرام، فلماذا يقتل الإنسانُ أخاه باسم الحُرّيّة؟ ولماذا يُبيدُ شعبَه باسم الحِفاظ على الأمن؟ أفلا حَمَل ذلك المِسكين نعلَيه وترك الكرسيّ لأهل العدل؟! أم أنّ شهوة الدّم والسّلطة والبطش داءٌ لا يُمكن الخَلاص منه!!

أيّها الحُضور: بشرًا وحميرًا ومَنْ شرّفنا في هذا المَقام، لقد كنتُ أسمع أنّ زعيمًا قتلَ مليونًا من شعبه في أقلّ من خمس سنين، وشرّد عشرة ملايين في صقيع الأرض، وكانوا يقولون: إنّه حِمار، والله لقد كذبوا، فإنّ الحمير لا تقتل البشر فضلاً عن أنْ تقتل أبناء جِنسها، وإنّنا لأرأف بخلق الله من خلق الله كلّهم، وأكثر خلق الله خدمةً لخلقه، ولكنْ قولوا إنّه إنسانٌ تجرّد من إنسانيّته، أو قولوا إنّه بشريٌّ سكنه الشّيطان، ولا تكذبوا ولا تظلموا.

أيّها الحفل المُكرّم، لا أريد أنْ أُطيل، دَعُوا خلافاتِكم جانبًا، وكونوا مُتساوين كأسنان الحمير، وتعلّموا منّا التّواضع وإنكار الذّات والصّبر والمُثابرة والأخوّة والعَطاء دون مقابل. والسّلام».

في الحلقة المئة من البرنامج، قررتُ أنْ أخصّصها للحمير

الّذين خَدَموا البشريّة، والّذين كانتْ لهم مواقف خالدة، وبدأتُ أنا بحمار عُزير، فقد خلّد القرآن قصّة الحِمار كآية من آيات الله، وكُنّا نحن الحمير موضع هذه الآية وموطن هذه العِبرة، في قدرة الله على بعثِ الموتى بعدَ أنْ تَرِمّ عِظامُهم، والقصّة باختِصار أنّ عُزيرًا أحد أنبياء اليهود الّذي عاش بين سليمان وزكريّا خرج ذات يوم إلى ضيعة له يتعهّد أمرَها، فلما أتمّ تعهُّدَها وقفلَ راجِعًا أتى إلى خَربة وقت الظهيرة وقد عَطِش لشدّة الحرّ، ودخل تلك الخربة وهو على الحمار فنزل عنه وأنزل عنه سلّتَين من تين وعنب، فأخذ شيئًا من العنب فاعتصره في قصعة كانتْ معه، ثم أخرج خبزًا يابسًا فألقاه في تلك القصعة من العنب المعصور ليبتلّ فيأكله، ثم استلقى على ظهره، وأسند رجليه إلى الحائط، فنظر إلى السّقوف المُهدّمة، والعِظام البالية، والعروش الخاوية، فهتفَ: «أنّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا؟!». سؤالَ تَعَجُّبٍ لا شكّ، فأرسل الله إليه ملك الموت فقبض روحه، فأماته الله مئة عام.

فلمّا عَبَرَتْ تلك السّنون المئة، وتغيّرتْ فيها أمم وأحداثٌ وشعوب، بعث الله إليه مَلَكًا فخلق قلبه ليعقل، وعينيه لينظر بهما كيف يُحيي الله الموتى. ثم رَكّب خَلْقَه وهو ينظر، ثم كسا عظامه اللحم والشَّعْر والجِلد، ثمّ نفخ فيه الروح، كل ذلك وهو

يرى ويعقل، فاستوى كما كان في شبابه، وهو يتلمّس أعضاء جسده بيده في غاية التّعجّب، فقال له المَلَك: «كم لبثت؟». قال: «لبثتُ يومًا أو بعضَ يوم»، وذلك أنّه كان لبث صَدْر النهار عند الظهيرة وبُعِث في آخر النهار والشمس لم تَغِب على ظَنّه، فقال: أو بعض يوم؛ ولم يتمّ لي يوم. فقال له الملك: بل لبثتَ مئة عام فانظرْ إلى طعامك من الخُبز كما هو، وشرابك من عصير العنب الذي اعتصرته قبل مئة عام في هذه القصعة فإذا هو على حاله لم ينتَن، والخبز لم يتعفّن، والتّين غَضًّا جاهزًا للأكل، فكأنّ قلبَ عُزير شكّ أنْ يتمّ ذلك حَقًّا، فقال له المَلَك: كأنكَ أنكرتَ ما قلتُ لك؟ فانظر إلى حمارك، فلم يجدْ حِمارًا بل وجد بقاياه من عِظامه المُبعثرة المنخورة، فأمر الله عظام الحمار فأجابتْ وأقبلتْ من كل ناحية تسعى حتى رَكِبَ بعضُها فوقَ بعضٍ وعُزير ينظر إليها، ثم ألبسها الله العُروق والعَصَب، ثُمّ كساها اللّحم، ثم أنبتَ عليها الجِلْد والشَّعْر، ثم نفخ فيه الرّوح فقام الحمار رافعًا رأسه وأُذنَيه إلى السماء ناهقًا وهو يظن القيامة قد قامت يسأل الله الرّحمة.

ثُمّ قال متّصل: «فما قيمة الحمار في الآية؟». فقلتُ: «إنّه آية، وإنّه لمّا شكّ عُزير لم يشكّ حِماره، فقد سلّم أوّل ما رأى، وعرفَ المنزل لمّا لم يعرفه سيّده، وإنّ الحمير لتدخل

بالملوك في الفتوحات وفي المواطن المُقدّسة». فقال: «فأين كان ذلك؟». فقلت: «ألم تقرأ في أسفار اليهود عندما يُنشِدون: «اِبْتَهِجِي جِدًّا يَا ابْنَةَ صِهْيَوْنَ، اهْتِفِي يَا بِنْتَ أُورُشَلِيمَ. هُوَذَا مَلِكُكِ يَأْتِي إِلَيْكِ. هُوَ عَادِلٌ وَمَنْصُورٌ وَدِيعٌ، وَرَاكِبٌ عَلَى حِمَارٍ وَعَلَى جَحْشٍ ابْنِ أَتَانٍ». وإنّ عيسى عليه السّلام عندما اقترب من القُدس فضّلَ أنْ يدخلها على حمار أو أتانٍ، لأنّه فيه النبوءة بنبوّته، فكُنّا علائم الأنبياء ومطاياهم، ألم تسمع ما ورد في إنجيل متّى: «وَلَمَّا قَرُبُوا مِنْ أُورُشَلِيمَ وَجَاءُوا إِلَى بَيْتِ فَاجِي عِنْدَ جَبَلِ الزَّيْتُونِ، حِينَئِذٍ أَرْسَلَ يَسُوعُ تِلْمِيذَيْنِ قَائِلاً لَهُمَا: «اِذْهَبَا إِلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمَامَكُمَا، فَلِلْوَقْتِ تَجِدَانِ أَتَانًا مَرْبُوطَةً وَجَحْشًا مَعَهَا، فَحُلاَّهُمَا وَأْتِيَانِي بِهِمَا. وَإِنْ قَالَ لَكُمَا أَحَدٌ شَيْئًا، فَقُولاَ: الرَّبُّ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِمَا». هذا كلّه لكي يتمّ وعدُ الله أنّنا آيةٌ من آياته.

ثُمّ جاءنا اتصالٌ من خارج الأردّن، فقال: «إنّ عندي قِصّة حمار النّبي محمّد صلّى الله عليه وسلّم». فقلتُ: «هاتها». فقال: «إنّ فيها تشريعًا من أهمّ التّشريعات الّتي قام عليها الإسلام». فقلتُ: «هاتِ، فإنّ الحمير رافقوا الأنبياء وكانوا معهم في آياتهم وتعاليمهم، فلعلّهم سمعوا منهم ووعَوا أكثر مِمّا سمع البشر ووعَوا!». فقال: «في الحديث أنّ مُعَاذًا بن جبلٍ

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ عُفَيْرٌ، فَقَالَ: يَا مُعَاذُ، هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ ولا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لا يُعَذِّبَ مَنْ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، فَقُلْتُ: يا رَسُولَ اللَّهِ، أفلا أُبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ ؟ قَال: لا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا».

وتذاكر المُستمعون حِمار الخَطّاب، وقولة عامر بن ربيعة المشهورة: «والله لا يُسلِمُ عمر حتّى يُسلم حمار الخَطّاب». وهل كان الحِمار كافرًا؟! كلاّ. فلمّا أسلم عمر دلّ على أنّنا نحن الحمير لا نكفر بالله ولا نُشرك معه أحدًا آخر.

ورنّ هاتف البرنامج، فأخذتُ الاتّصال، فإذا المُتّصل على الطّرف حِمارٌ شابٌّ يتساءل دون مُقدّمات: «هل تعرفون سون تزو؟ لا بالطّبع؛ فأنتم لا تعرفون إلاّ حميركم». فقلتُ: «هَوّنْ عليك، فإنّ لكلّ أحدٍ تحت الشّمس موضعًا». فردّ: «دَعْني وقولي». فسألتُ: «من أينَ تُكلمنا؟». فقال: «من الصّين». فأثنيتُ: «إنّ مُستمعينا في الصّين من أكثر المُتّصلين فائدة». فقال: «دعْنا لا ننسَ أمر تزو، أتعرفون أنّنا نحن من ألهمْناه في كتابه (فنّ الحرب)، قواعد الحرب الخمس وهي: الأخلاق، والسّماء، والأرض، والقائد، والنّظام العامّ». فقلتُ: «أوافقك؛

لأنّ الحمير أكثر الخلق معرفةً وخبرة بالطّبيعة». فردّ: «وإنّ الطّبيعة لتؤثّر في طبيعتنا». فوافقتُه: «صحيح، ولهذا تجدُ حمير مصر أكثر الحمير فكاهة، وحمير الجزائر أكثرها عنادًا، وحمير تركيا أكثرها جِدًّا، وحمير العِراق أكثرها وفاءً، وحمير الصين أكثرها حكمة، وحمير الأردن أكثرها صبرًا».

واتّصل أحدهم من الأندلس، وقال: «إنّ عندنا في أوروبّا قِصّة عن الحمار (ميرفي)، أو حمار (جون كيركباتريك) يُضربَ بها المثل». فتذكّرتُ عهدي مع الشّيخ عليّ، ودمعتْ عيناي، إذ كنتُ قبل أعوام بعيدةٍ عندما حُبِسْنا في الثّلج ذات مرّة في أحد الكهوف، كنتُ قد وعدتُ الشّيخ أنّ أقصّ عليه هذه القِصّة، وكان الشّيخ متحمّسًا لسماعها، ولكنّني كنتُ أدّخر الحكايا الّتي عندي حتّى نقضي أيّامنا في حبسنا في ذلك الكهف، وكنتُ أخشى أنْ تنفد القصص الّتي عندي، ونحن ما زلنا محبوسين، فأجّلتُ قَصّها عليه لليوم الثّاني مُتذرّعًا بأنّ الشّيخ مُرهَق وعليه أنْ يرتاح، ونسيتُ في اليوم الثّاني أنْ أفعل، ومرّت الأيّام، ورحل الشّيخ ولم أقصّها عليه، وها أنتَ تُذكّرني بها، رحم الله والدَيك، فقل يا عزيزي، لعلّ روح الشّيخ تُسامحني على تقصيري ونسياني». فقال: «رحم الله شيخَك، وأمّا القصّة فتتلخّص في أنّه الفترة من عام ١٩١٥ إلى عام

١٩١٦، إبّان الحرب العالميّة الأولى، وخلال الهجوم الفاشل في مضيق الدّردَنيل، تمكّن الحمار المُذهِل (ميرفي) التّابع للقُوّات المُسلّحة الأستراليّة بصحبة أحد المُسعِفين الطّبّيين، ويدعى (جون كيركباتريك)، من حَمْل العديد من الجرحى المصابين على الجبهة، في رحلة محفوفة بالمخاطر، مليئة بالأخاديد الصّخريّة، للوصول إلى المستشفيات الميدانيّة، وإنقاذ أرواحهم، ولقد غامر الحمار (ميرفي) بكلّ شجاعةٍ بروحه في سبيل أرواح البشر، البشر الّذين كان يراهم يَذبح بعضُهم بعضًا فيبكي على حالهم مُحاوِلاً النّجاة بأكبر عددٍ منهم من أنْ يسقطوا صرعى تحت وابل الرّصاص أو الطلقات المدفعيّة، أو الهجمات الصّاروخيّة». وسكتَ المُتّصل، وسكتُّ أنا، كنتُ أبكي افتِخارًا بهذا الحِمار الّذي كان ملاك الرّحمة، فقلتُ والدّموع تنهمر من عينَيّ، وأنا أحاول ألاّ يظهر تأثّري في صوتي: «إنّني أطالب الحُكومة الأستراليّة في أنْ تمنحه وسامَ الشّجاعة والاستِحقاق من الدّرجة الأولى نيابةً عن جميع الحمير في العالَم الّذين خدموا البشريّة في حروبها الطّاحنة، وأنْ تُقيم له نُصبًا تذكاريًّا خالِدًا، يظلّ يُذكّر النّاس بقِيمَ العَطاء والتّضحية والشّجاعة الّتي كان يُمثّلها».

وانتهى البرنامج بقصّة الحمار ميرفي، ووعدتُ المُستمعين

أنْ آتيهم بقصص أخرى للحمير الّذين خدموا البشريّة أكثر من البشر، وطلبتُ من الحمير والبشر الّذين انبهروا بتلك القصص في تلك الحلقة أنْ يبحثوا عن المزيد منها.

الرّأيُ بالرّأي

«تقدَّمْ إلى الوسط وأسْمِعْنا رأيك». لو كان شيءٌ يُعرَف به الله وعظمته، لكانت الحرّيّة، ما جعل الله الخلق أمّة واحدة، ولا قَسَرهم على أنْ يؤمنوا به، وجعل مشيئة المخلوق في معرفة الخالق خاصّةً به، فإنْ دَلّه العقل والوحي والرّسول والفِطرة والبحث والتأمّل فكان به، وإنْ لم يدلّه؛ فكلّ نفسٍ بما كسبتْ رهينة.

كانتْ هذه فلسفة الإذاعة الّتي استقيتُها من صُحبتي الأولى للشّيخ عليّ، وتطوافنا الدّائم في بلاد الله الواسعة، وما سمعتُه من أهل العِلم والفِكر، ثُمّ إنّها فلسفةُ ما قبل المسيح: «أنْ يكفلَ لك النّظام ولو كان نِظامًا وثنيًّا حرّيّة الرّأي». نحن هنا في إذاعة صوت الحمير أكثر إذاعات العالَم احترامًا للرّأي، واستِعدادًا لسَماعه.

بعد ذلك الحفل المشهود بمناسبة مرور عامٍ على بثّ البرنامج، جاءتْني اتصالاتٌ من دول العالَم كافّة، واستضافتْني إذاعاتٌ وفضائيّات لكي تحاورني حول مبادئ الحمير في التّعدّديّة وقَبول الآخر، وإنْ كنتُ لا أؤمن بالشّعارات البرّاقة الخادعة إلاّ بمقدار ما تُحقّقه على أرض الواقع من فائدة، فما

نَفْعُ كثرة الزّخارف في المساجد إذا كان لا يدخلها إلاّ العجائز؟ وما نفع السّقوف العالية في الكنائس إذا كان لا ينظر إلى السّماء أحد؟ وما نفع الوقوف أمام حائطٍ حجريٍّ للبُكاء على أشياء لم أفْعلها؟!

طارتْ شهرتي في الآفاق، ودُعيت إلى مقابلةٍ مع قناة (MBC) كانوا يريدون أنْ يفهموا كيفَ تُفكّر الحمير، أجبتُهم بجملة واحدةٍ: «غيّروا طريقة نظرتكم أيّها البشر إلى الآخَر، أيّا كان هذا الآخَر، وستتمكّنون من إزالة هذا الغِشاء الثّقيل الّذي يربطُ على عقولكم لكي تُصبِحوا أكثر استِنارة». ثُمّ نصحتُهم بعددٍ من الوسائل الّتي تُساعدهم على ذلك، آخرها القراءة، وقلتُ: «إذا كان البشر لا يقرؤون، وهي أقلّ درجات الاستِنارة، فكيفَ نُنشئ صنفًا من البشر مُحبًّا معترفًا بالآخر، يستخدم صوتَه لا سوطه، ورأيه لا سيفَه؟!».

ولم يتوقّف الأمر عند هذا الحدّ، فقد دُعيت إلى (BBC) وحاورني فيها مذيعٌ قال لي: «إنّكَ في خطابك السّنويّ في حفل برنامجك النّاجح تحدّثتَ عن الحُبّ والسّلام، وهذا أكثر ما لفتَ انتباهي في خِطابك، نحنُ هنا في الغرب أكثرُ

مَنْ يهمّهم الحديث حول هذا الموضوع، فما هي قِيَم السّلام والحُبّ الّتي تُنادي بها؟». أجبتُه: «قبلَ كلّ شيءٍ أودّ أنْ أقول إنّكم في الغرب دائمو الحديث عنهما وتبجيلهما - أعني الحُبّ والسّلام - وأنتم أكبر مَنْ يذبحونهما... ستقول لي هذا ادّعاء فما دليلك؟ وأنتَ على حقّ في هذا، إنّه ادّعاء ولكنّ الدليل يعرفه الجاهل والعالِم، إنّ ضحاياكم منكم في الحربَين العالَميّتَين كانت تفوق ٤٥ مليونًا، من أجل ماذا؟ قُل لي ماذا حقّقتم غير أنهار الدّماء وغير موت الإله كما قال فلاسفتكم الّذين رأوا سُعار الحرب والذّبح فكفروا بكلّ شيء، وتذكّرْ أيّها المُذيع المُحترم أنّكم بينما كنتم تذبحون أنفسكم، وتُعملون السّكّين في أعناقكم، كان بنو جنسي من الحمير يعملون ليلَ نهار من أجل إنقاذ أرواحكم، أفلا اتّعظتُم من الحمير في حُبّها للحياة، ومسارعتها في خدمة الآخَر ونجدته؟ ولو أردتُ أنْ أشير إلى أنهار الدّم الّتي أَسَلْتُمُوها لتطلّب منّي ذلك عشرات السّاعات؟ إنّكم لم تكتفوا بأنْ قتلتُم أنفسكم، بل جِئتم إلى بلاد العرب فعِثتم فيها فسادًا، وصببتُم عليها القنابل والنّيران والموتَ صَبًّا، طبعًا أنا أعرف أنّك ستقول إنّ حُكّام العرب قد فعلوا ذلك أيضًا بشعوبهم، وأنّنا ما جِئنا إلاّ بطلبٍ منهم، وأنا

لا أُنكر ذلك، ولا أحد يستطيع أنْ يُنكره، ولكنّني أقول إنّكم جمعتُم على هذا الجنس البشريّ المِسكين المُسمّى عربًا مُصيبتَين، سيفًا ينشبُ في الصّدر، وخنجرًا يطعنُ في الظّهر، أمّا النّار فكانتْ تلتهبُ في الأطراف كلّها».

وعُدتُ من زيارتي إلى أوروبّا وأمريكا من أجل نشر فِكرة الإيمان والحُرّيّة في الغرب، كان برنامجي لا يزال قائِمًا، بثْنا فيه مزيدًا من القصص الحقيقيّة الّتي لا يذكرها البشر لأنّهم نَسّاؤون، قال أحدُ المتّصلين: «أحدّثكم بقصّة حمار طَيّاب الّتي ذهبتْ مثلاً، طيّاب هذا سَقّاء، كان يحمل على حِماره دِلاء الماء ويبيعُها للنّاس، وكان في أيّام الحجّ يكسبُ مالاً كثيرًا، حتّى إنّ بعض الأغنياء طلبَ منه أنْ يبيعه الحِمار بألفِ دينار، فقال لا أبيعه بألفِ ألفِ دينار، ولو زدْتَها مثلَها ذهبًا، وظلّ طيّاب هذا يبيع الماء، وتنتفخ جيبُه من المال، ومع كثرة ما كان يجنيه من عمل حِماره إلاّ أنّه كان بخيلاً؛ فما كان يرمي له في آخر النّهار جُرزة من تِبن، أو حفنةً من شعير لا تُساوي شيئًا أمام ما يكسبه على ظهره، وكان الحمار يجوع ويصبر، وظلّ ينحل، وطيّاب يحمّله المزيد من الدّلاء ولا يُطعمه، حتّى هَزُلَ تمامًا وماتَ من الجوع، فماتَ صاحبه طيّاب من الغَمّ في اليوم الثّاني؛ فضُرِبَ

به المثل، ورثاه شاعرٌ يُقال له أبو غلالة، فقال:

لـم أبـكِ شـجْـوًا لِـفَـقْـدِ حِـبٍّ
ولا ابْـتـلانـي بـــذاكَ ربّـي
لـكـنّـني قـد بـكـيـتُ حُـزنًـا
عـلـى حِـمـارٍ لـجـارِ جـنـبِ

والغريب أنّ أبا غلالة هذا، مات بعد موت الحمار وموت طيّاب بأسبوع، كلاهما عرفَ قيمة الحِمار بعدما مات، فانظر إلى سوء فِعْلتهما، وما هو إلاّ نموذج».

لكنْ مع ذلك، فإنّ كثرة الحديث عن مساوئ البشر تورث الخبثَ في القلب، وتُراكم الأذى، وإنّه لا شكّ أنّ في البشر مَنْ عرفَ قدْرنا، وأنزلنا منزلتنا، ومن ذلك قِصّة حمار أبي هُذيل، وإنّني أقصّها عليكم لِلعظة: «دخل أبو هُذيلٍ على الخليفة المأمون، فأكرمه، ودعاه إلى أنْ يبقَى عنده حتّى يأكل، فلمّا وُضِعت المائدة وأخذوا في الأكل، قال أبو هُذيل: يا أمير المؤمنين إنّ الله لا يستحيي من الحقّ، غُلامي وحِماري بالباب. فقال المأمون: صدقت يا أبا هُذيل، وقال لحاجبه:

اخرجْ إلى الغلام والحِمار فتقدّمْ لهما بما يُصلحِهما». ما نسي صاحبه الحِمار حتّى عند الطّعام وفي حضرة الخليفة، فذلك من الوفاء، والشّعور بالآخرين.

وفي العام الرّابع قدّمتُ استقالتي لمدير الإذاعة، فقال لي: «ابقَ نُكرمْك». ولم أشأ أنْ أذكّره ما حدث قبل أربعة أعوام وكيفَ هَمّ موظّفوه بطردي، وكيفَ انتزعتُ الأمر بالقوّة، ولولا أنّهم ألجؤوني إليها وحكّموا عقولهم ما فعلتُ. وقلتُ له: «مبدئي أنْ أكون نهرًا لا بحرًا، سحابًا لا جبلاً، أحبّ أنْ أُغيّر وأتغيّر، لا أمكثُ في المكان الواحد كثيرًا، أعمل لغاية، وأؤدّي حق الله فيها، وأترك المكان لآخرين قادرين على أنْ يصنعوا ما صنعتُ ويزيدوا عليه». فقال: «ومَنْ سيُقدّم البرنامج من بعدك؟». «فأجبتُ تستطيع أنْ تجد حمارًا جيّدًا لهذا الموقع، لا تتعلّق بفكرة أنّني أساوي البرنامج فهذا هُراء، انظرْ وستجد، لماذا يا أخي يخاف البشر أنْ يفتحوا عيونهم ليَروا!».

بعدَ شهرَين من تلك الحادثة، عَزّ عليّ أنْ تضيع قيمة الفِكرة لا البرنامج؛ فقرّرتُ من الأموال الّتي جمعتُها أنْ أُنشِئ إذاعةً خاصّةً بنا، وشجّعَتْني صعدة؛ صعدة الّتي تصعد بي ومعي إلى

الذّرى، وتُسهّل عليّ كل صعب، وسألتُها: «ماذا تقترحين أنْ نُسمّي الإذاعة؟». فأجابتْ - على عادتها - دون تلكّؤ: «صوت الحمير». فتساءلت: «صوتُ الحمير؟». فردّتْ: «بالطّبع صوت الحمير، وستكون الإذاعة صوتَ كلّ أحدٍ، صوتَ مَنْ لا صوتَ له». فأخذتْني الحَماسة، وأردفتُ: «إنّ صوتَ الحمير ستكون أكبر الإذاعات الّتي تقبل حرّيّة الرأي، وتناقش الآراء بعِلم وبحُجّة، ولن توظّف أحدًا فيها بناءً على انتمائه السّياسيّ والحزبيّ، ولن تطرد أحدًا منها بناء على اكتشافها لمُيُوله الفكريّة، هذا هُراء، أنا لن أوظّف في إذاعتي مزيدًا من الأشخاص الّذين يُشبهونني، سأكون قد حكمتُ بذلك على نفسي بالموت، بأن أحوم في حلقةٍ مُفرَغة، بأنْ أجلبَ إلى صوتي مزيدًا من الأعناق الّتي تُصفّق وتهتف دون أنْ تدري لماذا؟ نعم، ستكون الإذاعة مفتوحةً لكلّ مَنْ يريد أنْ يقول ما يريد مُلتزِمًا فقط بالمعايير الأخلاقيّة والمِهنيّة، أمّا الاعتقاد، وشكل ربطة العنق، ولون الثّوب، أو طول اللّحية فليسَ من شأني أبدًا».

وتأسّستْ الإذاعة، ووجدتْ كثيرًا من الدّاعمين، حتّى إنّ حكومة بريطانيا تقدّمتْ بدعمٍ ماليّ كبيرٍ للإذاعة من أجل أنّها ترفع القِيَم الّتي تنادي بها بريطانيا، فاعتذرتُ عن قَبولها حتّى

لا تكون شبهة فساد، وقُلنا: «يكفي أنْ يجمعنا هذا الإيمان المُشتَرك».

وتنوّعتْ فقرات الإذاعة، فطوّفْنا في حدائق كثيرة، ولوّنا لوحاتٍ قاتمة، وأعدْنا إلى المخلوقات معنى الإيمان بالله. ثُمّ أردتُ أنْ يرى العالَم كيفَ يتناطح البشر كالدِّيَكة، فأنشأنا في الإذاعة برنامج (الرأيُ بالرّأي)، واستضفْنا فيه شخصيّات كبيرة، عربًا وأجانب، شرقيّين وغربيّين، ووصلتْ شُهرة البرنامج إلى أمريكا، بعدَ حلقةٍ في برنامجٍ استُحدث هو الآخر في الإذاعة يتحدّث عن تاريخ الحمير، وقد قدّمتُ فيه التقرير المنشور الآتي: «أنْ تهرب من المُشكلة جُبْن، أن تلتفّ حولها خِداع، أنْ تواجهها شجاعة، حدث ذلك مع (أندرو جاكسون) المرشح الديمقراطيّ لرئاسة الولايات المتحدة عام ١٨٢٨م. إذ إنّه تعرّض لموجة انتقادات لاذعة من منافسيه الجمهوريّين نظرًا لتبنّيه وجهات نظر شعبويّة ربما كانت غريبةً فى ذلك الوقت من القرن التّاسعَ عشرَ، فكان شعاره: «اترك الحكم للشعب». وبدأ مُنتقِدوه وخصومه فى الحزب الجمهوريّ يصفونه بالـ «جاكاس» بدلا من اسمه «جاكسون»، ومعناه بالإنجليزية الحمار، فما كان منه إلا أن استخدم رمز «الحمار»

على ملصقات الدعاية فى حملته الانتخابية. ومن هنا دخلْنا التّاريخ في الحُكم الأمريكي، ولو التزم السّاسة الأمريكان بمبادئ الحمير ما أراقوا قطرة دم واحدة، ولكنّهم خرجوا على مبادئنا وقِيَمنا وتنكّروا لها، مع أنّهم استخدمونا قنطرةً للوصول إلى السّلطة!

تاريخيًّا في عام ١٨٣٧م، استُخدم الحمار لأول مرة فى رسم كاريكاتيريّ ليرمز للحزب الديمقراطيّ، ورغم أن جاكسون كان قد تقاعد فى ذلك الوقت، فإنه كان يعتبر نفسه زعيم الحزب، وبالفعل ظهر فى الرَّسْم وهو يحاول أن يقود الحمار إلى المكان الذى يريده.

أما فى سبعينيّات القرن التّاسع عشر، فاستخدم رسّام الكاريكاتير (توماس ناست) الحمار ليُمثّل الدّيمقراطيّين، وظهر فى أحد رسوماته فى جريدة «هاربر» الأسبوعية عام ١٨٧٤م الحمار وهو يرتدى جِلد أسد ويُثير خشية جميع الحيوانات الأخرى فى حديقة الحيوان، على رأسها «الفيل» الذى كتب تحته «صوت الجمهوريين». ومنذ ذلك الحين، يستخدم الفيل ليرمز للجُمهوريّين، الذين قبلوا رسميًّا بهذا

الرمز.

وما زال «الحمار» لليوم يُلهِم الحزب الديمقراطيّ، ويُقدّم من خلال أفكارنا بياناته الانتخابيّة».

كان هذا التّقرير قد ألهبَ حماسة المُرشّح الدّيمقراطيّ لرئاسة الولايات المتّحدة الأمريكيّة، فطلبَ مُقابلتي، وطلبَ - بعدَ المُقابلة - أنْ أكتب خِطاباته الّتي يتلوها في حملته الانتِخابية، وأنْ أكون قائد هذه الحملة، فوافقتُ على شرطٍ وحيد: «أنْ أقول دون إملاء، وأنْ تلتزم أنتَ وحزبُكَ بمضمون البيانات الانتخابيّة الّتي سأكتُبها لكم». فوافق المرشّح الرّئاسيّ على الفور، وبالفعل قضيتُ في أمريكا عامًا كامِلاً في حومة الدّعاية، وقُدّر للرّئيس أنْ يفوز بسبب الخطابات الّتي كتبتُها والّتي كان يُتقِنُ إلقاءَها، ولكنّه بعد وصوله إلى السّلطة تنكّر لكثيرٍ من تلك المبادئ في السّرّ، وإنْ ظلّ ينادي بها في العَلَن!

والتقيتُ نائب الرّئيس الأمريكيّ في الأردنّ عندما جاء لزيارتها، وذكّرتُه بالعهد الّذي قطعه سيّده على نفسِه إبّان عملي معه مديرًا لحملته الانتِخابيّة، وقلتُ له: «ستنهار أمريكا». فضحك، وقال: «الحمار يعظ». فقلتُ: خُذْ أو دَعْ؛ لا تصلح

الحكومات إلا بالعدل، ولا عدل إلا في دين، ولا دين يستقيم دون فضيلة، وأنا أرى أنّكم قد تجرّدْتُم منها جميعها».

في بداية العام الثّالث من تأسيس إذاعة (صوت الحمير)، انتدبتُ بمساعدة مجموعةٍ من الأعضاء المُؤسِّسين عددًا كبيرًا من الحمير للتّدريب على صناعة المحتوى وعلى الأداء، وبعثتُ بهم بعد أن اتّسعتْ علاقاتي إلى أرقى معاهد الإعلام في العالَم، ومكثوا في كلّ معهدٍ ستّة أشهر من التّدريب المتواصل، وعادوا ليقدّموا أفضل ما لديهم.

في نهاية العام الرّابع، قدّمتُ استقالتي، قلتُ في خطاب الاستِقالة الّذي أذعتُه علنًا: «ليسَ من طريقٍ لا تنتهي، وليس من مَسيرٍ لا يصل إلى غاية، وأنا في حدود تجربتي قد وصلتُ، وأترك إكمال المشوار للجيل الجديد». وكان لي ما أردتُ!

وظلّتْ إذاعة (صوت الحمير) علامةً بارزة في العمل الإعلاميّ، ومدرسة تعلّم منها الكثيرون، وسارَ على قِيَمها أهل الفَهم والحِكمة!

مكتبة
t.me/t_pdf

لُحوم الحمير

عُصفورتي المُباركة، سيّدة اللّحظات كلّها، سُحُبي البيضاء، قمري الفضّيّ، منارتي العالية، ووردتي النّاضرة، دعينا نغتسلْ في ماء الحبّ الدّافِئ، نجلسْ تحت شجرة الجوز الوارفة الّتي يسيل النّبع الصّافي حول جذعها، نُبرّد بِطّيخة صيفيّة حُلوة ونأكلها معًا، مَنْ قال إنّ اللّقمة تكون هنيّة لو لم تكنْ مع رفيقة درب؟ مَنْ قال إنّ الحياة تُعاش للواحد منّا دون أُنثى؟! إنّني من دونك هَباء، ورقة يابسة في ريحٍ عاصفة، وشوكةٌ ميّتة في حقلٍ أجرد، هبيني الحياة الّتي أريد، الجنّة الّتي أحلم، وماذا يتبقّى من طعمٍ في العُمر لو لم يتشاركْ حبيبان الحياة؟!

ما أجملَ عينَيكِ، هل يحقّ لي أنْ أتغزّل بهما؟ لماذا كان عليكِ أنْ تنتظريني هذه السّنوات كلّها لتسيري معي هذا الدّرب؟ أما علمْتِ أنّه شاقّ وطويلٌ، وأنّ على الّذين يقولون ما يُؤمنون به أنْ يُعانوا؟ فَلِمَ ارتضيتِ العَناء معي؟

أمسِ في اللّيلة النّاعسة ركضَ القمرُ معنا، من خلف السّياج في الظّلام الشّفيف كان ثمّة مَنْ يُراقِبنا، مَنْ يتأكّد من أنّنا سعيدان، أنّنا لا نُصدّق جَمال اللّحظة كأنّها من الخَيال، أتعرفين مَنْ كان هذا الّذي ينظر إلينا خِلسة من خلف السّياج؟ إنّه الحُبّ، إنّه

صورةُ قلبيَنا العاشِقَين، أريدُ أنْ أقصّ عليكِ كلّ حكايا العُشّاق، أريدُ أنْ تكون حكايتُنا إحداها، أريدُ أنْ تكون أجملَها، أنْ تكون خالدة كقصّة مجنون ليلى، أو كُثيّر عزّة، أو كحُبّ عُروة، لكنّني لا أريدُ أنْ أبكي كما بكى، أريدُ أنْ أفرح، إنّني كلّما تذكّرتُ ما قاله عنه المتنبّي تألّمتُ، وشعرتُ بغصّةٍ في الحلق، وطعنةٍ في القلب، وتمنّيتُ لو كنتُ معه لكي أواسيه، ألم تسمعي:

وكأنّ كُلَّ سَحابةٍ وَكَفَتْ بها
تَبْكي بِعينَي عُروةَ بْنِ حِزامِ

رضي الحُبّ علينا، فلماذا نبكي؟! أخذَنا إلى عالَمه المسحور، وجنّته الفارهة، أنا لا أريدُ النّهايات المأساويّة لقصص هؤلاء العُشّاق، لماذا لا تكون نهاياتهم مُفرِحة؟ لماذا لا نُغيّر نحن تلك النّهايات؟ لماذا لا نكون عاشِقَين مُختلفَين عن هذا النّهر المُمتدّ؟ بلى يا حبيبتي؛ ها أنذا كُلّي لك.

جنون البشر ليس له زمنٌ واحدٌ ثُمّ يُقال إنّه انتهى وإنّهم قد عَقِلوا، بل إنّ جنونهم ينهضُ في كلّ مرّة كما ينهضُ الدُّخان من تحت الجَمر، إنّ جنونهم يتبدّى في كلّ عصر، غدًا سأثير

يا صَعْدة الموضوع في الإعلام؛ البشر مجانين، مجموعة من المَعاتيه، إنّهم لم يكتفوا بأنْ يأكل بعضُهم لحمَ بعضٍ، بل إنّهم تعدَّوا ذلك إلى أنْ يأكلوا لحومنا، غدًا سأفضحهم، إنّهم يأكلون لحوم الحمير ويتبجّحون بذلك، ويقولون: إنّه لم تعدْ هناك من لحوم لنأكلها إلاّ هذه اللحوم الطّيّبة اللّذيذة، إنّها لحومٌ مُسكِرة، لحومٌ تُدخل البهجة على القلب، ألم أقلْ لكِ إنّهم مجانين، مَنْ يردعهم عن جنونهم هذا؟!!

«أيّها المُستمِعون إلينا في كلّ مكان، لقد حدثتْ طامّة أضافتْ إلى وحشيّة البشر مستوًى جديدًا، اسمعوا هذا الخبر المُفزِع الّذي نشرتْه أكثر الصّحف مصداقيّة: (أكّدتْ صحيفة ديلي ميل البريطانية أنّ لحوم الحمير آمنةٌ للاستهلاك الآدميّ بشرط ذَبْحها بطريقةٍ صحيحة، وأنّها غنية بالبروتينات والمعادن، وتتميّز بقلّة الدّهون. وأكّدتِ الصحيفة، أنه بالرغم من أنّ الحمار معروف عنه عدم الذكاء، إلا أنّ لحومه تساعد على تنمية نسبة الذّكاء!!!!». أهذا خبرٌ صحيحٌ أم هلوسة؟ قولوا لي إنّني أحلم، أو إنّني أرى كابوسًا لا يُمكن الخروج منه؛ إنّهم يشتموننا ويصفوننا بالغَباء لكنّ لحومنا تزيدُ نسبة الذّكاء، لكنْ - مهلاً - هناك شرط حتّى يزيد ذكاء البشر؛ هو أنْ يذبحونا

بالطّريقة الصّحيحة!!! هل في قاموس اللغة ما يُعبّر عن هذا الجنون البشريّ المُرعب؟! كلا. وإنّني لأتساءل وأنا أبكي من الدّاخل: بالله عليكم أيّها البشر الحنونون: كيفَ تكون الطّريقة الصّحيحةُ لذبْحنا؟!

إنّنا نعيش في عصر انعِدام القِيم، انهيار المُثُل، وانتحار الإنسانيّة، وليت الأمر يقف عند هذه الصّحيفة البريطانيّة المُعتبرة، الصّادرة عن الإمبراطوريّة الّتي لا تغيبُ عنها الشّمس، القابعة في ضباب الحقيقة في العالَم الحُرّ، أو الّذي يُسمّي نفسه كذلك، بل إنّ الأمر تعدّاهم إلى الشّعوب العربيّة، إلى أمّ الدُّنيا، إلى مصر، إنّهم يبيعون لحومنا هناك ويعرضوها في ثلاّجاتهم ويكتبون فوقَ تلك الثّلاّجات: «كُلُوا من طيّبات ما رزقناكم». بل إنّ بعضَ التُّجّار فكّر بعد أنْ وجد التّجارة مُربِحةً أنْ يُصدّر لحومنا إلى دول الجِوار المحرومة من اللّحم، أو إلى دول آسيا، أو إلى دول أوروبّا، وكان يُعطي للمستوردين الخَيار في أنْ يستلموا لحم الحمير مذبوحًا أو حَيًّا بأسعارٍ تفضيليّة!!!

في مصر علّقونا على العَرَبات، وساحُوا بنا في الشّوارع والأزقّة، ونادَوا على السانْدويتشات المصنوعة منّا بجنيه دون

خجلٍ أو حَياء، وفرموا لحمنا مع المصارين وهرسوها مع الكُفتة، وحوّلونا إلى كَباب، ورشّوا على دُخان الشّيّ البهارات ففاحتْ الرّائحة الّتي اجتذبت الجَوعى، لقد وفّر ذلك للفقراء الّذين يحلمون بأنْ يروا اللّحم في حياتهم ولو مرّة واحدة، أنْ يجلسوا إلى المائدة في رمضان قُبَيل الإفطار وقد تزّينتْ بطبقها الرّئيسيّ المطهوّ من لحمِنا!! يا للخزي!!

أيّها العُقلاء من البشر، أو مِمّن تبقّى منهم، هذا نِداءٌ حقيقيّ: «أنقِذونا من الانقِراض، إنّ جشعكم تخطّى كلّ الحدود وانتهك كلّ المُحرّمات!!».

وكالعادة ذهبتْ كلّ النّداءات والاستِغاثات أدراج الرّياح، ولم يُلقِ لها أحدٌ بالاً، لا الحكومات ولا الدّول ولا المجالس التّشريعيّة، ولا حتّى جمعيّات حقوق الحيوان، وأعتقد أنّ طوفان الجنون البشريّ لن يتوقّف حتّى يأتي على البشر كلّهم، ويُهلكهم عن بكرةِ أبيهم!

ومرّتْ سنوات الهَناء مع صَعدة، والأنثى بطبعها تحبّ امتلاك حبيبها، نشأ بيننا خلافٌ بسيطٌ، ولكنّني لا أريدُ له أنْ يتطوّر، أنا أحبّك يا صعدة، ولا يُمكن أنْ أفرّط بك، ولكنّ

الواجب يدعوني، إنّ قُوّات الصّهاينة تجتاح لبنان، ولا بُدّ أنْ أقوم بما يُمليه عليّ ضميري، وأنْ أنصر الحقّ والحقيقة؛ «أنا غادٍ إلى بيروت لأقف إلى جانب إخواني من المُناضلين». ردّتْ بحُزن: «عندهم ما يكفيهم من المُقاتلين». «إنّني لا أستطيع أنْ أقف مُتفرّجًا». «هل انتهت القضايا الأخلاقيّة الّتي تُساندها في الأردنّ حتّى تبحثَ عن مساندتها في بلدٍ غريب». «إنّه ليس بلدًا غريبًا، إنّ الأرض كلّها لنا، وإنّ أي بلدٍ فيها هي بلدُنا، أنسيتِ؟». «ولكنّني خائفة». «لا تخافي». «إذًا سأذهب معك». «كلاّ، أولادنا هنا بحاجةٍ إلى أحدنا». «لقد كبروا ويستطيعون أنْ يعتنوا بأنفسهم». «إنّ بعضهم ما زال صغيرًا ويحتاج إليكِ يا صعدة... إنّني آمُل أنْ تنتهي الحرب سريعًا وأعود إليك وإلى الصّغار لنستأنف حياتنا كباقي خلق الله». «كلاّ، إنّكَ تريد أنْ تهربَ منّي، لا بُدّ أنْ أتانًا من أُتُن بيروت قد أغوتْك». واستلقيتُ على ظهري من الضّحك: «لا يا حبيبتي، إنّني لا أبدّلك بكل فاتنات الكون، أتشكّين بذلك؟!». «أنتم الذّكور تملكون لِسانًا معسولاً تضحكون به علينا». «ولكنّني صادق، على ماذا أُقسِم لك حتّى تُصدّقني؟». «لا تُقسِم، لا حاجة لي بقسمك، لقد أقسمَ أبوكَ من قبلُ لأمّك بذلك وتركها

من أجل أنثى أخرى». وصدمْتني بهذه العبارة، وشهقتُ لمّا تذكّرتُ ذلك، وتمنّيتُ لو أنّني أرى أبي، أو أعرفَ أينَ صارتْ أخباره؟ وهل هو حيّ أم سار الطّريق إلى الله؟! ولماذا لم يسألْ عنّي ولو مرّة واحدةً طوال هذه السّنين؟! آه يا أبي، وحبسْتُ دموعًا دفينةً خرجتْ من أعماقي، وبقيتُ ساهِمًا، أمّا صعدة فقد أدراتْ لي ظهرَها وأجهشتْ بالبُكاء.

خرجتُ في اللّيل وهي نائمة، كان عليّ أنْ أفعل ذلك، فالأنثى لا يُمكنكَ أن تُقنِعها ولو ملكتَ حِكمة لُقمان إذا كانت لا تريدُ الاقتِناع. خرجتُ بنفسي وبقلبي، وبمبادئي الّتي سبّبتْ لي كلّ هذا، ومضيتُ إلى جنوب لبنان، سأكون مقاتِلاً من اليوم؛ فأخي في الحميريّة (ميرفي) لم يكنْ أفضلَ منّي!

على الحدود أطلقوا عليّ النّار، لعنة الله على البشر جئتُ لكي أساعدهم على الهروب من الموت وهم يريدون هذا الموت لي، مرّت الرّصاصات من جانب أذنـيّ، سمعتُ أزيزها كأنّه زفيرُ جهنّم، في الحقيقة دبّ فِيّ الرُّعب فأطلقتُ سيقاني للرّيح، راحت الرّصاصات تنهمر فوقي كأنّها بَرَدٌ غزير، وسمعتُ أحدهم يصرخ: «إنّه حمار من حمير المُهرّبين،

يحمل المُخدّرات، لا تتركوه يهرب». أردتُ أنْ أقول لهم: «إنّني لا أحمل فوقَ ظهري بردعة أو خُرجًا أو حتّى سواطير أيّها الأغبياء، يُمكنكم من ظهري العاري أنْ تكتشفوا أنّني أعزل وأنّني مُسالِم». الّذي أغضبني أكثر أنّ آخَر يبدو أنّه أكثر ذكاءً من زميله راح يصرخ: «إنّه من حمير الكتائب يحمل المُتفجّرات إنْ لم تقتلوه قتَلنا». أردتُ أنْ أصرخ: «كفى... كفى... أليس منكم رجلٌ رشيد؟!». حدّثْتُ نفسي: «إنّ أحسنَ وسيلة للنّجاة هي الهروب إلى الأمام، وهكذا عدوتُ بأقصى سُرعتي لأتجاوز الحُدود، مررتُ من جانب ثكنتهم، ومطرُ الرّصاص لم يتوقّف، وفكّرت ألف مرّة بالرّجوع لكنّ صوت المبادئ الّتي أحملها منعني، وتابعتُ ركضي حتّى دخلتُ لبنان وصرتُ بعيدًا عن مرمى رصاصهم. لم أُصبْ إلاّ بنزفٍ بسيط في بطني، سال الدّم، شممتُ رائحته، هتفتُ في سِرّي: «الدّم أوّل النّضال». صادفتُ نهرًا جارِيًا، غطستُ فيه، عمّدْتُ نفسي، وخرجتُ على الضّفّة الأخرى وقد غسلتُ جرحي وتعافيتُ.

وصلتُ إلى بيروت بعدَ يومٍ من المُظاهرات الحاشدة الهادرة الّتي غطّت السّماء بهتافاتٍ غاضبة، كان بعضُها موجّهًا إلى إسرائيل، وبعضُها موجّهًا إلى الكتائب، وأخرى إلى

الفلسطينيّين، ورابعة إلى المسيحيّين، كانت الهتافات تلعن كلّ شيءٍ، وتُحمّل كلّ طرف المسؤوليّة عن اندِلاع الحرب، لم أكنْ مشغولاً بتحليل الهتافات الّتي كنتُ أعتبرها تافهة، ولكنّني كنتُ مشغولاً بإطفاء الحرائق الّتي بدا أنّها في طريقها إلى أنْ تلتهمَ كلّ شيءٍ، لم يكنْ لديّ احتِفاءٌ لا بالشّعارات الثّوريّة ولا اليساريّة ولا العُنصريّة ولا تلك الّتي تُعلن الجهاد المُقدّس، كنتُ منشغلاً بالإنسان فحسب، أحاول أنْ أُنقذه من وحشيّته، وأنْ أُعيده إلى إنسانيّته.

كان حظر التّجوّل قد أعلن عقب تلك المُظاهرات، وتمركز القنّاصة على أسطح البنايات، وخرجتُ أستطلع الأمر وأنا أعتقد أنّ الإنسان ذكيّ بما فيه الكِفاية لكي لا يُطلق النّار على حِمار، ولكنْ يبدو أنّني كنتُ مُخطِئًا!

وصلتُ إلى شارع عين الرُّمّانة كان الشّارع خاليًا تمامًا، والبنايات على جانبيه ساكنة، ولا شيء يتحرّك في الشّارع، مشيتُ وأنا أقول: لولا هذه الجُدران الإسمنتيّة لقلتُ ما أجمل المكان الّذي يخلو من البشر! لا طيفَ يلوح غير الأشباح، الأشباح أرحم من البشر، ربّما لأنّها لا تحمل سِلاحًا، ولا

تتعمّد أنْ تخيف أحدًا ما لم يكنِ الإنسان هو الّذي يخاف منها من تلقاء نفسه.

أزّت الرّصاصة الأولى، قلتُ: صوت الرّيح. أزّتِ الرّصاصة الثّانية، قلتُ: عُواء الأشباح. أزّت الرّصاصة الثّالثة، قلتُ: أنا أحلم، ولكنّ سذاجتي هي الّتي كانتْ تُجيب الأزيز في الرّصاصات الثلاث، لم أفق إلاّ عندما انهار زُجاج البناية الّتي تُقابلني، حينَها أدركتُ أنّه رصاص، وأنّه حقيقيّ: «مَنْ يُطلق الرّصاص، ليس في الشّارع بشريّ واحدٌ؟ هل هو وحشٌ يتسلّى بقتل الحيوانات؟». لكنّ الإجابة جاءتْ سريعًا، فقد اخترقت رصاصة رابعة أو خامسة أو عاشرة – لم أعدْ أدري – كفلي، واستقرّتْ عميقًا فيها، نهقتُ، نهقتُ بصوتٍ عالٍ، ولكنّ صوت الرّصاص كان أعلى، صار الرّصاص يُجيب على الرّصاص، إنّهم قنّاصة يتمركزون على أسطح البنايات المتقابلة، ويبدو أنّ صوتَ الرصاص أيقظ بعضُه بعضًا، وأنّ المتقاتلَين على الطّرفَين حسبوا أنّني أتبع الطّرف الآخَر، فالبشر لا يُفكّرون، وإذا فكّروا فبعقليّة المؤامرة، وهكذا صرتُ في غضون دقائق هدفًا يُوجّه نحوه الطّرفان – ولا أدري مَنْ هم الطّرفان – نيرانَه. وهربتُ إلى الزّقاقات الجانبيّة أتّقي الموت، فلحقَ بي الموت

حتّى في هربي ذلك، لهثتُ حينَ وصلتُ بيتًا مُهدّمًا واختبأتُ خلف أحد جدرانه الآيلة للسّقوط. لهثتُ، شربتُ من ماء كان قد تجمّع من أثر الشّتاء في إحدى الغرف الّتي أصابَتْها قذيفة، تذكّرتُ صعدة، تذكّرتُ الأولاد، وهتفتُ في أعماقي من شدّة الأسى: «ما الّذي جاء بي إلى هنا؟!!».

ذاكِرةُ الموت

الموتُ في بيروت في كلّ مكان، فوارغ الرّصاص في كلّ شارع، الحجارة تتناثر في الطُّرقات، والدّبّابات تجوس الأحياء وتهرسُ لحوم البشر الموتى، وتطحن عِظامهم، الدّبّابات لا تفعل ذلك من تلقاء نفسها، إنّما يقودها بشر! النّاس هنا لا يخرجون بعدَ الخامسة، الأشباح تخفّف من لوثة البشر، الأطفال يقبعون في حجرهم الصّغيرة، الآباء يقولون لهم: «الغِيلان تنتظر كلّ طفلٍ على الباب، إذا خرجَ فسيخطفه الغول، ويذهب به بعيدًا، وينحره، ويشرب من دمه». البشر يكذبون، دائمًا ما يكذبون، لا يُوجد غِيلان تشرب من دماء الأطفال، لا يشربُ من دماء الأطفال إلاّ البشر، أنا رأيتُ ذلك بأمّ عيني.

كان كفلي ما يزال ينزف، والرّصاصة في العمق تنام بهدوء، تستقرّ في لحمي، وتنعم بالدّفء، لا بُدّ أنْ أُخرجها، لكنّني لستُ قادرًا على ذلك، يا لَحماقتي، هل كان عليّ أنْ أترك (ياجوز)، وأتركَ صعدة، وأترك الأولاد، والأصدقاء، وحقول الياسمين، والبطّيخ في الصّيف، والماء البارد، وآتي إلى هنا؟

هنالك بيوت هُدّم جزءٌ من سقوفها نتيجة سقوط قذيفة مجهولة، القذائف لا تسقط هي الأخرى من تلقاء نفسها، لا بُدّ أنّ الّذين لقّموها للمدافع بشر، والّذين وجّهوها إلى هذه البيوت بشر، لا أحد يدري مَنْ يُقاتل مَنْ في هذه المدينة المنكوبة،

يُمكن القول إنّ كلّ أحدٍ يُقاتل كلّ أحدٍ. الموتُ يكمنُ في فوهات البنادق، البنادق الّتي يُشرِعها البشر في الوجوه، البنادق أيضًا لا تفهم هذه الوحشيّة!!

خرجتُ من البيت المُهدّم الّذي احتميتُ بجداره إلى جهةٍ بعيدة، أريدُ أنْ أذهبَ إلى مكانٍ آمن، لكن كيفَ يُمكن في زمن الحرب أنْ تجدَ مكانًا آمنًا؟! أريد أنْ أذهب إلى جبهات القتال ضِدّ الصّهاينة، أنْ أحمل الجرحى إلى المستشفيات أو إلى خطوط الهُدنة أو إلى المناطق المُحايدة؛ من أجل هذا جِئت، أريدُ أنْ أخفف عن البشر بعضَ هذا السُّعار الذي يلتهم كلّ ما يُصادفه في طريقه!

توجّهتُ إلى مخيّم عين الحلوة، قرأتُ ذلك على إشارة مكتوبة باللّغة العربيّة، كانتْ مبعوجة وصَدِئة ومليئة بالثّقوب، في الطّريق رأيتُ بشريًّا مسكينًا مثلي، اقتربتُ منه، كان يعرج، قلتُ له: «اركبْ أوصلْك». لمّا رآني فرح، كانت الحمير عملةً نادرة في الحرب، ركبني، وقادني إلى مخيّم عين الحُلوة، لمّا وصل إلى بيته المصنوع من الصّفيح، ضربني على كفلي وتركني وحدي، تلطّختْ يده بالدّم، كان كفلي ما يزال ينزف.

خرجت امرأةٌ عجوز، كان وجهها خارطة، خارطة تكشف ظلم البشر، وتكشف تاريخ أوطان مذبوحة وبلادٍ منهوبة

وحروبٍ مشتعلة من القديم ولم تنطفِئ، أو لا يُراد لها أنْ تنطفِئ، أدخلتْني إلى بيتِها، شهقتْ لمّا رأت الدّماء تسيل من كفلي، قالتْ لي: «سأنزِع الرّصاصة منك». وشتمت: «الحمير لم يجدوا غير الحمير ليُصوّبوا نحوها». أردتُ أنْ أقول لها: «إنّ الحمير لا تُصوّب بنادقها إلى أحدٍ، ولا تعترف بالرّصاص، نحن لم نخترع البارود يا سيّدتي، اسألي لتعرفي مَنْ صنع كلّ هذه المآسي». حَمّتْ على النّار مِخرزًا طويلاً، وقالتْ لي: «ستتألّم، ولكنْ عليكَ أنْ تصبر». قلتُ: «لا يعرف الصّبر أحدٌ مثلما نعرفه». لم تسمعني. غاص المخرز المُحمّى عميقًا في لحمي، كان الوجع فظيعًا، ولكنْ لا بأس يا سيدّتي، شكرًا لقلبكِ الحنون، نمتُ تلك اللّيلة في بيتها، كانتْ تبدو وحيدة، أكلتُ معها، وشعرتُ بالحنان، في اليوم الثّاني، سمعتُ صوتَ جلبةٍ في الغرفة المُجاورة من البيت، أرهفتُ سمعي؛ يبدو أنّهم مقاتِلون، وأنّهم جاؤوا من أجل التّخطيط لعمليّات سوف ينفّذونها. اقتربتُ من العجوز، قلتُ لها: «قدّميني إليهم». صُعِقتْ من الحمار الّذي يُكلّمها، أعدتُ العبارة حتّى تتأكّد من أنّني أتكلّم العربيّة بطلاقةٍ وفصاحة، ثُمّ هززتُ رأسي: «ويُمكنني أنْ أساعدهم إنْ كانوا شُرَفاء». فقالتْ: «أنتَ حمار عجيبٌ». أردفتُ: «أنا أبو صابر، وجِئتُ من الأردنّ لأقومَ

بواجبي». ضحكت هذه المرّة، وقالتْ: «تمام يا أفندم».

في اللّيل طرقتْ عليهم الباب، وقدّمتْ لهم العَشاء، كانوا يلبسون الفوتيك، ويعلّقون البنادق على ظهورهم، ويلفّون صدورهم بجنّادات الرّصاص، ويُدخّنون بشراهة. قالتْ لهم: «لدينا مُقاتلٌ جديد، اسمه أبو صابر، يُمكنكم الاستِعانة به».

صرتُ بعد أسبوع أهمّ مُقاتلٍ في كتيبتهم، أحمل الماء على ظهري في طرق الموت، لا أحدَ من البشر يجرؤ على عبورها، أعبرها لسببٍ واحدٍ، أنْ أُرضي ضميري، الضّمير مشكلة، له وجهٌ واحدٌ عندي، وهو عند البشر بلا وجه أو بألف وجه، ولستُ مُضطرًّا إلى أنْ أبرّر للبشر أفعالهم، يكفيني أنْ أقوم بما أقوم به وأنا مرتاح، والّذي خلق الخَلْق يعرفُ كلّ شيءٍ ويراه.

الطّريق إلى الجنوب تمرّ بحواجز كثيرة، وكلّ حاجز يتبع لجهة، وحتّى الجهة لها أكثر من رأس، وتنقسم على نفسها إلى أجزاء كثيرة، وكلّ حاجزٍ يطلبُ هويّتك. كان الأمر في الشّهور الثلاثة الأولى يمرّ بسلام، في الشّهر الرّابع استشرتْ عمليّات الاغتِيال، صارتْ عنوان المرحلة، اغتيل فلان الماروني، فردّوا باغتيال فلان الفلسطينيّ، فردّتْ جماعة هذا الفلسطينيّ باغتيال فلان الكتائبيّ... وهكذا دارت دورة الاغتيالات على الجميع فلم ينجُ أحدٍ.

بعد حُمّى الاغتِيالات الّتي لم أفهمهما إلى اليوم، ولا كيفَ كان يختار فريق الاغتيال الشّخصيّة المُغتالة صار التّدقيق على الهُويّات كبيرًا. كنتُ أرى أناسًا يُسحَبون من على الحواجز لدقائق ثُمّ أسمع صوت الطّلقات، وصرخةً يتيمة، ومن بعدها يسكنُ كلّ شيءٍ. أفظعُ ما في الهويّة أنّه كانتْ هناك خانة فيها للدّين أو للمذهب، فصار القتل على نوع الدّين أو المذهب. عشرات إنْ لم يكونوا مئات سقطوا أمامي بسبب هذه الخانة اللّعينة.

كان المطر في اللّيل قد غطّى الشّوارع، واستمرّ هطوله منذ الظّهيرة، ونحن نسير من حاجزٍ إلى حاجز عائدين إلى مخيّم عين الحلوة، قال الضّابط المُخوّل بالتّفتيش: «هويّاتكم». مدّ الشّباب الّذي يرافقونني أيديهم إلى جيوبهم واستخرجوا هُويّاتهم، قال الضّابط: «والحِمار؟». نظر أحدهم متفاجِئًا إلى الضّابط، وقال وحدقتا عينَيه متّسعتان: «الحِمار بلا هُويّة!! كيفَ يكون للحمار هويّة يا سيّدي؟». صرخَ في وجهه: «اخرسْ». أردتُ أنْ أتدخّل، أنْ أقول: «إنّ هويّة الحِمار هي الهُويّة الصّادقة الوحيدة في عالمكم المليء بالزّيف والأكاذيب أيّها البشر». كرّر الضّابط: «هاتِ هويّة الحمار يا حِمار». ثُمّ أمرهم بتفتيش الخُرج الّذي أحمله على ظهري، قام بذلك عسكريّ آخر، وهتف: «لا يُوجَد غير مجموعة من الأدوية والشّاش

الأبيض يا سيدي». «هاتِها» قال الضّابط، البشر لصوص مَنْ يستطيع أنْ يقول غير ذلك. نظر الضّابط من جديد في الهُويّة، وقرأ خانة الدّين، وأشارَ إشارةً معيّنة إلى عساكره، فصوّبوا بنادقهم نحونا، على الفور سقطَ ثلاثةٌ وسط بركةٍ من الدّماء، استدرتُ بسرعة ورفستُ الضّابط على وجهه فخلعتُه وسقط على الأرض، ثُمّ وجّه الآخرون بنادقهم إليّ وهم يصيحون: «الحمار اللّعين... اقتلوا ابن الشّرمـ.. هذا». واجتمع آخرون حول الضّابط ليُسعِفوه، ونجوتُ بأعجوبة!! وعُدتُ وحدي إلى العَجوز. حدّثْتُها بكلّ ما رأيتُ، وبكيتُ طويلاً في تلك اللّيلة، وظلّت العجوز إلى جانبي تُواسيني.

صار صوتُ الموت ذاكرة، الرّصاص، رشقات الصّواريخ، قذائف الطّائرات، طلقات المدافع، صارتْ كلّها جزءًا من ذاكرة عميقةٍ لا يُمكن أنْ تُمحَى، رائحة اللحم البشريّ المشويّ في نيران الحرب صار جزءًا آخر من الذّاكرة، لون السّواد في البيوت والحجارة والأخشاب المُتفحّمة جزءًا ثالثًا من الذّاكرة، صرخات المنكوبين وصياح الجرحى واستغاثات الأطفال صارتْ جزءًا رابعًا من الذّاكرة؟ ما كُنه هذه الذّاكرة الّتي تُشكّلها الحرب؟!!

ظَهْري هذا الّـذي خلقه الله لكم أيّها البشر يشهد على تاريخٍ طويلٍ من مجازركم، هنا حملتُ مئات الجثث، وآلاف

الجرحى إلى الطّرف الآخَر، كان الخُرج المُستقرّ على ظهري يحوي الدّواء الّذي تتداوون به، والخُبز الّذي تعتاشون عليه، والأمل الّذي يُنقذكم من هُوّة اليأس، لكنّني لم أعدْ أحتمل، لم يعدْ قلبي قادِرًا على تجرّع كلّ هذه المرارات، لقد خدمتُكم في هذه الحرب ثلاث سنوات، وورائي زوجةٌ حَنونٌ تركتُها لأجلكم، وأولادٌ رائِعون ينتظرون عودتي، لقد تعبتُ من البشر وسأعود، سأعود وما زال لديّ أملٌ أنْ تحدث مُعجِزة فتُوقف كل هذه الكوارث.

حدّقتْ صَعْدة بي، صوّبتْ نظرها إليّ مِرارًا لكنّها لم تعرفْني، لقد غيّرتْني الحرب، ولكنْ لا، لم تُغيّرني الحرب، لأكنْ أكثر دِقّة، ما غيّرني هو جُنون البشر في اقتراف خطايا الحرب، قلتُ لها: «أنا أبو صابر يا صَعْدة؛ هل تغيّرتُ إلى هذا الحَدّ؟». احتضنَتْني، وبكتْ بحرقة، وهتفتْ: «ظننتُ أنّكَ متّ، أنّكَ لن تعود، لماذا لم تبعثْ لي برسائل حتّى أطمئنّ عليك... يا قاسي القلب ثلاث سنوات دون كلمةٍ واحدة». «أنا متأسّف يا صعدة، الحرب لم تتركْ لي فرصةً لالتِقاط أنفاسي، كانت النّيران تنهال علينا من كلّ اتّجاه، لم تُمهلْني لحظةً من نهارٍ أو ليلٍ لكي أكتبَ لكِ... سامحيني». «سأسامحك إذا وعدْتني بأنّكَ لن تتركْني مرّة ثانية». «أَعِدُكِ، أعدُكِ يا صَعْدة».

ما نَفْعُ الوَردِ على تابُوت؟!

سأكون سفيرًا للسّلام يا صَعْدة، الأولاد كبروا، تعليمهم مُمتاز، حياتهم غير حياتنا، زمانُهم مُختلف، مليء بالمآسي نعم، ولكنّنا نرجو أنْ يكونوا قادرين على تغييره، هل يُمكن أنْ ينجحوا أكثر من أبيهم في تغيير عقليّة البشر؟ في نظرتهم إلى الحيوانات؟ في أنْ يلمسوا الجَمال في كلّ ما وهبهم الله؟ في الطّبيعة؟ في أنفسهم؟ في نسمات الصّباح الباردة المُنعشة؟ في خَفَقات صدْر الأنهار الجارية؟ في مشي السّحب الوئيدة؟ في الليالي المُقمرة؟ في الحقول الثّرثارة بالسّحر؟ لماذا لا يرى البشر؟ كلّ ما عليهم فِعله أنْ يُغمِضوا عيونهم ويتخيّلوا.. ويعيشوا ما يبسطه القلب أمامهم من لوحة الجَمال؟ أغمِضوا عيونكم أيّها البشر مرّة واحدةٍ عن الشّرّ، وتخيّلوا كيفَ يتجلّى الله في خَلْقِه!

طُفتُ العالَم مع صَعْدة، ذهبْنا إلى أقاصي الأرض، كانتْ أرجُلنا تحملنا إلى ما وراء النّهر، إلى التّاريخ، رأيتُ جدودي الّذين خدموا البشريّة، رأيتُ طُيُوفهم في كلّ مكان، ما من واحدٍ منهم تنكّب عن الدّرب، أو خان العهد، أو تقاعسَ عن أداء واجبه، وما ذَكَرنا أحدٌ من البشر منذ فجر التّاريخ بما يشفي

القلب من حَقّنا، ظَلَلْنا في ثقافاتهم رمزًا لكلّ ما هو قبيح، ولا قبيح إلاّ ما رآه البشر قبيحًا، فالله الجميل لا يخلقُ إلاّ جميلاً، والله الجميل يُحبّ الجَمال، ونحن آيةٌ من آياته كما كان الخَلْق في أدقّ تفاصيله.

رأيتُ كثيرًا من ثقافات البشر في كلّ أصقاع الأرض، رأيتُ عاداتهم، وعرفتُ أنّ كثيرًا منها تسرّبتْ إليهم من خِلالنا، قصدوا ذلك أم لم يقصدوا، دَرَوا به أم لم يَدرُوا. في باكستان والهند هناك جِبالٌ وعرة لا تصعدها إلاّ أقدامُنا، نحن الّذين حملْنا البشر إلى الذُّرى، كُنّا نقول لهم نحملكم ونُريحكم، فقط احمدوا الله على نِعَمه، وأفرِدوه بالعِبادة والشُّكر، ولكنّهم كانوا يأبَون، كان بعضُ فقرائهم يحملون الرّجل السّمين على محفّة ويصعدون به إلى بيت الداي لاما مقابل قُريشات قليلة، كانوا يكسبون رِزقهم بذلك، ولو طلبوا منّا تلك الخِدمة لأرحناهم ولأجبناهم إلى طلبهم دون مِنّة، ولصار رِزقهم وافرًا وواسِعًا!

يا صعدة، لقد طُفت قُرى الأردنّ في شبابي مع الشّيخ عليّ، واليوم أطوف قرى العالَم في شيخوختي معك، هل خُلِقَ الواحد منّا إلاّ لكي يضرب في الأرض، هل الحياة إلا

رِحلة؟ الّذين يبقَون في أماكنهم يهرمون سريعًا، يموتون أسرع، يشيخون وهم ما زالوا في شبابهم... أريدُ أنْ أرى الله في كلّ مكانٍ. أريدُ أنْ أرى عَظَمته تتحدّث بكلّ لسانٍ، أنا باحثٌ عن الله والله يدلّه!

شربتُ الشّاي في سيلان، وأكلتُ الفطائر المقليّة في الأرجنتين، وهرستُ الهريس في الإمارات، وتذوّقت دجاج موامبا في أنغولا، وحزنتُ لأنّ بلادهم منسيّة لا يزورها إلاّ نفرٌ من العالَم الحُرّ أو الّذي يُسمّي نفسه كذلك من أجل السّيطرة على ثرواته المنسيّة أيضًا، في أكثر من بلدٍ في جنوب أفريقيا عرفتُ كيفَ يأكل البشر البشر، ينعم الرّجل الأبيض بالذّهب والماس ولا يترك لأهلها إلاّ الحجارة. تذوّقتُ الكابولي مع البشتون في أفغانستان، وعدوتُ مع عدّائي الطيّارات الورقيّة هناك في السّهوب. وتحت أشجار السّرو العالية الّتي تنحني قممها لتلقي ظِلالها على الأرصفة تذوّقتُ الكباب في إيران، والبرياني في الباكستان، والخِراف المحشيّة في أستراليا، وتذكّرتُ الكولونيل المطبوخ والمفتوح فمه عن ضمّة البقدونس في خريف البطريرك لماركيز الكولومبيّ، وتلذّذتُ

بطعم البطاطس المقليّة في بلجيكا، وشاركتُ العرب المنفيّين فيها همومهم، وكنتُ أحاول في كلّ ذلك أنْ أختلط بالبشر لكي أفهمهم، وما وجدت حتّى اليوم إلى فهمهم سبيلاً!!

وفي فرنسا كانت أنواع الجُبن الّتي تملأ الموائد، لها أكثر من خمسين لونًا وطعمًا ورائحة، وقسرتُ نفسي على أنْ أفهم كيفَ يأكلون النّوع العفن منها فلم أنجح. وأعجبتْني التّبّولة في الشّام لأنّها كانت من الحشائش والحبوب وهي الأنواع المُفضّلة لديّ، ومن نافلة القول أنْ أُحدّثكم عن المنسف في الأردنّ وفي جنوبها على الأخصّ. وفي مصر الفول المدمّس والكُشريّ والفَطير المشلتت، والملوخيّة الّتي كانتْ تدلّ رائحتها على بُيوتاتِهم. وفي التّشيك تحلّيتُ بالزلابيا، وتخيّلتُ ابن الرّومي وهو يُنشِد:

رأيتُه سَحَرًا يَقلي زلابيةً
في رِقّة القِشْر والتّجويفِ كالقَصَبِ
يُلقي العَجِينَ لُجينًا مِنْ أناملهِ
فيَستحيلُ شَبابِيطًا مِنَ الذّهبِ

فقلتُ لا بُدّ أنّ لهم أُصولاً عربيّة. لم أدعْ شيئًا إلاّ جرّبْتُه، وهل من حكمةٍ إلاّ عن تجربة!!

رأيتُ قوّاتٍ تتقدّم إلى خطّ الهُدنة وتقتحم البيوت الآمنة، وتجرف الطّرقات السّالكة، وتُطلق وابل نيرانها وتقتل عددًا كبيرًا من البشر العُزّل وتعود إلى ثكانتها، ويشربُ القتلةُ بعدها الشّاي كأنّما كانوا في نُزهة!! ورأيتُ بساطير تعلو الأجساد العارية، وسكاكين يذبح بها الإنسان أخاه الإنسان كما تُذبح النّعجة، ورأيتُ أقوامًا يقولون إنّ الله قد أمرهم بالذّبح، وإنّهم يُنفذّون مشيئة الله الغالبة في البشر. ورأيتُ أقوامًا يهتفون باسم موسى وباسم المسيح وباسم محمّد وباسم بوذا وباسم كريشنا وبأسماء كثيرة، ولكنّني لم أرَ موسى ولا عيسى ولا مُحمّدًا ولا غيرهم يأمرهم بذلك، لقد وكّلوا أنفسهم بالذّبح عنهم، وهم منهم بَراء!

لقد قضيتُ عشر سنواتٍ سائحًا في بلاد الله المُترامية الأطراف، ولم أعرف بعدُ الكثير، ولم أعرفْ من نفسي إلاّ بمقدار ما يجعلني في قلقٍ دائم إلى معرفة المزيد، أمّا صَعْدة فكانت تعرفني أكثر منّي وتذكّرتُ قصيدة نِزار:

وطفتُ الهندَ طُفْتُ السّندَ طُفْتُ العالَم الأصفَرْ

ولم أعثُرْ

على امرأةٍ تُمشّطُ شَعريَ الأشقَرْ

وتحملُ في حقيبتها

إليّ عرائِسَ السُّكَّرْ

وعُدتُ إلى الأردنّ، وأنا أُمنّي نفسي بنبيّ جديد أحمله فوق ظَهري، لكي يدخل القُدس فاتِحًا، كما فعل المسيح ذات يوم، ولكنّ الأنبياء انتهَوا، والحمير الّتي يُمكن أنْ تحملهم انتهتْ، وأنا أُفتّش عن حياةٍ غير الحياة.

ومرضتْ صَعْدة، كان التّطواف في بلاد الله صعبًا، وأنْ تُجبر نفسكَ على أنْ تُمالحهم وتأكل طَعامهم أصعب، قالتْ لي صَعْدة: «إنّني أجدُ طِعمة البلاد الّتي طُفناها في كبدي». ولم يدرِ أحدٌ من الأطبّاء طبيعةَ مَرَضِها، وكان كلّ طبيبٍ يُعاينها يهزّ رأسه أسفًا. نحنُ مصابون بداء الحنين يا صعدة، النّجاة منه تكاد تكون مستحيلة، مشاعرنا لم تعدْ تتحمّل، قلوبنا تصدّعتْ لهول ما رأتْ. كُنّا نريدُ بالتّطواف في الأرض أنْ نروّح عن

أنفِسنا فقتلْناها، أنْ نُشفَى من البشاعات الّتي تنتشر كالفيروس في الهواء فوقعْنا فيها، وها نحنُ؛ خالين من كلّ شيءٍ إلاّ من عشقنا الّذي لا يموت.

وفي مساء يومٍ أرجوانيّ، كُنّا نتحدّث عن كلّ ما مرّ في حياتنا، وكانت الرّيح تنقلُ إلينا أصواتًا مختلطة غائمة كأنّها قادمةٌ من جُبّ عميق، سمعْنا فيها حكايا الرّاحلين من أجدادنا، وكانت صَعْدة هادِئة ومُطمئنّة وتبتسم بين حينٍ وآخر، وهي تقول: «ما مرّ عليّ يومٌ في صحبتكَ أجمل من هذا». كانت شجرة الصّفصاف هي الأخرى تبتسم، حفيف أوراقِها كان يختصر مشاعر العشق كلّها، وقلتُ لها: «لقد تعبْتِ معي». فقالتْ: «ألم يَئنْ لي أنْ أرتاح». فقلتُ: «نرتاح معًا». فردّتْ: «أنا سأمضي، وأنتَ عليكَ أنْ تتابع الرّحلة». فقلتُ: «أيّ رِحلةٍ سيكون لها طعمٌ من دونك؟».

ونمنا ونحن أسعدَ اثنَين في العالَم، ولمّا صحوتُ كانتْ صعْدة قد ماتت، وتركتْني وحيدًا أواجه هذا الصَّخَب المتلاطم في بحر الحياة. حفرتُ لها قبرًا تحت شجرة الصّفصاف تلك، ربّما يذكرها الخلق ذات يومٍ عندما يمرّون بالقرب من هذه

الشّجرة، ويُشيرون إليها: «لقد غيّرتْ مجرى النّهر».

وهتفتُ: «وا أسفا على صَعْدة». وثقب الحُزنُ قلبي على فِراقها، وزهدتُ بالدُّنيا، ووضعْنا أنا والأولاد الزّهور على قبرها، وبكيْنا فقدها معًا، كان جسدي يرتجّ، أحسستُ أنّني هيكلٌ فارغٌ من الدّاخل، وكتْبتُ على الشّاهد:

لا شَيْءَ يَمُوتْ

خالدةٌ ذكراكِ العَطِرةِ يا ياقوتْ

مَنقوشٌ رَسْمُكِ واسمُكِ في المَلَكُوتْ

فلْتَبقَيْ نَجمي حينَ يُصِيبُ النّجمَ خُفوتْ

فأنا بعدكِ غُصنٌ مَقطُوعٍ مِنْ شَجَرِ الحُبّ...

وقَلْبٌ مَبْتُوتْ

يا صعدةُ ها أنذا أنثر روحي وردًا فوقَ القبرِ

ولكنْ...

«ما نَفْعُ الوَردِ على تابوت؟!».

وتولّى الأولاد إلى أعمالهم، فلديهم زوجاتهم، وشؤونهم

الخاصّة الّتي يجب عليهم أنْ يُتابِعوها. وأقمتُ على قبرها عشرة أيّامٍ لا أبرحه، أنام بجانب الشّاهدة، وألقي برأسي عليها كأنّني ألقي به بين أحضانها، وحرّمتُ الطّعام على نفسي حُزنًا على فِراقها وبقيتُ صائِمًا شهرًا كامِلاً، حتّى دَقّ عُودي، ووهن عظمي، وعَتَمَتْ روحي، ثُمّ تراءتْ لي في المَنام، وكانتْ قمرًا أضاء الدُّجُنّة، وكانتْ تبتسم، فسألتُها: «هل أنتِ حيّة؟». فقالتْ: «ها أنتَ تراني». فقلتُ: «عودي إليّ». فقالتْ: «قضَى الله ما قضى». فقلتُ: «إنّني بلا قلبٍ دونك». فقالتْ: «انظر». وأشارتْ إلى قلبي، فنظرتُ فإذا هو أخضر كأنّه ياقوتة، فقلتُ: «أنا أحلم؟». فقالتْ: «الحياةُ كلّها حُلم». ثُمّ انطفأتْ كأنّها شهابٍ لَمَع فجأةً ثُمّ غاب، وبكيتُ في داخلي، ولمّا استيقظتُ كانت الشّمس قد ارتفعتْ في كبد السّماء.

في ذلك اليوم ظللتُ أطوفُ على أشجار الرُّمّان وأبكي، ألوذُ بالباب العتيق عند شُجيرات الورد الجوريّ الّتي لم يسقِها أحدٌ من أهل البيت منذ سنين وأبكي، خرجتُ إلى سهول ياجوز أمشي بلا قلبٍ في الطّرقات الّتي مشتْها معي وأبكي، جلستُ قليلاً عند شجرة البُطم الّتي ألقيتُ فيها خِطاب التّأسيس لحزب

الحمير والآلاف يومئذٍ تُصغي، ونظرتُ من تحت تلك الشّجرة إلى السّهل الممتدّ أمامي فلمْ أرَ فيها أحدًا سِواها وكنتُ أبكي. وقفتُ على النّبع الّذي شربْنا منه معًا، فسقطتْ دموعي فيه وسالتْ مع مائه، ولا أدري كيفَ استعار النّبعُ مائي! ركضتُ إلى لا جهة فاستوقفنَي صوتُ كناريٍّ كان يُغنّي على غصنِ شجرةٍ في الطّريق فتخيّلْتُه يبكي مثلي. صعدتُ على هضبةٍ في مرج الفرس، واعتليتُ صخرةً فيها وأردتُ أنْ أتردّى من هناك، وألقي بنفسي من الهاوية، وأضعُ حدًّا لحياتي فسمعتُها تقول: «لا تبكِ». نفضتُ رأسي ومضيتُ وأنا أعرفُ أنّني أهذي، فمررتُ بحقلٍ فسيحٍ تتماوج فيه زهورٌ برّية حمراء وصفراء وبيضاء والفراشات تحوم فوقَها، وأسراب من الطّيور تعبر الفضاء، وأصواتُها تتناهى إلى سمعي وأنا أبكي. وانتبهتُ إلى نفسي: «ما الّذي يجري...؟! كلّ هذه المخلوقات الّتي تُغنّي فقدتْ أحبابَها هي الأخرى... أنا لستُ وحيدًا في هذه المأساة إذًا». وشعرتُ ببعضِ العَزاء. لكنّه كان عَزاءً مؤقّتًا، إذْ ما كدتُ أثوبُ إلى نفسي، حتّى رأيتُ الشّمس تجنح للغروب، كانتْ شاحبة، ذابلة، كأنّها ترحل ولن تعود، وكان شُعاعها ينوس،

وشعرتُ أنّني أنوسُ مثله، وأنّني وحيدٌ مثلها، وأنني أقطعُ كلّ هذه المسافات غريبًا دون رفيق، و... رحتُ أبكي من جديد!!

مكتبة
t.me/t_pdf

المَشّاؤون

ومضيت من ياجوز إلى سُوف، وعلى إحدى إشارات المرور رأيت فتى بملابس رَثّة يبيع الأزهار للعُشّاق والبرد يقرصه فيرتجف، وتذكّرتُ صَعدة، وانتابني حنينٌ جارفٌ إليها، وابتلعني في جوفه المُظلِم كما ابتلع الحوت يُونس، وسبّحتُ باسم الله، ثُمّ بالعشق فخرجتُ، وصعدتْ دموعي إلى عينَيّ، ولمّا نظرتُ خلفي إلى مُقامي تحت شجرة البُطم وأيّامي الخوالي مع رفيقة الدّرب، انسكبتْ دموعى انسِكابًا، ووجدتُني دون أن أدري أُردّد مع السياب:

ولولا الدّاءُ ما فارقتُ داري يا سَنا داري

وأحلى ما لقيتُ على خَريفِ العُمرِ من ثَمَرِ

هُنا لا طيرَ في الأغصانِ تَشدُو غيرَ أطيارٍ من الفولاذِ

تَهدُرُ أو تُحَمْحِمُ دونَما خوفٍ مِنَ المَطَرِ

ولا أزهارَ إلاّ خلفَ واجهةٍ زُجاجيّةْ

يُراح إلى المَقابِرِ والسُّجونِ بِهِنّ والمُستشفياتْ

أَلا يا بائعَ الزَّهَرِ

أَعِنْدكَ زَهرةٌ حَيّةْ؟!

وفي غروب اليوم الثّاني وصلتُ إلى جبل النّبي هود، وتراءت لي بيوتات سوف من بعيد، تتهيّأ لكي تُضيء مصابيحها

الوادعة لتستقبل اللّيل البهيم، وكانتْ أشجار الطّريق تُسلّم عَلَيّ، ووصلتُ إلى شجرات الصّنوبر العتيقة، وأرحتُ تحتها، ونمتُ اللّيل، وأنا أحلم بأنْ أستيقظَ فأجدني إلى جانب روحي؛ روحي الّتي صارتْ تبحثُ عن مُستقرّ لها ولو تحت التّراب!

عُدتُ إلى الخَلوة الّتي انتزعتْني منها صَعدة، اعتكفتُ في كهفٍ أعلى قمّة جبل ابن الأدهم في سُوف، وتفرّغتُ من بعدها لكي أكتب مذكّراتي، مكثتُ عشر سنواتٍ، كنتُ قد تخلّيتُ فيهنّ حتّى عن نفسي من أجلها، لولا بصيص من الأمل لقلتُ إنّ العالَم يستحقّ زلزالاً أو طوفانًا لا يُبقي فيه على أحدٍ.

في الحجارة الّتي آوي خلفَها فوق قمّة الجبل، عشتُ أعوام العُزلة، العُزلة تحمينا أحيانًا من العبثيّة، من الشّعور بالخُواء، وفيها يُمكن للقلوب المُنفطرة أنْ تستعيدَ أنفاسَها من أجل أنْ تُصلح ما انكسر، كانتْ قد انكسرتْ فِيّ أشياء كثيرة، موتُ صَعدة أراني كم هي مُخيفة وكثيرة تلك الأشياء، ربّما وجودها إلى جانبي هو الّذي كان يُخفيها أو يُؤجّلها إلى حين. أنا الآن أفضلُ حالاً. أرعى النّجوم في اللّيل، وآكل ما يُبقيني قادِرًا على أنْ أنظر إلى هذا العالَم بعينٍ مُختلفة.

والحياة تمضي، مِثْل ما يمضي شهابٌ في السّماء، ربّما لا أحدَ يعرف من أين جاء، وكيف لمع، ولا كيفَ انطفأ في رحلته

السّريعة الخاطِفة. هل نحنُ شُهُب؟!

لا أعرفُ كيفَ ولدتْني أمّي، كيفَ جاءتْ ومضتْ، وكيفَ قذفتْ بهذا الشّهاب الّذي أنا هو لكي يستعدّ للانطِفاء، أمّا أبي فلم أسمعْ عنه خبرًا منذ ستّين عامًا، لا شيءَ ألبتّة حتّى داخلني الشّكّ في أنّه حقيقيّ، أو أنّ لي أبًا، أو أنّه كان موجودًا على هذه الأرض، ولكنْ كيفَ وُلِدت؟ نفحة، أم نفخة؟ أم حُلُمًا؟ هل أنا أهذي؟ ربّما. العُزلة تفعل أشياء غريبة في صاحبها، كم أنا مُحتاجٌ إلى أنْ أرى!

العُزلة أيقظتْ فِيّ حِسّ الفلسفة الّذي مات، بعد ثلاثة أعوام من تلك العُزلة تُصبح خلقًا آخَر، يستقيظ الفيلسوف النّائم في أعماق كلّ أحدٍ، أنا رعيتُه جيّدًا، وتجربتي مع الحياة والنّاس جعلتْني أتفلسفُ كما فعلَ المَشّاؤون، الفارابي كان في هذا شيخي، غموضه اللّذيذ، وزُهده بكلّ شيء، وزريّته بالعيش. اليوم أنا أقطف تلك الثّمرة، انتظرتُ لكي تنضج أكثر من نصف قرنٍ.

ها أنذا أرى الحياة على نحوٍ عميق، أرى ما خلفَ وجهها الخادع، أليستْ تلك هي الفلسفة في أعمق تصوّراتها؛ أنْ نفهمَ الحياة، لا أظنّ أنّ هناكَ خلقًا فهموها أكثر منّا نحن الحمير، إنّنا أعطينا دون مقابل، ومشينا دون توقّف، وصبرنا دون جزع،

ورضينا دون سُخط؛ تلك هي الفلسفة.

على الحجارة كنتُ أرى نصوصي الفلسفيّة تنكتبُ بماء القلب، لم أكنْ أملكُ دواةً ولا حِبرًا ولا ورقًا أو جِلْدًا أكتبُ فوقه، كنتُ أرى، وذلك يكفي. لكنّني على أيّة حالٍ مُحتاجٌ إلى منْ يُساعدني في أنْ أكتب، في أنْ أُملي عليه فأدوّن تأمّلاتي، إنّ ذلك لا ينبغي لأيّ أحدٍ، ولا يستطيعه إلاّ القليلون. فكّرتُ فيمن أعطاهم الله أصابع كي يكتبوا، نِعمةٌ لا يُقدّرها البشر، وحدهم أعطاهم الله هذه النِّعمة وخَصّهم بها، مَنْ يرى؟!

هل هي النّهايات؟ أنا أرى. لكنْ من يكتبُ عنّي البدايات قبل أنْ تُغيّبني الحياة، قبل أن أرحل مع الرّاحلين، أحتاج إلى بشريّ يرى، يرى مثلي؟! أين يُمكن أنْ أجدَ هذا البشريّ؟ هل من السّهل أنْ أعثر عليه؟ مَنْ يدري؟!

من عُزلتي كنتُ أسمع أصوات البشر الصّاعدين إلى مزارعهم في هذا الجبل، والهابطين إلى بيوتاتهم في سَفْحه، لم أكنْ أعير أصواتهم أيّ انتباه، إنّها من النّوع الّذي يبتلعه الهواء ثُمّ يتقيّؤه على الفور ليتخلّص منه، لا قيمة للكلام، الكلام رُغاء، غُثاء، خُواء، هُراء، وأشياء كثيرة مثل هذه، إلاّ الكلام الّذي يكون لك، الخلق لا يُميّزون هذا النّوع من الكلام، إنّهم يبدون غريبَين عنه، لا يعرفونه، لا يقتربون منه، لا يبذلون له أيّ بارقة،

ولا يبذرون له أيّ حَبّ. إلى أنْ حدثَ ما لم أتوقّع! رأيتُ ذاتَ مساءٍ بشريًّا لم أره من قبلُ، يجلسُ تحتَ شجرةِ بلّوط قريبٍ من كهفي، ويبدأ الغِناء، كان يملك نايًا يعزفُ فوقَه لحنًا شجيًّا سَحَرني، فصرتُ أُصغي إليه دون أنْ يلحظَ وجودي.

جاء في المساء الثّاني، وعزفَ لحنًا آخَر، وغنّى أشعار السّهروردي، وفي المساء الثّالث فعل الشّيء ذاته، وغنّى من بعدُ الحلاّج وابن الفارض وابن سينا وأبا يزيد البُسطامي... وهتفتُ: «هذا البشريّ عارفٌ بالله». واستمرّ يأتي إلى المكان، وأنا أُصغي إليه من كهفي دون أنْ يشعر بوجودي، وأطربُ للكلمات الّتي يُغنّيها، كانتْ الكلمات تطير في الفضاء المُعتِم كأنّها فراشاتٌ من النّور، وتظلّ تُحلّق سابحةً إلى الأعلى حتّى تتّحد بالمَلَكوت.

استمرّ هذا البشريّ يأتي إلى شجرة البلّوط العتيقة، يُغنّي ويقرأ، ويتمايل كصوفيّ من شدّة الوَجْد، وسمعتُه ذات يومٍ يُنشِد:

فَلَوْ أنّي اسْتَطَعْتُ خَفَضْتُ طَرْفِي
فَـلَـمْ أُبْـصِـرْ بِـهِ حـتّـى أَرَاكـا

فهزّني البيتُ هَزّا، ورجّني رَجًّا، وبَسّني بَسًّا، وتمايلتُ حتّى مادتْ بي الأرض، وكدتُ لشدّة الطّرب أنْ أصرخ، لكنّني خِفتُ أنْ أُفسِدَ عليه خلوته فيعلمَ بوجودي فينقطعَ مجيئُه إلى هنا، فكتمتُ صوتي من أنْ ينشقّ من أعماقي. ورجوتُه في نفسي أنْ يُكمل، وسمعتُه يُحدّث آخَر بكلماتٍ غير مفهومة، أقربُ إلى الغمغمات الحزينة، فحدّقتُ النّظر لأرى الشّخصَ الّذي يُكلّمه، فلمْ أعثرْ إلاّ على الفَراغ، فقلتُ: «مجنونٌ مثلي!».

ودأبَ ذو النّاي على الجلوس تحت تلك الشّجرة يُغنّي ويُحدّث طيوفًا لا أراها أكثر من عشرة أشهر وأنا أُخفي عنه نفسي، حتّى جاء يومٌ، وانتظرتُه في المساء انتظار الصّبّ المُستهام فلم يأتِ، واستوحشْتُ، وبدا المكان فارغًا من كلّ شيءٍ، ونظرتُ إلى قلبي فإذا هو خاملٌ، باردٌ، ليس فيه رُواء، وقلتُ: «لعلّ حابِسًا حبَسَه، وربّما يتأخّر المحزون، لكنّه في النّهاية سيجيء». ولم يأتِ. مرّ نجمٌ ونجمان وألفُ نجم، وعَبَرَتْ غيمةٌ وغيمتان وألفُ غيمة، وصوّتَ غرابٌ وغرابان وألفُ غراب، ولم يأتِ. فسقطتُ في اليأس كأنّني حجرٌ غاص إلى قاع بركة، ولم أستطعْ تلك اللّيلة أن أنام.

فلمّا ألقى النّهارُ ثوبَه على الجبل، خرجتُ من كهفي إلى المكان فلم أر له أثرًا، إلاّ أنّني رأيتُ نايًا مكسورًا تحت شجرة

البلّوط تلك، فلم أشكّ أنّه له، وقلتُ: «الفتى كسرَ نايه»، فعرفتُ أنْ روحه انطفأتْ، وأنّه رأى منّي ما لم يحمَدْ، وشعرتُ أنّني ضِعتُ عنّي.

وفي تلك اللّيلة لُمتُ نفسي حتّى كدتُ أذوب، وأنا أقول: «لعلّه أحسّ بوجود مَنْ يُراقبه، فلم يشأْ أنْ يُفتَضح سِرّه... لعلّه عرفَ أنّ الله لا يقبل في مناجاته الشَّركة...». وظلّت لَعَلاتي تطعنني حتّى ذويت، وقطعتُ من بعدها أيّامًا كانتْ أطول عليّ من الدُّهور، حتّى جاء مساءٌ رأيتُه من كُوّة في الكهف يصعدُ الجبل ومعه نايُه، فطرتُ من الفرح، وقلتُ: «ها قد أقبل... يا لَسَعْدِكَ يا أبا صابر!». وعزمتُ أنْ أعرّفه بنفسي، وأنْ أطلب منه أنْ يكون صديقي دون أنْ يدور بيننا حديث، فقط أكتفي بسماع أسرار الوجود في نايه ولو على البُعد. وبقيتُ في كهفي متحمّسًا، حتّى رأيتُه يجلسُ تحتَ الشّجرة إيّاها، ويبدأ بالنّشيج:

أَبَـرْقٌ بَـدا مِـن جانِبِ الـغَـوْرِ لامِـعُ
أمِ ارْتَفَعَتْ عَنْ وَجهِ ليلى البَراقِعُ؟

فهزّني الطّرب القديم، وحرّكني لاعج الشّوق العَميم، وبعثرني العِشق في كلّ جهة، حتّى إذا وصل إلى قوله:

وهل عامِرٌ مِـنْ بَعدنا شِعبُ عامرٍ
وهـل هـو يـومًـا للمُحبّين جـامِعُ؟

صعّدَ فِيّ الحنينُ زَفَراتِه حتّى ظننتُ أنّها سُتذيب حجارة الكهف، فتماسكْتُ وأنا أنهار، وتمالكتْ وأنا أذوب، فلمّا غنّى:

وهل لي بجمْعِ الشّملِ في جمعِ مُسعدٍ
وهل لليالي الخِيْف بالعُمر بائعُ؟

خرجتُ من كهفي وأنا أتمايل وأصيح: «أنـا... أنا ... أنا أبيعها لك أيّها الفتى». وسكتَ هو عن غنائه، والتفتَ ناحيةَ الصّوت فرآني، فجمدتْ أصابعه على النّاي، وجمدتْ شفاهه على الحروف، وظللتُ أجرّ خُطاي إليه وأنا أخشى أنْ يفارقني، وأقول: «أنا... أنا أيّها الفتى...». فلمّا وقفتُ بشجرته، أردفتُ: «أنا... أحسنُ مَنْ يهيمُ معك في هذا يا فتى». فانحلّ شيءٌ من حُبسة لسانه، وهَمّ أنْ يقول، فعاجلْتُه: «إنّني أسمعك منذ عامٍ فما الّذي غيّبكَ عَنّا... أما عرفتَ أنّني كنتُ أعيشُ على ما تقول؟!». فانحلّ ما تبقّى من حُبسته، وهتف بصوتٍ راجف: «مَنْ أنتَ... أحمار أم جنّيّ»؟!. فقلتُ: «أنا أبو صابر... سائحٌ مثلك في مَلَكوت الله، أبحثُ عنه كما تبحث». فسرى الدّم

المتجمّد في عروقه، وقال: «وهل يجمعنا البحثُ عن الله؟ آلبشر والحمير؟». فقلتُ وقد أخذتْني العِزّة: «إنّنا نعرفُ الله أكثرَ منكم». فهزّه ذلك وأنا خائفٌ من أنْ يكون سببًا في غيابه من جديد، فقال: «والله ما على الله شيءٌ يُعجِزه؛ حمارٌ يتكلّم بلسانٍ عربيٍّ مُبين!!». فقلتُ: «إنّ الّذي علّمكم لَلّذي علّمنا، ولكنّ الله حبسَ لسان بني جِنسي وأطلق لِساني، وما ذلك إلاّ بدعوةٍ من شيخٍ كان من أهل الله». فسألني: «ومن ذلك الشّيخ رحم الله والدَيك؟». فقلتُ: «الشّيخ عليّ... الّذي علّم أهل هذه القرية». فرأيتُه رجف، واسترجع، واختلجتْ نظَراته، وقال: «الشّيخ عليّ الّذي جاء من الجنوب». فقلتُ: «وهل في سوف مَنْ لا يعرفه؟!». فردّ: «إنّه شيخي، وإنّني عرفتُ الله عنه». فقلتُ: «وإنّني صَحِبْتُه أكثرَ مِمّا صحِبْتَه». فقال: «فأنتَ إذًا...» فقاطعتُه: «نعم، أنا حِمارُه». فسأل: «ولكنْ ما الّذي أقامَكَ هنا في هذا المَقام، وقد مات الشّيخ قبل ما يقرب من ثلاثين عامًا؟!». فقلتُ: «جِئتُ أتهدّى خُطاه، وأقف على أطلال ذِكراه، وقد طفتُ به وطاف بي حتّى رأينا ما لم يرَ سِوايَ وسِواه». فقال: «إنّنا نصدر عن مِشكاةٍ واحدة». فقلتُ: «وهل تصحبني حتّى يأذن الله؟». فردّ: «أقْبَل، تُعلّمني وأُعلّمك». فقلت: «اتّفقْنا، ولكنْ مَنْ أنت؟». فقال: «أنا أيمن العتوم».

المَواقف والمُخاطَبات

وقلتُ له: «اكتبْ». فقال: «ما أكتب؟». فقلتُ: «خَلَقَ الخَلْقَ وخلقَ السّرّ، وقضى أنّ مَنْ عَرَفه فقد عَرَفني». فقال: «إنّكَ لَحَكِيم». فقلتُ: «نحنُ في غِنًى عن هذا، فلا تقلْ ما لم يُقَلْ». فصمتَ وقد أطرقَ رأسَه خَجَلاً.

وقلتُ له ذاتَ يوم: «نصوم حتّى تنجلي الحُجُب، فمَنْ صامَ عن العَرَض، بدا له الجوهر، وإنّه ليصفو كلّما أحرقتْنا نارُه». فقال: «ليس كلّ أحدٍ يستطيعُ ذلك يا أبا صابر». فقلتُ: «لسنا أيّ أحدٍ».

وقال: «أنا لا أطيقُ هذا». فقلتُ: «كيفَ علّمكَ الشّيخُ إذًا؟ إنّنا نُحيي أنفسنا بأنْ نُميت من هواها كلّ شيءٍ». فقال: «إنّني من طين». فقلتُ: «وأنا من طين». فقال: «إنّ التّراب لا يستطيع الصّمود أمام الماء». فقلت: «العَطَش شيطانُك، فلا تُجْرِه عليك». فخفضَ طرفه مرّة أخرى وخجل.

وقلتُ له: «هل لنا في المواقف؟». فقال: «إنّني لم أَجُزْ مراتبها كلّها». فقلتُ: «نقصَتْكَ العُزلة إذًا!». فقال: «فَقِفْني أنتَ». فقلتُ: «إنّما يَقِفُنا الحقّ». فخفضَ طرفَه.

أوقفني في موقف الخوف، وقال: «مَنْ خافني أَمِن، وإنّني لا أجمع على عبدَي يوم العَرضِ خوفَين». وأوقني في

الغياب، فقال: «مَنْ غابَ عن الوجود رأى أثري في كلّ شيءٍ، ومَنْ خاضَ مع الخائضين صرفتُه عنّي». وأوقفني في موقف القُرب، فقال: «أنا بعيدٌ لمن شكّ، قريبٌ لمن أيقن». وأوقفني في موقف الأدب فقال: «مَنْ خشعَ قلبُه رقّتْ عِبارتُه». وأوقفني في موقف الحرف فقال: «للحرفِ حرف يقفُ عليه مَنْ أدام النّظر في ملكوتي، فإنّني لا أوقف على الحرف إلاّ من رأى من آيات ربّه». وأوقفني في موقف المعرفة فقال: «كلّ معرفةٍ لا تُوصل إليّ سُدى». وأوقفني في موقف العِزّة فقال: «مَنْ اعتزّ بغيري ذلّ، ومَنْ تجرّأ عليّ قُصِم». وأوقفني في موقف الصّفح، فقال: «إنّ السّاعة لآتِية». وأوقفني في موقف البصيرة فقال: «ولكنْ تعمى القلوب الّتي في الصّدور». وأوقفني في موقف الفانية، فقال: «إنّ الدّار الآخرة لَهِيَ الحَيَوان». وأوقفني في موقف الفناء، فقال: «مَنْ شَهِدني فَنِي عن ذاته لأجلي». وأوقفني في موقف النّار، فقال: «إنّني حرّمْتُها على مَنْ سبّح بحمدي آناء اللّيل وأطراف النّهار وعرف قدري». وأوقفني في موقف البحر، فقال: «ولو جِئنا بمثله مَدَدًا». وأوقفني في موقف العِلم، فقال: «ولا يُحيطون». وأوقفني في موقف النّور، فقال: «المِصباحُ في زُجاجة». وأوقفني في موقف السّاعة، فقال: «مَنْ شُغِلوا بها عنه تاهوا، ولا يُجلّيها لوقتها إلاّ هو».

وأوقفني في موقف الحجاب، فقال: «من اتّخذ من دون النّاس حِجابًا أرسلتُ له رُوحي». وأوقفني في موقف العهد، فقال: «وأوفوا». وأوقفني في موقف العِظام، فقال: «يُحييها الّذي أنشأها أوّل مرّة».

وتصبّبَ وجهُه، وسال عِرقُ مائه، وأصابه ما يُصيب كلّ مَنْ سمع قولاً ثقيلاً، فتعب، ودميتْ إصبعه، فقال: «نرتاح». فقلتُ له: «ما بدأنا، وإنّ الإنسان ليستعجل الرّاحة، أفلا صبرتَ قليلاً؟». فقال: «إنّ الرّاحة لتُنشّط القلب، فقل لي أغربَ ما رأيتَ؟». فقلت: «الإنسان؟». فقال: «قُصّ ذلك عَلَيّ». فقلتُ: «يعرفُ آيات الله ثُمّ يُنكرها».

ومكث معي عامًا يكتبُ عنّي طرفًا مِمّا مرّ بي، ونشط وهو يكتب مُذكّراتي مع الشّيخ، فقد كان قريبًا من قلبه، وكنتُ لا أعتقد أنّ للشّيخ تلميذًا أنجبَ منّي، حتّى صادقتُه، فعلمتُ أنّ فضل الشّيخ تخطّاني وتخطّى غيري.

وقلتُ: «فهل لنا في المُخاطَبات؟». فقال: «إنّني لم أسمعْها كلّها». فقلتُ: «سمعتَ ما يقول الخلق فتصامَمْتَ عن الحَقّ». فقال: «وهل أنا إلاّ أُذُن». فقلتُ: «أُذُنُ خير». فقال: «ولكنّ بعضَها فاتَني». فقلتُ: «إنّ في قلبكَ لَخَبئًا لا يجلوه إلاّ طول الإخبات وشِدّةُ الإنصات».

وقلتُ له: «اكتبْ». فقال: «ما أكتب؟». فقلتُ: «قال: يا عَبْدُ أنعمتُ عليكَ وشكرتَ سِواي». فقال: «إنّ الإنسان لكنود». وقلتُ: «قال: يا عبد حمّلْتُكَ الأمانة باختيارك فضّيعْتَها». فقال: «إنّ الإنسان لَظَلوم». وقلت: «قال: يا عَبْدُ أريتُكَ آياتي فأعرضْتَ عنها». فقال: «كم ينأى الإنسانُ بجانبه». وقلتُ: «قال: يا عَبْدُ أعطيتُكَ ما يُغنيك فنظرتَ في يد غيرك إلى ما يُفقِرك». فقال: «إنّ الإنسان لَحَسُود». فقلتُ: «قال: يا عبدُ علّمْتُكَ الأسماء فضيّعت». فقال: «فَنَسِي». فقلتُ: «قال: يا عبدُ أمرتُكَ أنْ تُحسِنَ إلى مَنْ أساء ويكون جزاء ذلك عندي. وأمرتُكَ أنْ تحقر الشّهوة فأتيتَها وأنتَ تُدرك أنّ جزاء ذلك عندي». فقال: «وخُلِقَ الإنسانُ ضعيفًا». فقلتُ: «قال: يا عَبدُ كان الخير لك، فلمّا استبطأتَه حِدت عن الجادّة». فقال: «خُلِقَ الإنسان من عَجَلٍ». فقلتُ: «قال: يا عبدُ كلّ عُسْرٍ إلى يُسْر، وكلّ مُصيبة إلى ذَلولٍ، فاصبر تحمد العاقبة». فقال: «إنّ الإنسان خُلِقَ هَلُوعا». فقلتُ: «قال: يا عَبْدُ نِعمتي سابغة؛ فلا تأسَ على ما فات ولا تفْرح بما هو آت». فقال: «كان يؤوسا». فقلتُ: «قال: يا عبدُ لا تنطقْ؛ فمن وصل إليّ لا ينطق». فصمت، وكانتْ عيناه تَهمِلان، فقلتُ: «ما يُبكيك؟». فقال: «عرفْتَ ما لم أعرف، ولو أنّني فهمتُ عن الشّيخ ما فهمتَ لكنتُ من أهل الله». فقلتُ:

«لو جاهدتَ نفسَك كما جاهدتُها لأدركتَ، ولكنْ ما زال في العُمر بقيّة، فاحملْ إليه كُلّك؛ فإنّ أبوابه مفتوحةٌ لخلقه في كلّ آن».

ثُمّ عاهدَني أنْ يكتبَ كلّ ما تعلّمْتُه في تطوافي، فقلتُ له: «إنّـكَ محتاجٌ إلى صبرٍ شديد، حتّى تقدر عليه». فقال: «جرّبْني». فقلتُ: «وهل النّار إلاّ عن تجربة». فضحك، وقال: «نار العِلم أم نار الوجود؟». فقلتُ: «بل نار الفلسفة».

مكتبة
t.me/t_pdf

في الفلسفة

وأمليتُ عليه كتابي في الفلسفة، وسَمّيْتُه وفاءً لذكرى صَعْدة: (صوت الحمير)، وأقمْتُ أبوابه على الكُلّيات، وفصوله على الجُزئيّات، ومكثْنا شهورًا طويلةً في ذلك، حتّى حَفِيتْ بنا الرّقاع، وتشقّقتْ بين أيدينا الكُعُوب، واسودّتْ بحبرنا الأصابع.

صوتُ الحمير
مدخل إلى الفلسفة الحِماريّة

أملاه: أبو صابر

المنارات للنّشر

هذه شَذَرات اقتُطِعتْ على غير انتِظام من الكتاب، ومَنْ أراد الاستِفاضة، فعليه أنْ يعودَ إليه، فهو مَبذُول لمن أراد:

فلسفة البدايات:

- كان هُناك الحقّ ثُمّ كان كلّ شيء.
- كانتْ هناك الكلمة، ثُمّ كان الوجود.
- نقطةٌ على مُحيط دائرة؛ كلّ نقطة بداية، كلّ نقطة نهاية، كم تشبُه تلك البدايةُ النّهايةَ الّتي تسبقها، كم تتداخل تلك النّهايةُ مع البدايةِ الّتي تليها!

فلسفة الموت والحياة:

- الأرض كُلّها قبورٌ للموتى، نحن لا نريد أنْ نزيدَ عدد الموتى الّذين يمشون فوقَها.
- حياة الكائنات مثل نيزكٍ وقع من الغيب، وكلّما استمرّ في السّقوط ازداد وميضُه، لكنّه يفقد في كلّ مرحلةٍ جزءًا منه، في نهاية السّقوط سيفقد كلّ شيءٍ.
- الموتُ مرآة الحياة، لا ترى الحقيقةَ وأنتَ أمامها، بل خلفَها.
- لا يُمكن إيقاف الموت، لكنْ يُمكن إيقاف الجِدال حوله.
- الشّيخوخة لا ترحم أحدًا؛ إنّها عِقابٌ إلهيّ للمخلوق الّذي سَرَقَ المُتَع العابرة من دُكّان الهَوى.
- من التُّراب إلى التّراب، من الصّفر إلى الصّفر؛ لقد كان كلّ هذا وَهْمًا.
- الموت ملكيّة خاصّة، والحياة ملكيّة عامّة.

فلسفة العِبادة:

- البشر يعبدون ألفَ إله، ونحنُ نعبدُ إلهًا واحِدًا.

- لو كانوا يعرفونه كما نعرفه، لسبّحوه حتّى تبلغ الرّوح التّراقي.

فلسفة الزّمن:

- البشر من جهةٍ أشدّ المخلوقات غباءً؛ يقتلون أوقاتهم ثُمّ يبكون عليها.
- الزّمن نُقطة ضوء. العالَم مُعتِم. النّقطة تسبح في بحر العتمة ثُمّ تغرق.

فلسفة النّهايات:

- يقول البشر: ستكون نهاية الكون بانفِجارٍ عظيم كما بدأتْ، ويقول صنفٌ ثانٍ: بل بحريقٍ يأكل كلّ شيء. ويقول صنفٌ ثالثٌ: بل بالطّوفان. ورابع: بل بالخَسْف، وخامس: بل بانعِكاس دَوَران الأرض، وسادس: بل بالرّيح، وسابع: بل بزلزالٍ يُعيد ترتيب الأشياء إلى بداياتها... ويستمرّون في الجِدال والمِراء على هذا النّحو بشكل يدعو للعَجَب!! لقد قال أجدادي: إنّ كلّ الّذين

جادلوا في النّهايات قَضَوا قبل أنْ يشهدوها.

فلسفة الهُوُيّة:

- مَنْ هو الإنسان على الحقيقة؟ مَنْ هو الحِمار؟
- البشر يلبسون ألفَ قِناع أمام الآخَرين، نحن لا نلبسُ إلاّ أنفُسَنا.
- لا وُجود إلاّ لمن كانتْ له ذاكرة، ولا ذاكرة لمن لا ينسى، نحن بهذا أثبتُ وجودًا.
- يأكل البشريّ لحم أخيه مَيْتًا وحَيًّا، مَنْ مِن الحمير يُمكن أنْ يُفكّر بذلك لحظةً واحدةً دون أنْ يتقيّأ؟

فلسفة الحقيقة:

- الحقيقة بعضٌ من تجلّي الحَقّ، مَنْ عرف الحقّ عرفَها.
- لا أحدَ يمتلك الحقيقة المُطلَقة، كلّنا نبحثُ عنها، وَمَنْ كان أسْيَرَ في بلاد الله كان أقربَ إليها مِنْ سِواه.

فلسفة العقل:

- إذا كان أبسطُ تعريفٍ للعقل هو ما عقلكَ عن أنْ تأتيَ الشّرّ، فالبشر في الأعمّ الأغلب بلا عقول، ونحن بهذا المِقياس أعقلُها.
- البشر متأخّرو الفَهْم، يقولون للّذي ارتكب الملذّات حتّى بلغ الثّلاثين من عُمُره الآن عَقِل؛ هل من صنفٍ من المخلوقات يصحو عقلُه متأخّرًا إلى هذا الحَدّ؟!
- البقاء على قيد الحياة صَعْب، البقاء على قيد العقل مُستحيل.
- الرأيُ عقلُ صاحبه.

فلسفة الحُبّ:

- البشر يعرفون الكُره، نحن لا نعرف غير الحُبّ، يُتقِنون الحديث عن القُبح، ونحن لا نُتقن غير الحديث عن الجَمال.
- الحُبّ أنْ تُعطي دون مَنّ، وأنْ تهب دون بَرَم، وأنْ تمنح دون ضَجَر، وألاّ يكون منكَ لكَ إلاّ الرّضا.
- المشاركة، لا الامتِلاك.

فلسفة المُوسيقى:

● خرير النّهر مُوسيقى

غِناءُ الطّيرِ للأفلاكِ مُوسيقى

هَدِيرُ الموج للشّطآنِ مُوسيقى

حَدِيثُ اللّيل للعُشّاقِ مُوسيقى

نَدى الأزهارِ مُوسيقى

إذا هو قد تساقطَ كالجُمانِ يصّبّ في الآذان إبْرِيقا

شِفاهُ الحُبّ مُوسيقى

إذا غنّتْ ... أو انسكبتْ يُليّنُ شَهْدُها الرِّيْقا

حَفِيفُ الغُصنِ فوقَ الجِذع أرهفَ سَمْعَه للبُلبلِ الغِرّيدِ مُوسيقى

تُورِّق نَغمةَ الأَلحانِ تَوْرِيقا

ولونُ العِطر إيقاعٌ يُذيبُ الرُّوحَ تَشويقا

ألْستَ ترى؟

فقطْ حدّقْ بِعَينِ القَلبِ تَحْدِيقا

فلا يَعْمَى سِوى الإنسانِ!

تَشْويهًا وتَعْوِيقا

فلسفة الفقر والغِنى:

- ملكْتَ كُلَّ شيءٍ فأينَ غِناك؟! تخفّفتَ من كلّ شيءٍ فأين فقرُك؟!
- لبسْتَ أجملَ ثوبٍ وأنتَ عارٍ، ما قيمة الثّوب لمن أفقرتْهُ أخلاقُه؟!
- ما تَملِكُه يَملِكُك. ازهدْ تَغْنَ.
- البشر يحرسون أموالهم، انظرْ إلى الملايين الّتي في أرصدتهم، إنّهم يخافون عليها أنْ تنقص، ويجتهدون في كلّ حينٍ أنْ يزيدوها. يقول أحدهم: «انظروا إلى بيت جاري إنّ سُورَه أعلى، انظروا إلى ركوبته إنّها أحدث، انظروا إلى ولده إنّه جميل، انظروا... البشر ينظرون دائمًا إلى ما في أيدي الآخرين، ما أفقرَهم!!
- طريقان يُوصِلان إلى السّعادة: القناعة، والشُّكر.
- لا يكون ندمٌ إلاّ لمن فَقد.
- الإنسان يشتهي ما فَقد، ونحن لا نشتهي إلاّ ما نَجِد.

فلسفة الألم:

- كنتُ أمشي حافِيًا حتّى صنع لي الحذّاء حَذْوة، فصرتُ أمشي أعرج. قلتُ للحذّاء: نقصني ما زِدتني، إنّني أجدُ ألم هذه الزّيادة، وأنشدتُه: «زيادة المرء في دُنياه نُقصانُ».
- لم أسقِ زهرةً في الصّباح، لم أحدّثْ نجمةً في المساء، لم أُنشِدْ بيتًا في العشق هذا اليوم، لم أهمس في أُذُنَيها: أحبّكِ. كم هو مُؤلِمٌ كلّ هذا!

فلسفة اللّذّة:

- قلتُ للنّحْلة: ما أطيبَ عسلك! قلتُ للنّجمة: ما آنسَ ضوءَك! قلتُ للنّملة: ما أعجبَ صُنعك! قلتُ للإنسان: ما أبدعَ خلقَك! قلتُ لنفسي: ما أندى قولكَ! إنّني لأجد لذّة هذا فِيّ.
- وماذا يبتغي الجسد؟ لم يمنع الله عن مخلوقٍ طعامًا، ولا عن روحٍ ماءً، ولا عن حَيّ شمسًا!! ماذا يريد الخَلْق أكثرَ من ذلكً؟!

الشُّهب تتساقط

لقد أدّيتُ واجبي تُجاهك يا صَعدة، لو كان خلقٌ مُخلّدٌ لكان الإنسان، أُعطي كل شيءٍ، ثُمّ سُلِبَ منه ذلك كُلّه بالموت. أراكِ كثيرًا، كأنّكِ ما زلتِ هنا، كأنّ رحيلكِ غائمٌ ليس حقيقيًّا. لا أدري؛ أهو صوتُكِ هذا الّذي أسمعُه في الأعماق أم صوتُ النّهايات؟ ما أوجع النّهايات يا صَعدة!

خرجتُ مع الفتى إلى القبور، صار يعرفُ أنّنا نأتي الحقيقة، نطوفُ بين الرّاحلين، كانوا طيوفًا شغلت الفراغ ثُمّ صارتْ هي الفراغ، ونحن كغيرنا سنقع في هُوّة هذا الفراغ السّرمديّ.

قلتُ له: «هذا قبرُ الشّيخ عليّ، مُعلّمنا معًا، دَعْنا نجلسْ إليه قليلاً؛ فإنّ الموتى أوعظُ من الأحياء». وقرأنا على رُوحه الفاتحة. لم ندرِ أنا وهو إذا ما كان الشّيخ عليّ حقيقةً أم وهمًا؟ هل علّمنا هذا العِلم أمْ أنّه لم يُخلَق، ولم يَسِرْ خُطوةً واحدةً على هذه البسيطة؟ هل قَدِمَ من الجَنوب كما أخبرنا معًا؟ وكيفَ يكون الجنوب جهة، وفي الموت والحقيقة لا جهة؟ وهل وعظَنا بوجوده أم بفنائه؟ بحياته أم بموته؟

ماذا تعني كلّ هذه الحياة؟ ماذا يعني كلّ هذا التّطواف فيها إذا كان آخرها الرّحيل؟ ماذا يعني أنْ أكتب كلّ هذه الحروف وأُمليها على هذا الفتى. إنّه يعرفُ هو الآخَر أنّ في الحروف ما لم أقلْ، ما كُنتُ أودّ أنْ أقوله ولكنّني لم أفعل، ولا أدري لماذا

لم أفعلْ!

هل الحياة حُلُم؟ أيّامنا الّتي قضيناها معًا كيفَ لها أن تكون حقيقيّة؟ أيّامنا الّتي مَخَرْنا فيها عُبابَ العالَم؛ أيّ عالَم هذا الّذي كان يُمكنه أنْ يتّسع لأحلامنا؟ أيُّ عالَمٍ هذا الّذي يُمكنه أنْ يُدرك ماذا كان يضجّ في أرواحنا؟

الفتى أخرجني من العُزلة، ربّما لأنظر إلى العالَم لمرّة أخيرة، ربّما لأنظر في وجوه النّاس فأرى ما فعلْنا من أجلهم، ففي النّهاية نحن ما نتذكّر. دأب على أنْ يُسمعني نشيجه الّذي قدّمني إليه، لولا هذا الحُزن المُختّر ما تعارفْنا، هل تكون وشيجة الحُزن أشدّ الوشائج عُلُوقًا بالنّفس؟!

ذهبْنا أنا والفتى قبل فترةٍ إلى بيت الشّيخ عليّ، لقد صار أطلالاً مُهدّمة، كأنّ الدّار أصابَها هي الأخرى حزنٌ على رحيل صاحبها! هل الدّور تعشق مثلنا، وتشعر بالحنين إلى أهلها كما نشعر؟! لم يسْكن داره أحدٌ من بَعدِه، كانت خاوية تمامًا، مثل روحي يا صَعْدَة.

مَنْ يسكن دار الشّيخ إذا لم يكنْ مثل الشّيخ؟ مَن يحلّ في قلوبنا إذا لم يكنْ يعرفُ كيفَ يعمُرها؟ ما أوحشَ الدّرب يا صَعْدة! أشعرُ بأنّ قُواي تضعف، إنّها تزيدُ عن سبعين عامًا،

رأيتُ فيها من الأهوال ما يشيب له رأسُ الوليد، وقد آن أنْ أرتاح! الفتى شعرَ بذلك هو الآخَر، فصار يستعجلني - على عادة الإنسان - أنْ أُملي عليه كلّ ما رأيت قبل أنْ تُرفَع الأقلام؟ وهل يستطيع المحزون أنْ يبوح؟

قلتُ له: «إذا مِتّ فادفنّي تحتَ شجرة البلّوط الّتي كُنتَ تُغنّي تحتها، على مقربة من كهفي، لعلّني أسمعُ نداء الأرواح من هنا، وآنسُ بقرب ابن الأدهم، فقد كان مثلنا، واحِدًا في سلسلة الباحثين عن الله». قال: «لن تموت قبل أنْ تقول كلّ شيءٍ». كانتْ أوّل مرّةٍ أنزعج فيها لِما يقوله هذا البشريّ، ولكنْ ماذا نفعل مع الإنسان؛ وهو هو في كلّ عَصرٍ ومِصر؟!

منذُ عشرِ ليالٍ وأنا أُحدّق في السّماء، أقرأ فيها حروف النّور، وأرى طُيوف الرّاحلين، وأشعر بأنّ النّهايات قد صارتْ أقرب من شِراك النّعل. تهون النّهايات يا صَعدة إذا كانتْ ستجمعك بمن تُحبّ.

إنّني أفقدُني يا صَعْدة، في كلّ يوم ينقصُ منّي عُضو، هل نحن بَعْضٌ يذهبُ في إثر بَعض؟! صار الفتى يجلسُ إليّ ويستنطقني، وأنا صامتٌ لا أقول شيئًا، تركتُ بين يديه ذُخرًا آمُل أنْ يستفيد منه النّاس، وهل ينقطعُ ذِكْرُ مَنْ جعل من الكلمات صَدَقتَه الجارية؟ لم أعدْ أقوى على الكلام، الصّمتُ يُريحني،

سوف أترك للفتى أنْ يُكمل عنّي فقد تعبتُ من كلّ شيءٍ.

قال الفتى: تركتُ أبا صابر في اللّيلة الأخيرة في الكهف، كان كلّ شيءٍ فيه ساكِنًا، فقط عيناه كانتا تنظران إلى البعيد، وتُحدّقان في الفراغ، وتتبعان أفول الشّهب المُتساقطة بكثافة، لعلّه كان يبحثُ عن شِهابه الخاصّ به، ويُتابِعه بعينَيه، وينتظر ظهوره. وفجأةً تحرّكتْ جوارحه، وانتبه؛ ها هو شهابُه يسقط، ها هو يذوب، وها هو يغرقُ في ظَلامٍ كثيف!!

مكتبة
t.me/t_pdf

انتهت

عمّان

في ١٥-١-٢٠١٩

مكتبة | سُر مَن قرأ

telegram
@t_pdf

رواية

صوت الحمير

روايـة فلسـفيّة سـاخرة، بطلُهـا الحمـار (أبـو صابـر)، يـروي الأحـداث بلغتـه، مـن خـلال رفقته للشّـيخ (علـيّ). الرّواية تُحاول أنْ تُقارن بيـن الإنسـان والحيـوان، وتُسـفر مـن خـلال السّـرد عـن طبائـع البشـر وصفاتهم.

تحـوّلات الحمـار (أبـو صابـر) فـي الرّوايـة وسـيرورة الأحـداث تُبرز مواقفه مـن المجتمع والحيـاة، فهـي تعـرض لفكـرة صبـر الحمير، وقـوّة احتمالهم، وقُدرتهـم البالغة على الفهم والنّظـر فـي الأمور.

يتنقّـل الحمـار (أبو صابـر) بين أكثر مـن مالكٍ فـي البدايـة إلى أنْ يسـتقرّ عند الشّـيخ (عليّ) الـذي يكتشـف أنّ الحمـار يتحدّث بلغـةٍ عربيّة فصيحـة مُبينـة، فيبدأ يقرأ عليـه الكتب، ومن هنـاك تبدأ رحلة الحمار مع الشّـعر والفلسـفة والتّاريـخ، ومن خلال جولاته مع الشّـيخ يتعلّم الكثيـر، وحينَ يكتشـف أنّ للشّـيخ ابنـة تركها وحيـدة وعمرهـا عامـان يُسـاعده فـي البحث عنهـا، وخلال رحلـة البحث هذه يُقابـل أقوامًا كثيريـن، ويحاورهم، ويُظهر ضحالـة تفكيرهم وجهلهـم، ويطـوّف بالشّـيخ في قـرى الأردنّ مـن الشّـمال إلى الجنـوب، فهـل تنتهي هذه الرّحلـة بـأنْ يجد الشّـيخ ابنته أم لا؟

كمـا تعـرض الرّوايـة مـن خـلال بطلهـا الاسـتثنائيّ هـذا قضيّـة أكل لحـم الحمير، ويَبْـع حليبهـا الـذي يكاد يُـؤدّي إلـى انقراض جنـس الحمير، ويلتقـي فـي النّهايـة بأحـد تلاميـذ الشّـيخ علـيّ، ويُملـي عليه فلسـفته فـي الحيـاة، وحيـنَ ينتهـي كتـاب الفلسـفة الحماريـة، تنتهـي رحلة الحمار، ويمـوتُ راضيًا عن نفسـه وعن الخدمات الجليلـة التي قدّمها للجنـس البشـريّ.

متوفر الآن على
تطبيق عالم ديوان
حمّله الآن
GET IT ON Google Play
Download on the App Store

– diwanworld –

ISBN 978-9923-758-18-4
9 789921 758184